
روايات مصرية
Looloo
www.looloolibrary.com
الموت
فى قطرة
د. نبيل فاروق
رجل المستحيل

رجل المستحيل

(أدهم صبرى) .. ضابط مخابرات مصرى ، يرمز إليه بالرمز (ن ــ 1) .. حرف (النون) ، يعنى أنه فئة نادرة ، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه ؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص .. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة ، من المسدس إلى قاذفة القنابل .. وكل فنون القتال ، من المصارعة وحتى التايكوندو .. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة ، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج) ، وقيادة السيارات والطائرات ، وحتى الغواصات ، إلى جانب مهارات أخرى متعددة .

لقد أجمع الجميع على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات ..

ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل ، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة ، لقب (رجل المستحيل) .

د. نبيل فاروق

الفصل الأول

هدوء مهيب ، ساد تلك البقعة ، من صحراء (سيبيريا) الجليدية ، فى تلك الفترة من منتصف الشتاء ، حيث تنخفض درجات البرودة ، إلى ما يقرب من ثلاثين درجة تحت الصفر ، وبدت المنطقة كلها ساكنة ، يمتد الجليد فيها إلى مدى البصر ، وتنتثر عبرها مجموعة من الأشجار الطويلة ، القادرة على الحياة فى هذا الصقيع ، الذى تتجمّد معه الأنامل ، وتنحبس فيه الأنفاس ، حتى صار المكان كله أشبه بلوحة قاسية ، من فن عصور النهضة الأوروبية ...

ثم ، وبلا مقدمات ، تعالى ذلك الهدير من بعيد ...

ورويدًا رويدًا ، راح ذلك الهدير يعلو ويعلو ...

ثم ظهر مصدره ..

عبر ثلوج (سيبيريا) ، انطلقت هليوكوبتر قوية ، على ارتفاع منخفض ، تشق الهواء البارد ، فى خط متعرج ، تعمّده قائدها ، للإفلات من شبكات الرادار ، المنتشرة فى المنطقة ، وهو يتجه بركّابه الخمسة ، نحو بقعة بدت خالية تمامًا من أية حياة ...

حتى تلك المخلوقات الصغيرة ، التى اعتادت العيش وسط الثلوج ...

وداخل الهليوكوبتر ، استقر أربعة رجال ضخام الجثة ، مفتولى العضلات ، لهم ملامح قاسية خشنة ، فى صمت مهيب ، يتطلعون على نحو مدهش مع حللهم السوداء ، وأربطة أعناقهم ، التى جعلت كلها شيئًا عجيبًا ...

شعار يشبه حرفًا إنجليزيًا ، شكَّل هيئة أفعى ، تلتف حول نفسها ، وترفع رأسها في تحفز ...

وفي صرامة واضحة ، وفي تعارض واضح مع ضخامة العمالقة الأربعة ، جلست حسناء شقراء في المقدمة ، إلى جوار الطيَّار ، وهي تمسك بين أصابعها الدقيقة سيجارة رفيعة ، ينبعث منها خيط من الدخان ، بدا من الواضح أنه يثير ضيق طيَّار الهليوكوبتر ، إلا أنه لم يعترض أو يحاول الاعتراض ، مما أوحي بقـوة وصرامة تلك الشقراء ، التي تناقضت ملامحها شديدة الحسن ، مع الصرامة التي انحفرت في قسماتها ، ومنحتها هيئة زعامية مهيبة ، تجلَّت أكثر في صوتها ، وهي تشير بسيجارتها إلى تلك المنطقة الخالية ، قائلة في اقتضاب صارم :

ــ هنا .

لم يدر الطيَّار ماذا يميِّز تلك البقعة عن غيرها ، إلا أنه أطاع الأمر ، ومال بالهليوكوبتر ، نحو البقعة التي أشارت إليها ، وارتفع حاجباه في دهشة كبيرة ، عندما انتبه فجأة إلى ثلاثة من الرجال ، في معاطف سميكة من الفراء الأبيض ، لم يمكنه تمييزهم من علٍ ، وكانت نظرات تشف عن أنهم كانوا في انتظار مقـدم الهليوكوبتر ، التي لم تكد تستقر ، على قيد أمتار قليلة منهم ، حتى تقدَّم نحوها أحدهم ، ومد يده قائلاً بالروسية ، في احترام واضح :

ــ سيدة (سونيا) ... قلقنا كثيرًا ؛ عندما تأخَّرت عن موعدك .

غادرت (سونيا جرهام) الهليوكوبتر في هدوء ، ولحق بها عمالقتها الأربعة ، يحيطون بها في سرعة ، شفَّت عن وظيفتهم كحرس خاص ،

وظلَّت على برودها الصارم ، وهي تجيب الرجل ، الذي يحمل وجهًا أشبه بوجه فأر قطبي ، متجاهلة يده الممدودة إليها :

ــ كان عليَّ أن أطمئن إلى إجراءات الأمن أولاً .

ارتسمت ابتسامة باهتة على وجه الرجل ، وهو يعيد يده إلى جواره ، قائلاً :

ــ هذا حقك .

ظلَّ قائد الهليوكوبتر في مكانه ، خلف عصا القيادة ، في حين قاد وجه الفأر الباقين إلى مبنى صغير للغاية ، له سقف يتجاوز مساحة سطحه ، وتكسوه الثلوج في كثافة ، على نحو كفيل بإخفائه عن الأنظار ، وتجاوز الرجلين الآخرين ، على نحو يوحي بضآلة شأنهما ، وهو يقول في برود :

ــ سيروق لك ذلك الكشـف الجديد ، الذي أخبرتك عنـه للغاية ... هذا لأنه سيقلب موازين التسليح ، في العالم كله ... لن تعود هناك حاجة بعده لأسلحة ضخمة ، أو معدات حربية ثقيلة .

تمتمت (سونيا) في اهتمام ، حاولت أن تخفيه ، خلف نبرة لا مبالية ، وهي تتجاوز معه مدخل ذلك المبنى الصغير :

ــ حقًا ؟!..

كانت هناك لافتة كبيرة في المدخل ، تحظر التدخين داخله ، إلا أنها تجاهلتها تمامًا ، وتفثت دخان سيجارتها الرفيعة في عمق ، ولم يحاول وجه الفأر الاعتراض على هذا ، وهو يقودها وزميلها إلى مصعد كبير ، قائلاً بنفس البرود الروسي المستفز :

ـ لقد استغرق الأمر منا ما يقرب من عام كامل ، من التجارب والأبحاث ، قبل أن نتوصل إلى هذه المادة ، ولكنك سترين الآن كيف أنها تستحق كل دولار نطلبه .

نفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، وهى تغمغم فى صرامة ، توارى خلفها اهتمامها :

ـ سنرى .

ثم ألقت بقايا سيجارتها فى ركن المصعد ، فى لا مبالاة كاملة ، فى نفس الوقت الذى ضغط فيه وجه الفأر زرًا يحمل الرقم (خمسة) ، فبدأ المصعد كله بالهبوط إلى أسفل ، وهو يقول ، فى شىء من الزهو :

ـ هذا المكان كان ملكًا للمخابرات السوفيتية ، قبل سقوط الاتحاد السوفيتى ، وكان يعد أحد أهم وأخطر أسرارها ، ولكننا دمرنا كل الوثائق الخاصة به ، ولم يعد هناك من يدرك وجوده الآن سوانا .

مطت شفتيها الجميلتين ، دون أى تعليق ، وبدت ضجرة إلى حد ما ، حتى استقر المصعد فى الطابق الخامس تحت الأرض ، فقال وجه الفأر فى حزم :

ـ وصلنا .

انفتح باب المصعد ، ليكشف معملاً حديثًا ، انتشرت فيه العديد من الأجهزة المتطورة ، تاركة مساحة كبيرة فى نهايته ، تخلو من أى شىء ، على نحو جعل من الواضح أنها تستخدم لاختبارات ما ، وظهر عدد من الرجال ، فى معاطف بيضاء ، يتحركون هنا وهناك ، وكلهم التفتوا إلى باب المصعد ، عندما غادرته (سونيا) مع رجالها ، يتقدمهم وجه الفأر ، الذى اتجه بهم مباشرة نحو المساحة الخالية ، وهو يقول :

ـ سنجرى تجربة فورية ، تثبت قوة وفاعلية المادة الجديدة .

وبإشارة من يده ، هرع إليه أحد أصحاب المعاطف البيضاء ، وناوله فى حرص بالغ ، قنينة بالغة الصغر ، تحوى قطرات قليلة ، من سائل شبه شفاف ، يميل إلى الزرقة ، فرفع القنينة أمام وجه (سونيا) ، قائلاً :

ـ ها هو ذا .

تطلّعت (سونيا) إلى القنينة الصغيرة فى استنكار ، مغمغمة فى ازدراء :

ـ هذه ؟!..

ابتسم الرجل ابتسامة ، جعلته أكثر شبهًا بوجه الفأر ، وهو يقول :

ـ كم سيشبعنى رؤية تعبيرات وجهك الفاتن ؛ عندما تدركين تأثير تلك القطرات الصغيرة .

مد يده نحو أحد رجاله ، فأسرع يناوله هاتفًا خلويًا صغيرًا ، حمله مع القنينة ، إلى منتصف المساحة الخالية ، وهو يشير إليها ورجالها بالانتظار فى موضعهم ، وانعقد حاجبا سونيا الجميلين ، وهى تراقبه يضع القنينة على الأرض فى حرص ، ثم يضع الهاتف الخلوى بالقرب منها ، ويعود إليهم قائلاً :

ـ الأفضل أن تتراجعوا جميعًا .

تراجعوا بضع خطوات ، وأشار هو بيده ، فهبط حاجز من زجاج مقاوم للانفجار ، يحول بينهم وبين تلك القنينة الصغيرة والهاتف الخلوى ، وبدت على شفتى وجه الفأر ابتسامة باهتة ، وهو يقول ، مخرجًا هاتفه الخلوى الخاص :

ـ الآن سترون .

ضغط أزرار هاتفه فى سرعة ، فارتفع رنين ذلك الهاتف الآخر ، الذى تركه إلى جوار القنينة الصغيرة ، و ...

ودوى الانفجار ...

ولدهشة (سونيا) ورجالها ، كان انفجارًا شديد العنف ، نسبة إلى حجم القنينة شديدة الصغر ، حتى أنه فاق بألف ضعف على الأقل ، ما يمكن أن تحدثه كمية مماثلة من (النيتروجلسرين) ، وتسبب فى شروخ واضحة ، فى الزجاج المقاوم للانفجارات !!...

وقبل حتى أن ينحسر دوى الانفجار ، قال وجه الفأر فى جذل لم يحاول إخفاءه :

ـ هذا هو الانفعال الذى توقعته ؟!

بذلت (سونيا) جهدًا حقيقيًا ، للسيطرة على انفعالها ، واستعادة برودها الظاهرى ، وهى تشعل سيجارة جديدة ، بأصابع لم تنجح فى منع ارتجافتها ، وهى تتساءل :

ـ كيف يمكن لقطرات صغيرة أن تصنع هذا ؟!

أجاب فى زهو واضح :

ـ ما شاهدته هو نتاج عامين من العمل الشاق ، حتى أمكن لفريق علماء ، من أكثر العقول الروسية عبقرية ، التوصل إلى ابتكار هذا السائل ، الذى يحوى كل هذه الطاقة ، ويعانى من حالة عدم استقرار فى الوقت ذاته ، حتى أن رنين هاتف خلوى إلى جواره ، يكفى لفقدانه تماسكه ، فتتفجَّر كل الطاقة الكامنة فيه ، ويطلق الحجم الواحد منه ما يزيد عن مائتى ألف ضعف ... قارنى هذا بالبارود اللادخانى ، الذى يطلق الحجم الواحد منه تسعمائة ضعف ، و ...

قاطعته ، وهى تنفث دخان سيجارتها الرفيعة فى عصبية أفلتت منها :

ـ كم لديك من هذا السائل ؟! ..

أجاب وجه الفأر فى حماس :

ـ ما رأيته الآن نتاج قطرتين منه فحسب ، ولكننا منه ما يقرب من مائة ستنى لتر ، حتى هذه اللحظة ، أى ما يفوق تأثيره ثلاث قنابل نووية شديدة التدمير .

انعقد حاجباها فى شدة ، مع هذه المعلومة الرهيبة ، وراح عقلها يعمل بسرعة الصاروخ ..

إنه بالفعل سلاح جبَّار ..

سلاح سيقود العالم كله إلى مرحلة جديدة ، تفوق ما فعلته القنبلة الذرية الأولى ، فى نهاية الحرب العالمية الثانية ..

والأهم أنه سلاح يستحيل كشف أمره ، ومن السهل نقله ، من مكان إلى آخر ...

تألقت عيناها ، وهى تحاول أن تتخيَّل تلك القوة الهائلة ، التى سيحظى بها أى كيان ، يمتلك مثل هذا السلاح الجبـار ، الذى تكفى قطـرات منه لمحو مدينة كاملة من الوجود ...

ألقت سيجارتها نصف المشتعلة ، وهى تسأل وجه الفأر ، فى لهجة حاولت ألا تحشد فيها تلك الانفعال الجارف فى أعماقها :

ـ ورنين الهاتف الخلوى ضرورى ؟!

أجابها فى سرعة وحزم :

ـ إنه ملائم تمامًا ؛ لدفع المادة إلى حالة عدم الاستقرار .

أشعلت سيجارة أخرى ، دون أن تنتبه إلى أنها لم تكمل السابقة ، وهى تغمغم :

ـ إذن فيكفى أن تضع تلك المادة فى مكان ما ، وإلى جوارها هاتف خلـوى ، ثم تطلب رقم ذلـك الهاتف ، وعنـدما ينطلق الرنين ...

قاطعها وجه الفأر فى حسم ، وهو يحرك يديه فى الهواء فى حركة مسرحية :

ـ وبوم .. يحدث الانفجار .

عادت عيناها تتألقان مرة أخرى ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى شراهة ...

رنين هاتف يكفى للتفجير ...

ومن أى مكان فى العالم ...

يا له من سلاح جبّار بحق !!...

التقطت نفسًا عميقًا ؛ فى محاولة لتهدئة انفعالها ، وهى تسأله :

ـ وكم تطلبون ثمنًا لهذا ؟!

سألها فى اهتمام :

ـ ما الكمية التى تريدينها ؟!

أشارت بسبّابتها ، مجيبة فى حزم :

ـ كل الكمية المتاحة .

ارتفع حاجباه فى دهشة ، قبل أن يجيب بابتسامة صفراء :

ـ ما أنتجناه حتى الآن يساوى عشرة مليارات من الدولارات ، وهو ثمن بخس ، مقابل القوة التى يمنحها .

صمتت لحظات ، ثم أجابت فى حسم :

ـ فليكن .. أريد كل ما أنتجتموه حتى الآن .

برقت عيناه وهو يسألها :

ـ وكيف ستتقاضى الثمن ؟!

أجابته فى حزم :

ـ نقدًا ... ولكنك ستحتاج إلى مخزن كبير ؛ لتخزين كل هذه الكمية من الأوراق الخضراء .

قال بابتسامة باردة :

ـ لا تقلقى نفسك بهـذا الأمر يا سيدتى ... أخبرينى فقط متى وكيف نحصل عليها ؟!

صمتت (سونيا) لحظات ، لتدير الأمر فى رأسها ، ثم أجابت فى حزم :

ـ عندما أتيقن من أن الكمية متاحة فعليًا .

هتف :

ـ إنها متاحة على الفور ... إننا نحتفظ بها فى خزانة خاصة ، بعيدًا عن أية ترددات .



سألت في خبث حذر :

ــ مثل تردد دوى الرصاصات ؟!

هزّ رأسه نفيًا ، وهو يجيب في حزم :

ــ دوى الرصاصات لا يؤدى إلى فك تماسكها .. لا بد من تردد رقمى ، على مسافة قريبة .

سحبت نفسًا عميقًا من سيجارتها ، ونفثته في الهواء في قوة ، متجاهلة لافتة منع التدخين الكبيرة في مواجهتها مباشرة ، وسألته :

ــ وأين تلك الخزانة ؟!

ابتسم في خبث ، مجيبًا :

ــ أيًا كان موضعها ، فهي خزانة قوية منيعة ... ولا يعلم شفرتها سواى .

سحبت نفسًا آخر من سيجارتها ، وسألته في اهتمام :

ــ ومن أدرانى أنك لن تنتج كمية أخرى لمشتر آخر ، أو أنك لا تمتلك سوى هذه الكمية فحسب ؟!

شد قامته ، وهو يجيب في صرامة :

ــ لا توجد أية ضمانات يا فاتنتى ، إنه سوق مفتوح ... إلا لو قررت شراء كل ما تنتجه ، وفي هذه الحالة ، قد تحصلين على خصم خاص .

وابتسم ابتسامة لزجة واثقة ، وهو يضيف في صرامة :

ــ وعلى حق حصرى أيضًا .

سحبت آخر أنفاس سيجارتها ، ثم ألقتها بعيدًا ، وهي تقول ، في صرامة تفوق صرامته :

ــ عندى ضمانة أفضل .

قالتها ، ورفعت سبابتها أمام وجهها ، ثم جذبت وجه الفأر إليها ، في حركة مباغتة سريعة ...

وفور ارتفاع سبابتها ، سحب عمالقتها الأربعة أسلحة خفية من ثيابهم ...

وبدأت مذبحة بشعة ...

أطلقوا النار على كل شيء ...

بلا رحمة ...

وبلا أى استثناء ...

على كل بشرى في المكان ، باستثناء وجه الفأر ، الذى قبضت (سونيا) على عنقه في شدة ...

وعلى الأجهزة ...

والمعدات ...

وحتى أيضًا القاعة ...

وإثر دوى الرصاصات ، اندفع طاقم الحراسة إلى المكان ، وبدأت عملية إطلاق نيران متبادلة ، بمنتهى العنف ...

وفي قوة ، لا تتناسب مع جمالها الفاتن ، سحبت (سونيا) وجه الفأر خلف حاجز معدنى ، ثم ضغطت زرًا في خاتمها الماسى ، فبرزت من قاعدته إبرة رفيعة ، ووضعتها على عنقه ، وهي تقول في لهجة عجيبة :

ـ لو أنك حاولت حتى أن تتنفس ، سأغرس هذه الإبرة ، بما عليها من سم شرقي زعاف ، في عنقك الرفيع هذا ، والذي يستفزني ، منذ وصلت إلى هنا .

هتف الرجل في ارتياع :

ـ ولكن لماذا ؟!... إنك تفسدين عمل عامين كاملين !.. كان يمكنك الحصول على قوة هائلة .

أجابته في شراسة ، وهي تقبض على عنقه أكثر :

ـ وكان يمكن لغيري أيضًا الحصول عليها ، وأنا مصابة بمشكلة اجتماعية خطيرة ، تنحصر في مبدأ : « الكل أو لا شيء » ..

كان دوي الرصاصات يهدأ ، معلنًا نهاية القتال ، وهو يقول في عصبية :

ـ ولكنك لن تحصلي على شيء .. الخزانة مجهّزة ، بحيث تطلق ترددات رقمية ، تكفي لزعزعة استقرار السائل داخلها ، عند أية محاولة لفتحها بالقوة ، وأنا أفضل الموت ، على أن أخبرك سر شفرتها .

أطلقت ضحكة وحشية ، وهي تقول :

ـ الموت لا يخيف أمثالك ، ولكن لدي سبل أخرى ، قادرة على حل عقدة لسانك .

توقف دوي الرصاصات ، فرفعت رأسها فوق الحاجز ، وشاهدت نتيجة المذبحة الرهيبة ، التي خسرت فيها اثنين من رجالها ، قبل أن يسيطر

الآخرين على الموقف كله ، ثم ابتسمت في ظفر ، وأحدهما يقول في حزم ، خالٍ من أية مشاعر :

ـ المكان لنا أيتها الزعيمة .

دفعت إليه وجه الفأر ، وهي تقول في صرامة مخيفة :

ـ خذ هذا ... أريدك أن تقطع قطعة من جسده ، كل دقيقة ، وأن تحرص على أن يكون هذا شديد الإيلام ، حتى يستعيد عقله صفاءه ، ويخبرني بما أريد .

اتسعت عينا وجه الفأر في رعب ، وخاصة عندما أخرج كل من الرجلين مدية حادة من طيات ثيابه ، وأمسكا به ، بنفس الوجوه الباردة ، الخالية من أية انفعالات أو مشاعر ...

وطوال ما يقرب من دقائق سبع ارتفعت صرخات وجه الفأر ، حاملة مزيجًا من الرعب والألم الشديدين ، وتناثرت الدماء من جسده على نحو مخيف ، في حين ظلّت (سونيا) تراقبه في هدوء ، وهي تنفث دخان سيجارتها في استمتاع ...

بعدها ، ساد صمت رهيب لخمس دقائق أخرى ، تلاها دوي رصاصة منفردة ، قبل أن تخرج (سونيا) من ذلك المبنى القصير ، وتتجه نحو الهليوكوبتر في خطوات هادئة واثقة ، وخلفها الرجلان ، يحمل أحدهما صندوقًا صغيرًا من الرصاص ، مغلق في إحكام ...

ودون أن يجرؤ طيّار الهليوكوبتر على النطق بحرف واحد ، أو السؤال عن مصير العملاقين ، اللذين تخلفا في الداخل ، أدار محركات الطائرة

المروحية ، وانتظر حتى استقرت سونيا إلى جواره ، وأشعلت سيجارتها التى تزعجه ، وهى تقول فى صرامة :

ــ هيــا .

وعندما ارتفعت بهم الهليوكوبتر ، مبتعدة عن المكان ، دوى وسط ثلوج (سيبريا) انفجار عنيف ، وارتفعت من المكان ألسنة عالية من النيران ، ثم عادت الأمور تهدأ ، والهليوكوبتر تبتعد ....

وتبتعد ...

وتبتعد .

* * *

الفصل الثانى

ارتسمت ابتسامة حذرة ، على وجه وزير الدفاع الأمريكى ، وهو يصافح ذلك الرجل الوسيم ، قوى البنية ، رياضى القوام ، والذى حملت ملامحه تلك السمات ، التى يتسم بها أبناء (أمريكا اللاتينية) ، وقال فى حذر ، يناقض حذر ابتسامته :

ــ مرحبًا بك فى وزارة الدفاع يا سنيور (روميرو) ... دعنى أعتذر لك أوّلا ، عن إجراءات الأمن الطويلة ، التى أخّرت لقاءنا هذا .

أجابه (روميرو) فى حزم هادئ :

ــ لدى دراية كافية ، بإجراءات ونظم الأمن ، وكنت أعلم مسبقًا ، أن طلب مقابلة وزير الدفاع الأمريكى شخصيًا ، ليس بالأمر السهل .

جلس وزير الدفاع الأمريكى خلف مكتبه ، محاولاً فى جهد الحفاظ على ابتسامته ، وهو يقلب صفحات ملف كبير أمامه ، قائلاً :

ــ مقابلة وزير دفاع أية دولة ليس بالأمر السهل ، وكان من الطبيعى أن أحيل الأمر إلى أحد مساعدى ، ولكن إصرارك على مقابلتى شخصيًا ، وتأكيدك على خطورة وأهمية الأمر ، بالإضافة إلى تقارير الأمن ، التى أكدت أنك كنت أحد كبار مسئولى مخابرات دولتك ، كل هذا أقنعنى بإجراء المقابلة .

جلس (روميرو) بدوره ، على المقعد المواجه للمكتب ، وبدا هادئًا مسترخيًا حازمًا ، وهو يقول :

ــ كل هذا كان متوقعًا .

لم ترق هذه الثقة المبالغة لوزير الدفاع ، إلا أن الأوراق التى أمامه كانت تشف عن أهمية وخطورة الرجل ، فسأله فى حذر ، لم يستطع التخلص منه بعد :

ـ أخبرنى يا سنيور (روميرو) ... لماذا تركت العمل فى جهاز مخابراتك ، على الرغم من أن ملف خدمتك يوحى بأنك كنت المرشح المثالى ، لتولى رياسة الجهـاز ، فى غضون عام أو عامين على الأكثر ؟!..

هزّ (روميرو) كتفيه ، مجيبًا فى هدوء :

ـ تستطيع أن تقول : إننى قد وجدت عملاً أفضل .

ثم اعتدل بحركة مفاجئة ، واكتسبت لهجته لمحة من الصرامة ، وهو يضيف :

ـ ولكن هل سنقضى المزيد من الوقت فى إثبات معرفتكم لتاريخى وملفى الوظيفى ، أم أنه من الأفضل أن نبدأ الحديث مباشرة ؟!

تطلع إليه وزير الدفاع لحظات فى صمت ، خلت خلاله ملامحه من أية انفعالات ، قبل أن يغلق الملف الذى أمامه ، ثم يعتدل ، قائلاً :

ـ فليكن ... قلت فى طلب المقابلة : إنك قد أتيت ؛ لتعرض علينا ما يضمن بقاء الولايات المتحدة الأمريكية ، على عرش زعامة العالم الجديد .

غمغم (روميرو) :

ـ هذا صحيح .

مال وزير الدفاع بجسده كله على مكتبه ، وهو يسأله ، فى نبرة جمعت بين الصرامة والتحدى :

ـ وماذا يمكن أن يكون ما تقدمه للولايات المتحدة بالضبط ؟!

اعتدل (روميرو) وأجاب فى لهجة مماثلة :

ـ سلاح جديد .

ظل وزير الدفـاع يتطلع إليـه لحظات فى صمت ، وإن حملت ملامحه شيئًا من الاستنكار ، سرعان ما انتقل إلى صوته ، وهو يعتدل بدوره ، متسائلاً :

ـ وأى سلاح جديد ، يمكن أن تضمن به بقاء دولة ، تمتلك أكبر وأقوى مخزون نووى فى الكوكب كله ، على عرش الزعامة ؟!..

ارتسمت ابتسامة واثقة على وجه (روميرو) ، وهو يجيب :

ـ سلاح أقوى من هذا بألف مرة .

تراجع وزير الدفاع مصدومًا ، وهو يهتف مستنكرًا :

ـ يفوق مخزوننا النووى ؟!

كرّر (روميرو) بكل الثقة :

ـ بألف مرة .

ظلّ وزير الدفاع لحظات ، يتطلع إليه صامتًا ، ثم قال فى حذر ، لم يبلغه من قبل :

ـ سنيور (روميرو) ، إما أنك لا تدرك حقيقة ما تتحدث عنه ، أو أنك تحمل فى جعبتك ما يفوق تصوراتنا .

أجابه (روميرو) فى حزم :

ــ أنا أدرك جيدًا حقيقة ما أتحدث عنه .

وبدا منتشيًا فى مجلسه ، وهو يتابع ، ملوحًا بكفيه :

ــ إنه سلاح نظيف مائة فى المائة ... يمكنه إحداث تأثير تدميرى ، يفوق ما أحدثته قنبلة (هيروشيما)[*] بخمسة أضعاف على الأقل ، من دون انبعاث إشعاعى واحد ، ومن دون الحاجة إلى طائرات تحمله ، أو مفاعلات نووية هائلة لإنتاجه ... ثم أنه ...

قاطعه وزير الدفاع فى توتر ملحوظ :

ــ أى سلاح خرافى ، يمكنه أن يحدث مثل هذا التأثير ؟!

حملت شفتا (روميرو) ، على الرغم منه ، ابتسامة ساخرة ، وهو يقول :

ــ لو أنك عدت بذاكرتك قليلاً إلى الوراء يا سيادة الوزير ، ستجد أن هذا نفس التعليق ، الذى كنت ستحصل عليه ، إذا ما حاولت وصف تأثير القنبلة الذرية ، قبل أن تظهر إلى الوجود .

عاد وزير الدفاع إلى صمته طويلاً هذه المرة ، وقد تصافح حاجباه ، وهو يتطلع إلى (روميرو) ، وكأنما يتساءل : عما إذا كان الرجل مختلاً ، أو أنه بالفعل يعنى ويعى ما يقول !!...

فما يصفه بالفعل ، هو أخطر سلاح عرفته الأرض ، منذ اكتشاف النار ...

وهو على حق تمامًا فى وصفه ...

(*) هيروشيما : مدينة يابانية، ألقيت عليها أول قنبلة ذرية فى التاريخ ، فى 6 أغسطس 1945م ، مما أسفر عن إصابة مائة وثلاثين ألفا ، وتدمير 90% منها، ولقد أعيد بناؤها ، ويعقد فيها مؤتمر سنوى ، فى ذكرى الواقعة .

كل جديد ، يبدو غير قابل للتصديق فى البداية ...

ثم سرعان ما يصير حقيقة ...

وقوة ...

و ...

« دعنى أر ما لديك ... »

قالها الوزير ، فى صرامة امتزجت بالعصبية ، فابتسم (روميرو) ، وهو يقول :

ــ لست أظنك تتصور أننى أحمل ذلك السلاح الرهيب معى ، ولا أننى سأعطيكم التفاصيل ، التى تفيدكم فى إنتاج مثيل له .

ثم اعتدل ، مضيفًا فى حزم :

ــ لقد جئت فقط لأخبركم بما لدينا ... وبالثمن الذى نطلبه ؛ لحصولكم عليه .

ومال نحوه ، مردفًا فى قوة :

ــ قبل أن يحصل عليه غيركم .

ضغط حروف كلمة (غيركم) هذه فى قوة ، فانتفض الوزير على مقعده ، وقال فى حدة صارمة :

ــ أهذا تهديد أم مساومة ؟!

هز (روميرو) كتفيه مجيبًا :

ـ إنها حقيقة ، من الضرورى أن تعلموها ؛ فهو سوق مفتوح ، ومتاحة لمن يمكنه دفع ثمنها .. ولنقل إننا نبدأ المزاد بخمسة مليارات دولار .

انتفض الوزير مرة أخرى ، وهو يهتف غاضبًا ومستنكرًا :

ـ مزاد ؟!

نهض (رميرو) ، وكأنه ينهى المقابلة من جانب واحد ، قائلاً فى صرامة :

ـ ألقوا عرضكم ، أو يذهب السلاح إلى غيركم .

هبَّ الوزير واقفًا فى حركة حادة ، وهو يضغط بعض الأزرار على سطح مكتبه ، فاندفع رجال أمنه إلى المكان فى تحفز ، ولكن (روميرو) رمقهم بلا مبالاة ، والتفت إلى الوزير ، يقول فى هدوء وتحد :

ـ يمكنهم اعتقالى ، أو حتى قتلى لو أردت ، إلا أن هذا لن يسفر حتمًا عن شىء ؛ لأننى لا أعلم أكثر مما أبلغتك به .

حسب الوزير الأمر فى ذهنه فى سرعة ، ثم سأله بكل صرامة ، وهو يشير إلى رجال أمنه بالابتعاد :

ـ ومن أدرانا أنه هناك لمثل ذلك السلاح الخرافى وجود ؟!

التمعت عينا (رميرو) ، وهو يقول :

ـ هذا هو السؤال .

ثم مال نحو الوزير ، متسائلاً بابتسامة كبيرة واثقة :

ـ ما رأيك فى تجربة ؟!

ولم يجب الوزير سؤاله ...

أبدًا ...

* * *

« لا يمكننى تصديق هذا !!... »

قالها مستشار الأمن القومى الأمريكى فى توتر ، فى ذلك الاجتماع المغلق المحدود ، الذى جمعه مع وزير الدفاع ، ومدير المخابرات ، فى المكتب البيضاوى للرئيس الأمريكى ، فتراجع هذا الأخير فى مقعده ، وهو يقول :

ـ لا يمكننا أن نصدق أو نكذب هذا ، قبل تلك التجربة ، التى قال ذلك الألبانى أنها ستبهرنا .

وأضاف مدير المخابرات فى قلق :

ـ ثم إن تحرياتنا أثبتت ، أن (روميرو) هذا ، قد التقى أيضًا ، وقبل لقائه مع وزير دفاعنا بوزير الدفاع الصينى ، وقضى معه ضعف ما قضاه مع وزيرنا من وقت .

تقابل حاجبا الرئيس الأمريكى فى قلق ، فى حين قال وزير الدفاع فى توتر شديد :

ـ (روميرو) بدا واثقًا بشدة مما لديه ، وواثقًا أكثر ، من نتائج التجربة ، التى أشار إليها ، وهو ليس بالرجل السهل ، الذى يمكن تجاهل ما يقول ، كما أنه حتمًا ليس دجالاً أو محتالاً ، ولقاؤه بالوزير الصينى ، يعنى أن الأمر بالغ الخطورة بالفعل .

هتف مستشار الأمن القومى ، فى شىء من الحدة :

ــ هل تنصح إذن بأن ندفع لهم تلك المليارات الخمسة صاغرين؟!

أجابه وزير الدفاع فى صرامة :

ــ هذا لو اقتصر الأمر على المليارات الخمسة .

اعتدل الرئيس ، قائلاً فى توتر :

ــ ماذا تعنى؟!

أجابه فى سرعة :

ــ لست أعنى شيئاً ، ولكننى أردد فقط ما قاله (روميرو) ... إنه سوق مفتــوح ، وسلعة متاحة لمن يمكنه دفع ثمنها ... مزاد ... كما وصفه بالتحديد .

عاد الرئيس يتراجع ، فى توتر مضاعف ، فى حين احتقن وجه مستشار الأمن القومى ، وهو يقول فى شىء من الحدة :

ــ لن نخضع لهذا الأسلوب الابتزازى الحقير .

قال مدير المخابرات فى حزم صارم :

ــ بل سنخضع لأى شىء ، تجبرنا الظروف ، ويجبرنا أمننا القومى على الخضوع له .

بدا الاستنكار على وجوه الجميع ، فواصل فى صرامة أكثر :

ــ دعونا نعود إلى الوراء ، ولنتذكّر كيف انقلبت موازين القوى فى العالم ، عقب اختراعنا للقنبلة الذرية .. وكيف أن هذا قد وضعنا على قمة العالم ، كقوة منفردة ، حتى فجّر الاتحاد السوفيتى قنبلته الأولى ... حاولوا أن تتصوّروا الآن ، فى أية مكانة سنكون ، لو حصلت دولة أخرى ، على

سلاح يفوق هذا بألف مرة ، كما يزعم (رميرو) هذا!!... هل سنظل زعماء العالم الجديد ، أم سنصبح خاضعين لتهديدات دولة تفوقنا قوة ؟! ...

خيم عليهم وجوم شديد عقب كلماته ، وتبادلوا نظرة مفعمة بالتوتر واليأس ، قبل أن يتنحنح الرئيس ، ويقول بتوتره الملحوظ :

ــ إننا لم نشهد نتائج تلك التجربة بعد ، على أية حال .

استمر صمت الباقين لحظات أخرى ، ثم تساءل مستشار الأمن القومى ، موجهاً حديثه إلى مدير المخابرات :

ــ هل حاولتم تعقبه ، أو رصد اتصالاته ، بعد خروجه من وزارة الدفاع ؟!

بدا مدير المخابرات شديد العصبية ، وهو يقول :

ــ لم تكن بنا حاجة لهذا ؛ فهو يقيم فى فندق معروف ، فى قلب (واشنطن) ، وباسمه الحقيقى ، دون أن يحاول الاختباء ، أو النزول باسم مستعار ؛ وكأنه يريد أن نعرف جيداً مكان تواجده!!... ثم إنه لم يجر أية اتصالات يمكن تعقبها ، واختراق حاسبه الرقمى لم يسفر عن أية معلومات إضافية .

غمغم وزير الدفاع فى قلق :

ــ هذا نوع من التحدى .

تسلّل القلق إلى صوت مستشار الأمن القومى ، وهو يغمغم :

ــ أو الثقة .

نقل الرئيس الأمريكى نظره ، بين وجوه ثلاثتهم ، ثم شد قامته خلف مكتبه ، وهو يقول :

ـ نحن إذن أمام احتمالين ، لا ثالث لهما ... إما أن أحدهم قد توصل بالفعل ، إلى أخطر سلاح في العالم ، أو أننا أمام أكبر عملية احتيال عرفها التاريخ ، ولن يمكننا حسم الموقف ، في أي من الاتجاهين ، سوى بانتظار نتائج تلك التجربة المزعومة .

ثم التفت إلى وزير الدفاع ، يسأله بكل اهتمامه :

ـ ألم يخبرك أين ومتى ستتم تلك التجربة ؟!

هزّ وزير الدفاع رأسه نفيًا ، وقال :

ـ كل ما قاله ، هو أننا سنعلم فور حدوثها ، وأن عيون السماء ستبلغنا بها .

غمغم مستشار الأمن القومي :

ـ عيون السماء ؟!

أجابه مدير المخابرات في توتر :

ـ يقصد أقمارنا الصناعية .

أطلق الرئيس الأمريكي زفرة عصبية ، من أعماق صدره ، وحاول أن يتراجع في مقعده ، وهو يغمغم في عصبية ، حاول عبثًا أن يخفيها :

ـ ليس أمامنا إذن سوى الانتظار .

وفي هذا وافقه الجميع ...

بلا استثناء ...

* * *

راجع ضابط مصري شاب تلك الأوراق ، التي قدمها له سائحان أجنبيان ، عند منطقة الواحات البحرية ، وألقى نظرة على حقائب أدوات التصوير الرقمي ، الملقاة في إهمال على المقعد الخلفي للسيارة رباعية الدفع ، التي يقودانها ، قبل أن يقول في هدوء ، امتزج بتلك الصرامة ، التي يبدو أنها جزء من تدريبات أكاديمية الشرطة :

ـ الأوراق كلها تبدو سليمة ، ونحن نرحب بأي نشاط إعلامي في أي مكان في (مصر) .

ابتسم أحد السائحين ، وهو يقول :

ـ لا يمكننا أن نقول : إنه نشاط إعلامي بالدرجة الأولى ، فهــو نشــاط صحفي في الواقــع ... إننــا ، وكما تقول الأوراق التي بين يديك ، نعمل لحساب مجلة (ناشيونال جيوجرافيك) ، في طبعتها الفرنسية ، ويسعدنا أن نلتقط صورًا جميلة لواحاتكم الساحرة ... إنها مناطق لا يمكنك أن تجدها سوى هنا .

ابتسم الضابط الشاب ، وهو يعيد إليهما الأوراق ، قائلاً :

ـ (مصر) بها العديد من الأماكن الساحرة .

أجابه السائح الثاني بابتسامة كبيرة :

ـ لقد زرنا العديد منها بالفعل ، ولكن واحاتكم عالم فريد من نوعه .

غمغم الضابط الشاب :

ـ بالتأكيد .

كان أحدهما يدير محرك السيارة ، عندما أضاف الضابط الشاب في اهتمام :

ــ ولكن حاولا الالتزام بالطرق الرئيسية ، فالخروج منها ليس مأمون العواقب .

أشار الآخر إلى تابلوه السيارة ، وهو يقول :

ــ اطمئن أيها الضابط ... سيارتنا مزوّدة بجهاز تحديد الموقع ، عبر الأقمار الصناعية ، وهذا يشعرنا أكثر بالأمان .

أومأ الضابط الشاب برأسه ، وهو يقول :

ــ أتمنّى هذا .

انطلقا بالسيارة مبتعدين ، وغمغم الأوّل ، وهو يقودها بسرعة متوسطة :

ــ اهتمام المصريين بالسائحين ، جعل المرحلة الأولى من العملية تمضي في سلام .

وافقه الثاني بإيماءة من رأسه ، دون تعليق ، فواصل هو قيادة السيارة ، لثلاثة كيلو مترات أخرى في صمت ، وهو يراقب جهاز تحديد الموقع ، الذي أضيئت على شاشته نقطة حمراء ، جعلته يقول في حزم :

ــ الآن .

ومع قوله ، انحرف بالسيارة ، لينطلق على رمال الصحراء مباشرة ، والنقطة الزرقاء على الجهاز ، والتي تمثل سيارته ، تتجه مباشرة نحو تلك النقطة الحمراء ، وراح ينهب رمال الصحراء نهبًا ، حتى التقت النقطتان على شاشة الجهاز ، فضغط فرامل السيارة ، وهو يقول في حزم :

ــ استعد .

هبط الاثنان من السيارة ، وأخرجا من بين معدات التصوير علبة صغيرة من الرصاص ، مغلقة في إحكام ، ووضعاها على الرمال ، ثم فتحاها ، وأخرجا منها قنينة صغيرة ، تحوي كمية قليلة للغاية ، من ذلك السائل المائل إلى الزرقة ، غرسها أحدهما في رمال الصحراء ، في حين أخرج الآخر هاتفًا من الهواتف ، التي تتصل بالأقمار الصناعية مباشرة ، ودفن نصفه السفلي في الرمال ، على مسافة سنتيمترات قليلة من الزجاجة ، وبعدها عاد كلاهما إلى السيارة ، وانطلقا بها عكسيًا ، لتعود بهما إلى الطرق الرئيسية ...

وفي هذه المرة ، كانا ينطلقان بسرعة كبيرة نسبيًا ، أثارت خلفهما سحابة كبيرة من الرمال ، فقال الثاني في قلق :

ــ تذكّر أنه ليس علينا إثارة الانتباه أو الشك .

أجابه الأوّل في صرامة :

ــ لن يصنع هذا فارقًا ، في هذه المرحلة ...

بلغا الطرق الرئيسة في سرعة ، وراحت السيارة تبتعد عليها ، بنفس تلك السرعة الكبيرة ، فعاد الثاني يكرر في قلق أكثر :

ــ إنك بهذا تثير انتباههم لنا .

أجابه الأوّل في سرعة :

ـ حتى وإن حدث هذا ، سيرونا كسائحين متهورين ، ليس أكثر .

مطَّ الثانى شفتيه ، ولم يحاول الاعتراض مرة أخرى ، فى حين تجاوزت السيارة إحدى الواحات الرئيسية ، فى منطقة الواحات البحرية ، وواصلت ابتعادها ، حتى ارتاح قائدها إلى أنهم قد ابتعدوا بقدر كافٍ ، فقال للثانى فى حزم :

ـ أبلغهم أن المهمة قد تم تنفيذها فى نجاح .

لم تمض دقائق على ذلك الاتصال ، حتى ارتفع رنين الهاتف الشخصى لوزير الدفـاع الأمريكى ، الذى ما إن رأى اسم (روميرو) على شاشته ، حتى أجاب فى سرعة :

ـ سنيور (روميرو) ، كنت أنتظر اتصالك هذا .

أجابه (روميرو) فى غلظة ، دون أن يحاول نطق عبارة مجاملة واحدة :

ـ ركزوا أقماركم الصناعية ، على منطقة الواحات البحرية فى (مصر) .

سأله الوزير ، محاولاً إخفاء اضطرابه :

ـ هل تعنى أن تلك المنطقة هى ...

قبل أن يتم سؤاله ، قاطعه (روميرو) ، وهو يكمل عبارته ، وكأنه حتى لم يسمعه :

ـ هناك ستتم التجربة .. وفى غضون دقائق .

ثم أنهى الاتصال ، قبل أن يطرح الوزير سؤالاً جديدًا ..

ولم يحاول الوزير الأمريكى طرح ذلك السؤال المنتظر من الأساس ...

فقط أسرع ينقل الحوار إلى إدارة الرئيس الأمريكى ، ويأمر بتحويل عدسات رصد الأقمار الصناعية ، إلى المنطقة المشار إليها ...

وفى مكان آخر ، يبعد آلاف الكيلومترات ، ارتسمت على شفتى (سونيا) ابتسامة واثقة شريرة ، وهى تقول :

ـ لقد تستحقين هذا يا (مصر) .

ثم التقطت هاتفها ، وطلبت رقمًا خاصًا جدًا ...

وفى تلك البقعة من الصحراء ، على مسافة كيلومترات قليلة من إحدى الواحات ، ارتفع رنين هاتف الأقمار الصناعية ...

ودوى الانفجار ...

ومن موقعه البعيد نسبيًا ، سمع الضابط المصرى الشاب دوى انفجار كبير ، وشاهد سحابة هائلة من الرمال تندفع نحو نقطة الشرطة ، فى سرعة رهيبة ، فهتف فى جنوده ، وهو يعدو نحو المبنى :

ـ احترسوا .. إنه ...

وقبل حتى أن يتم هتافه ، اجتاحت تلك الموجة الرملية العنيفة المكان ، وتعالت صرخات الجنود ، وهى تحملهم معها ، وتطيح بهم فى عنف ...

ثم راح الدوى يتلاشى فى سرعة كما بدأ ..

وعندما هدأت الأمور ، كانت تلك الواحة أيضًا قد تلاشت من الوجود .. تمامًا .

* * *

الفصل الثالث

في تلك البقعة الرملية الجرداء ، التي كانت يومًا واحة مصرية جميلة ، احتشدت أعداد كبيرة من رجال القوات المسلحة ، بكل أفرعها ، والعديد من معداتها ، والمئات من جنودها ...

وفوقها حلّقت المقاتلات المصرية ، لرصد المنطقة ، ومحاولة فهم واستيعاب ما أصابها ...

وفي مركز الانفجار تمامًا ، وقف أحد قادة القوات المسلحة المصرية ، يقول لباحث علمي شهير ، في توتر ملحوظ :

ـ التصوير الجوي أثبت أن هذا هو مركز الانفجار ، والفحوص نفت تمامًا وجود أي نشاط إشعاعي في المنطقة ، على الرغم من مساحة التفجير والتدمير الهائلة ، وتقارير الرادارات كلها لم ترصد أية تحركات جوية في المنطقة ، قبل أو بعد حدوث الانفجار ، وحتى تلك الفكرة التي طرحتموها ، عن سقوط أحد النيازك ، نفاها قسم الدراسات الفلكية تمامًا ، حيث لم يتم رصد أية نيازك ، بحجم يسمح بحدوث كل هذا الدمار ، ثم إن النيازك ينبغي أن تترك فجوة كبيرة ، في موقع سقوطها ، وهذا لم يحدث هنا كما ترى .

تلفت الباحث حوله في حيرة ، قبل أن يغمغم ، في توتر نافس توتر القائد :

ـ لقد بنينا فرضيتنا على انفجار (تنجيسقا) الغامض في (روسيا) ، والذي حدث بالقرب من نهر (تنجيسقا) ، في (بودكامينايا) في (سيبريا) ، على ارتفاع عشرة كيلومترات ، من سطح الأرض ، وخلف دمارًا مماثلاً .

بدا الاهتمام على وجه القائد العسكري ، وهو يسأله :

ـ ومتى حدث هذا ؟!

جعل اهتمامه الباحث يشد قامته في اعتداد ، وهو يجيب :

ـ في تمام السابعة ، وسبع عشرة دقيقة ، من يوم ثلاثين يونيو ، عام 1908م[*] .

ما إن ذكر التاريخ ، حتى حملت ملامح القائد العسكري مزيجًا من الاستنكار وخيبة الأمل ، وغمغم في ضيق ، حاول أن يكتمه :

ـ أظنني قرأت شيئًا عن هذا في حداثتي .

قالها ، وبدأ يتحرك بعيدًا عن الباحث ، وكأنما يعلن عدم قناعته ، أو ارتياحه للتفسير ، فهتف الباحث :

ـ لا يمكنك إهمال هذا الاحتمال .

هتف بها في لهجة ، أرادها أن تكون قوية حازمة حاسمة ، إلا أنها خرجت ، على الرغم منه ، ضعيفة واهية متخاذلة ، فقال القائد العسكري ، وهو يواصل الابتعاد عنه :

ـ بعد استبعاد كل الاحتمالات العسكرية .

(*) واقعة حقيقية .



كان القائد العسكري يتجه نحو خبراء المفرقعات ، ورجال الحرب الكيماوية ، الذين يبحثون في مركز الانفجار ، عن أية بقايا ، يمكن أن ترشدهم إلى سبب حدوثه ، عندما استوقفته مستنكرًا ، سيارة مدنية ، تعبر منطقة الانفجار ، متجهة نحوه مباشرة ، فالتقى حاجباه ، وهو يتساءل ، كيف استطاع قائدها عبـور النطاق الأمني ، المضروب حـول منطقة الانفجار ، وتوقف عاقدًا كفيه خلف ظهره في صرامة ، في حين توقفت السيارة ، على بعد أمتار قليلة منه ، ليهبط قائدها في هدوء ، لا يتناسب مع المكان أو الموقف ...

كان رجلاً تخطى النصف الأوّل من ثلاثينات عمره ، كما تقول ملامحه ، أو النصف الثاني من الأربعينات ، كما يوحي ذلك الشيب ، الذي وخط نهايات فوديه .. له قوام رياضي ممشوق ، ووجه وسيم الملامح ، ومشية تمتلئ بالثقة والقوة ...

وقبل أن يكمل فحص ذلك الرجل ، الذي يرتدي حلة مدنية أنيقة ، وكأنه في طريقه من أو إلى اجتماع رسمي ، انعقد حاجباه أكثر في حدة ، عندما وقع بصره على تلك الفتاة الحسناء ، رقيقة الملامح ، متوسطة القامة ، والتي غادرت السيارة بدورها ، من المقعد المجاور للسائق ، ولحقت بالرجل ، الذي واصل طريقه إليه ، بنفس تلك الخطوة الواثقة القوية ، ثم مد يده نحوه ، قائلاً في صوت ولهجة رجل ، اعتاد مواجهة مثل هذه الأمور :

ــ العميد (أدهم صبري) ، من المخابرات العامة المصرية ، وزميلتي المقدّم (منى توفيق) .

غمغم القائد العسكري مستنكرًا ، وهو يمد يده لمصافحته :

ــ زميلتك ؟!... وهل تضم المخابرات إلى صفوفها فتيات مثلها ؟!

ابتسمت (منى) ابتسامة خفيفة ، سرعان ما تلاشت ، في حين لم يجب (أدهم) السؤال ، وهو يدير بصره فيما حوله في اهتمام ، وأحنت (منى) رأسها بتحية سريعة هادئة ، فسألها القائد العسكري في اهتمام ، لم يتلاش استنكاره بعد :

ــ وتحملين رتبة رسمية أيضًا ..؟!

بتر عبارته ، على الرغم من أن أحدًا لم يقاطعه ، في حين التفت إليه (أدهم) ، متسائلاً :

ــ ألم تتوصلوا إلى سبب الانفجار بعد ؟!

هزّ القائد العسكري رأسه نفيًا ، وهو يجيب في ضيق :

ــ لم نعثر حتى على أية آثار ، لما سبب الانفجار .

مع إجابته ، اتجه نحوه أحد خبراء المفرقعات ، وهو يحمل شيئًا صغيرًا في راحته ، وضعه أمام عينيه ، قائلاً :

ــ لم نعثر سوى على هذا ، يا سيادة اللواء .

مال (أدهم) و(منى) ؛ ليشاركا القائد العسكري نظرته المندهشة ، إلى تلك البقايا الزجاجية الصغيرة ، في راحة خبير المفرقعات ، وغمغم الأخير مستنكرًا :

ــ وهل تبدو لك تلك البقايا مناسبة ؛ لتصنع انفجارًا كهذا ؟!

قالها ، وهو يمد يده ؛ لالتقاط تلك البقايا الزجاجية ، ولكن (أدهم) استوقفه بلهجة حازمة ، لا تصلح للتعامل بيتها

ـ لحظة يا سيادة اللواء .

ثم أخرج من جيبه قفازًا مطاطيًا ، ارتداه فى سرعة ؛ ليلتقط به البقايا الزجاجية ، قائلاً :

ـ من حسن الحظ أن خبير المفرقعات يرتدى قفازه .

لم يرق الموقف كله للقائد العسكرى ، وخاصة عندما التقط (أدهم) البقايا الزجاجية ، ووضعها فى حرص شديد ، فى كيس من أكياس الأدلة الجنائية ، أخرجته (منى) من حقيبتها الصغيرة ، فقال فى صرامة :

ـ لو أن هذا يخضع لتدخل جهاز مخابرات ، فسيكون المخابرات الحربية ، وليس المخابرات العامة .

شدّ (أدهم) قامته ، وهو يجيب فى حزم :

ـ عندما يتعلق الأمر بالأمن القومى للوطن ، فمن الضرورى التجاوز عن كل هذه الشكليات يا سيادة اللواء .

شدّ القائد العسكرى قامته بدوره ، وهو يقول بكل الصرامة :

ـ وماذا لو أننى أرفض هذا ، وأصر على ما تسميه بالشكليات ؟!

حملت لهجة (أدهم) شيئًا من الصرامة ، وهو يقول :

ـ فى هذه الحالة ، سيتحتم عليك الرجـوع إلى القائد الأعلى للقوات المسلحة يا سيادة اللواء ؛ فنحن هنا بتكليف من السيِّد رئيس الجمهورية مباشرة .

توتر القائد العسكرى بشدة ، عند سماعه العبارة الأخيرة ، وتخلّى عن وقفته الصارمة ، وهو يقول فى عصبية واضحة :

ـ أظننى أحتاج إلى التيقن من هذا أولًا .

التقط هاتفه المحمول ، وهو يبتعد بضع خطوات ، فناول (أدهم) كيس البقايا الزجاجية لزميلته (منى) ؛ لتضعه فى حقيبتها ، وهو يسأل خبير المفرقعات فى اهتمام :

ـ ألديك فكرة عما يمكن أن يسبب كل هذا ؟!

هزّ خبير المفرقعات رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ ليس شيئًا مما أعرفه .

ثم أشار بيده لما حوله ، متابعًا :

ـ لم يكن من العسير تحديد موقع الانفجار ، فالآثار التى تركها خلفه ، أوضح من أن تحتاج حتى إلى الرصد الجوى ... توزيع الرمال على نحو دائرى ، والفجوة الصغيرة فى مركزها ، وحتى الاتجاه الذى انبعث إليه أشجار النخيل ، وبقايا حطام المنازل التى نسفها ... ولكننى لم أشهد فى حياتى كلها ، انفجارًا بهذه القوة ، لا يخلف فجوة شديدة العمق .

اندفع نحوهما أحد رجال المفرقعات ، وهو يقول فى انفعال :

ـ عثرنا على هذه البقايا ، على بعد نصف كيلومتر تقريبًا ، من مركز الانفجار .

تطلّعت (منى) إلى تلك البقايا فى حيرة ، وهى تغمغم :

ـ تبدو لى وكأنها بقايا هاتف خلوى ، من تلك التى تستخدم الاتصالات عبر الأقمار الصناعية مباشرة .

غمغم خبير المفرقعات مؤيدًا :

ــ إنها كذلك .

أسرعت تخرج من حقيبتها كيس أدلة آخر ، والتقط (أدهم) بقايا الهاتف ، ليضعها في الكيس الجديد بنفس الحرص ، في نفس اللحظة ، التي عاد فيها القائد العسكري ، وهو يعيد هاتفه إلى جيبه قائلاً في عصبية :

ــ حسنًا ... يبدو أنكما هنا في مهمة رسمية سيادية بالفعل .

منحه (أدهم) ابتسامة سريعة ، قبل أن يسأل خبير المفرقعات مرة أخرى في اهتمام :

ــ هل عثرتم على جثة أي سائح في المنطقة ، يمكن أن تنتمي إليه بقايا الهاتف ؟!

هزّ الرجل رأسه نفيًا ، مجيبًا :

ــ ليس بعد .

قال القائد العسكري ، في صرامة واضحة الغضب :

ــ المفترض أن تشارك ما لدينا من معلومات .

أجابه (أدهم) في سرعة :

ــ بالتأكيد .

ثم أشار إلى (منى) ، فاستدار كلاهما ، عائدين إلى سيارتهما ، و(أدهم) يشير بيده مستطردًا :

ــ سنعلمكما بالنتائج في حينه .

انعقد حاجبا القائد العسكري ، وهو يراقب سيارتهما تبتعد ، قبل أن يصيح في خبير المفرقعات في حدة :

ــ هل انتهيت من عملك ، أم أنك تتصوّر نفسك في نزهة خلوية ؟!

وفي نفس الوقت ، الذي كان خبير المفرقعات يسرع فيه إلى مركز الانفجار ، كانت سيارة (أدهم) و(منى) تبتعد عن المكان ..

وتبتعد ...

وتبتعد ...

* * *

« سنيور (روميرو) .. »

حاول وزير الدفاع الأمريكي أن يبتسم بقدر الإمكان ، وهو يستقبل (روميرو) في مكتبه هذه المرة ، قبل أن يستطرد في حماس مصطنع :

ــ أظنكم قد نجحتم في جذب اهتمامنا بحق إلى صفقتكم ، عبر تلك التجربة المدهشة ، في الصحراء المصرية .

ابتسم (روميرو) ابتسامة واثقة وهو يجلس ، دون أن يدعوه الوزير إلى هذا ، وأشار بيده ، قائلاً :

ــ كنا نعلم هذا .

كان الوزير يبغض بشدة هذا الأسلوب الواثق المتعالي ، إلا أنه كتم مشاعره في صعوبة ، وحافظ على شيء من ابتسامته بصعوبة أكبر ، وهو يقول :

ــ ولكن أى سلاح هذا ، الذى يمكنه إحداث كل هذا التأثير ؟!

أشار (روميرو) بيده مرة أخرى ، وهو يجيب فى غطرسة مستفزة :

ــ السلاح الذى نملكه .

عجز الوزير هذه المرة على الحفاظ على ابتسامته ، وقال فى ضيق ، لم ينجح فى كتمانه :

ــ ما رصدته أقمارنا الصناعية مدهش بحق ... لقد كان أشبه بتجربة نووية ، ولكن دون انبعاثات إشعاعية ، أو أضرار لاحقة .

بدت ابتسامة (روميرو) مستفزة ، وهو يقول :

ــ وهنا تكمن قوته .

تراجع الوزير فى مقعده ، قائلاً :

ــ ولكن أقمارنا الصناعية رصدت أيضًا سيارة رباعية الدفع ، توقفت عنـد البقعـة ، التى بدأ عندها الانفجار ، وخرج منها رجلان ، زرعا جسمًا صغيرًا هناك ، ثم ...

قاطعه (روميرو) فى صرامة :

ــ هذا هو سلاحنا .

مال الوزير إلى الأمام ، فى حركة حادة ، وهو يقول :

ــ هل تريد إقناعى ، بأن جسمًا صغيرًا كهذا ، يمكن أن يحدث انفجارًا ، كالذى رصدته أقمارنا ؟!

بدا (روميرو) أكثر صرامة ، وهو يقول :

ــ لو أن هذا لم ينجح فى إقناعكم ، فيمكننا أن نعيد التجربة ، فى (لاس ايجاس) مثلاً ، أو (نيويورك) .. أو ربما (واشنطن) .

صاح فيه الوزير فى حدة :

ــ أتهديد هذا ؟!!

نهض (روميرو) فى حركة واحدة ، وهو يقول بكل صرامة :

ــ بل هو صورة لما يمكن أن يحدث ، لو حصل غيركم على سلاح جبَّار كهذا ... سلوا أنفسكم عن مصير الولايات المتحدة الأمريكية ، لو حصل عليه الصينيون مثلاً ؟!... أو ماذا سيكون مصير ربيبتكم (إسرائيل) ، لو دفعت دولة عربية ما نطلبه ؟!.. راجعوا سويًا كل الاحتمالات ، خلال ثمانية وأربعين سـاعة فحسب ، قبل أن تدفعوا المليارات العشرة .

بهت وزير الدفاع ، وهو يتراجع مضعفًا :

ــ كنا نتحدث عن خمسة مليارات .

أجابه فى صلف :

ــ لم نكن قد شاهدنا نتائج التجربة بعد .

ثم رفع سبابته ، مضيفًا فى خشونة :

ــ وتذكَّروا جيدًا ... باب المزاد لم يغلق بعد .

قالها ، واندفع يغادر مكتب الوزير ، تاركًا إياه خلفه كالمصعوق ، وقد أدرك كم هو الموقف خطير ...

وإلى أقصى حد ..

* * *

« لن أقبل بهذا .. »

قالتها (سونيا جراهام) فى غضب شديد ، وهى تقف وسط معمل الأبحاث المتطور ، الذى كلفها إنشاؤه ثروة ، فى مواجهة رئيس فريق البحث ، الذى قلب كفيه ، قائلاً :

ـــ الأمر يتعدّى القبول أو الرفض يا سيدتى ... العينة التى لدينا شديدة التعقيد ، وتدخل فى تركيبها عناصر شتى ، بعضها لا يماثل خواصه الفيزيائية أو الكيماوية المعروفة ، مما يوحى بأنه قد تعرض لعوامل نجهلها ، قبل دخوله فى تركيبة هذا السائل العجيب .. والتوصل إلى طبيعة العوامل التى تعرض لها ، ونسب التعرض ومدته ، يحتاج إلى أشهر من العمل الشاق ... ثم إن العينة التى لدينا أصغر وأقل من أن نجرى عليها عدة تجارب فى آن واحد .

نفثت دخان سيجارتها فى عصبية ، وهى تقول :

ـــ لا يمكننى المجازفة بمنحكم المزيد ... وما تبقى لدينا هو نصف الكمية بالكاد ، وهو ما يكفى للتفاوض .

غمغم الرجل فى توتر :

ـــ ليس أمامنا سوى انتظار النتائج إذن .

ألقت سيجارتها فى حدة ، هاتفة :

ـــ هل تعلم كم يمكن أن يكلفنا الانتظار ؟!

عاد الرجل يقلب كفيه ، مغمغمًا فى خوف متوتر :

ـــ وماذا بيدنا لنفعله ؟!

صاحت به :

ـــ المزيد من الجهد ... إننى لا أدفع لكم هذه الرواتب السخية ، من أجل حجج سخيفة كهذه .. كل نقطة من هذا السائل تعنى ثروة ، وأطنانًا من الأوراق الخضراء ، لا حصر لها ... هل يمكنك استيعاب هذا ؟!

كان الرجل يرتجف كالكلمات ، التى خرجت من بين شفتيه فى صعوبة ، وهو يغمغم :

ـــ أدرك هذا جيدًا يا سيدتى ، ولكن ...

لم يستطع إتمام عبارته ، ولكنها استطاعت استيعاب الأمر ...

على الرغم من كل ما تبذله لهم من عطايا ، فالرجال يرهبونها إلى أقصى حد ...

وما دام الرجل ، وهو أشهر الباحثين فى هذا المضمار ، يشعر بكل هذا العجز ، فى وجود رهبته الشديدة منها ، فهذا يعنى أنه بالفعل غير قادر على تنفيذ ما تطلبه ...

لا فائدة إذن من استمرار الضغط على أعصابه ...

الأكثر حكمة ، هو أن تنقله إلى مرحلة عكسية ...

عكسية تمامًا ...

وعلى الرغم من توترها الشديد ، بذلت (سونيا) جهدًا أشد ؛ للسيطرة على انفعالاتها ، وإن لم يمنع هذا أصابعها من إعلان توترها ، وهى تشعل سيجارة رفيعة جديدة ، ولم يمنع أيضًا ذلك الدخان ، الذى نفثته من بين شفتيها ، من أن يبدو أشبه بتنحنح بركان ، على وشك الانفجار ، وهى تسأل الرجل :

ــ هل تحتاجون إلى المزيد من الموارد ، أو الأحدث من الأجهزة ؛ للإسراع بالأمر ؟!

هزّ الرجل رأسه نفيًا ، وهو يجيب ، وقد هدأت عصبيته شيئًا ما :

ــ لدينا هنا كل ما نحتاج إليه بالفعل ، ولكن ...

تردّد فى إكمال عبارته ، فسألته فى اهتمام ، حمل لمحة من القسوة :

ــ ولكن ماذا ؟!...

انخفض صوته ، وبدت لهجته أشبه بالتوسل ، وهو يقول :

ــ ربما لو مزيد من ذلك السائل الـ ...

قاطعته فى صرامة حادة :

ــ كلا .

ثم استدارت تبتعد ، فى خطوات سريعة رشيقة عصبية ، وهى تضيف :

ــ فقط أبلغنى بما تتوصلون إليه أولاً بأول .

أومأ برأسه إيجابًا ، دون أن تنفرج شفتاه عن حرف واحد ، فى حين اندفعت هى داخـل مصعد خاص ، حملها طابقين إلى أعلى ، حيث مقرها ، الذى تم إنشاؤه فى قلب أحد جبال (سويسرا) ، وتأثيثه على نحو ينافس أفخم الفنادق العالمية ، ذات السبعة نجوم ، وما أن اطمأنت إلى وجودها بمفردها ، حتى اتجهت نحو أحد جدران المقـر ، وألصقت راحتها به ، فانزاح جزء خفى منه ، كاشفًا عن خزانة خاصة ، أدنت وجهها منها ، وهى تقول فى حزم :

ــ (سونيا جراهام) .

وعلى الفور ، التقطت أجهزة التأمين الفائقة فى الخزانة بصمة صوتها ، وبصمة قزحية عينها اليمنى ، وصدرت منها تكة خافتة ، قبل أن ينفتح باب الخزانة فى بطء ونعومة ..

وفى توتر ، تطلعت إلى زجاجة مدرجة ، تستقر فى منتصف الخزانة ، ذات الجدران المدعمة بألواح من الرصاص(*) .

وفى حنق ، انعقد حاجباها ، وهى تتطلع إلى منسوب السائل المائل إلى الزرقة ، والذى بلغ منتصف الزجاجة تقريبًا ، وغمغمت :

ــ من يمتلكك سيتزعّم العالم الجديد .

غمغمت بها ، وهى تعيد كل حساباتها بقواعد جديدة ...

تمامًا ...

• • •

« عثرنا على بصمات جزئية .. »

قالها مسئول القسم الفنى ، بالمخابرات العامة المصرية ، وهو يدير وجهه إلى (أدهم) و(منى) ، فسألته الأخيرة فى لهفة :

ــ على البقايا الزجاجية ؟!

أومأ برأسه إيجابًا :

ــ وعلى بقايا ذلك الهاتف الخلوى أيضًا .

(*) الرصاص : عنصر فلزى ، من أهم خواصه [illegible] كافة أنواع الأشعة ، والموجات اللاسلكية .

غمغم (أدهم) :

ـ كنت آمل هذا .

ثم استطرد ، موجهًا حديثه إلى الرجل :

ـ وما فرصة مقارنة تلك البصمات الجزئية ، بكل ما لدينا ، من كل المصادر بلا استثناء ؟!

بدأت أصابع الرجل تضرب أزرار الكمبيوتر ، وهو يجيب :

ـ إنها بصمات غير مكتملة ، ولكن يمكن أن تقودنا إلى عدة أشخاص ، ولو أتبعنا نظم الاستبعاد والمقارنة ، يمكننا خفض العدد .

غمغمت (منى) ، وشاشة جهاز الكمبيوتر تنطق فى عملية المقارنة ، بين جزء البصمة الأولى ، وكل البصمات المسكة :

ـ لو أن هذه البصمات الجزئية تعود إلى المسئولين عن التفجير ، فهل من الممكن ألا يكونوا قد ارتدوا أية قفازات ، تحسبًا لهذا ؟!

هزّ (أدهم) رأسه قليلاً ، وهو يجيب :

ـ من الممكن ألا يفعلوا ، فقد يعتمدون على أن الانفجار بهذه القوة ، سيمحو كل أثر ، ولكن الكثير من الناس لا يعلمون ، أنه فى معظم الأحيان ، يكون التأثير فى مركز الانفجار ، أقل منه فيما حوله(*) .

مطّ مسئول القسم الفنى شفتيه ، فى تلك اللحظة ، وهو يغمغم :

ـ الأهم أن تأمل أن يكونوا من المسجلين لدينا ، أو لدى أية جهة أمنية أخرى ، أو ...

(*) حقيقة .

صدر صفير محدود من شاشة الكمبيوتر ، ليقطع عبارته ، قبل أن تستقر بصمة واحدة ، فى خانة المقارنة عليها ، ثم ترتسم صورة لشخص ، توحى ملامحه بأنه ألمانى الجنسية ، مع شعره شديد الشقرة ، وعينيه شديدتى الزرقة ...

وفى نفس اللحظة ، التى مال (أدهم) و(منى) ؛ متطلعين إلى الصورة ، كان مسئول القسم الفنى يقرأ البيانات المصاحبة لها ، قائلاً فى حماس :

ـ حصلنا على مقارنة ، من خلال كمبيوتر إدارة الجوازات ... (هانز إيسن) ... سائح سويسرى الجنسية ، ألمانى المولد ، وصل إلى (مصر) أول أمس ، باعتباره مصورًا فوتوجرافيا حرًا ، يعمل بالقطعة ، لحساب مجلة (ناشيونال جيوجرافيك) ... حصل بناء على أوراقه ، على تصريح بتصوير منطقة الواحات البحرية ، وغادر إلى (باريس) ، فى التاسعة من مساء أمس .

تألقت عينا (منى) فى انفعال ، وهى تقول :

ـ الواحات البحرية ؟!... هذا يبدو واضحًا .

كان من الواضح أن (أدهم) لا يشاركها هذا ، وهو يسأل الرجل فى اهتمام :

ـ ومتى قام بحجز تذكرته إلى (باريس) ؟!

عادت أصابع الرجل تضرب أزرار لوحة الكمبيوتر لحظات أخرى ، قبل أن يجيب :

ـ من قبل حتى أن يصل إلى (القاهرة)

اعتدل (أدهم) ، وظهرت على وجهه علامات التفكير العميق ، وهو يقول ، وكأنه يحادث نفسه :

ــ لم يكن يخطط لتحقيق مصور إذن ... كان يعلم مسبقًا ، ضرورة الرحيل العاجل ، فور انتهاء مهمته .

ثم التقط هاتفه المحمول ، وطلب بسرعة رقمًا عبر المحيط ، وما أن سمع صوت محدثه ، حتى قال فى حزم :

ــ (صلاح) ... أنا (أدهم) ... أريدك أن تجرى اتصالاً فوريًا ، بمجلة (ناشيونال جيوجرافيك) ... سلهم عن مصور يعمل لحسابهم بالقطعة ، يدعى (هانز يسن) ، وأبلغنى فورًا عما سيخبرونك به .

أشار مسئول القسم الفنى بسبابته ، قائلاً فى اهتمام :

ــ قبل أن تنهى المحادثة ، دعه يسألهم عن مصور آخر ، يعمل لديهم بالنظام نفسه ، يدعى (مراد يوكيم) ، تركى المولد والجنسية .

التفت إليه (أدهم) و(منى) بنظرات متسائلة ، فأشار إلى شاشة الكمبيوتر ، مضيفًا فى حزم :

ــ إنه صاحب البصمة الجزئية الثانية ... لقد اختصرت الوقت ، وبحثت فى كمبيوتر إدارة الجوازات مباشرة ... لقد وصلا معًا ، على متن الطائرة نفسها ، وغادرا معًا مساء أمس .

وتألقت عينا (منى) ، فى حين انعقد حاجبا (أدهم) مرة أخرى ...

لقد كان من الواضح أنهما قد توصلا إلى ما يبدو أنه طرف الخيط .. أو أنه قطرة من الحقيقة ...

الحقيقة الغامضة ..

والقاتلة .

* * *

الفصل الرابـع

« كيف هذا ؟!... »

هتف مستشار الأمن القومى الأمريكى بالسؤال فى غضب ، قبل أن يلوح بذراعه كلها ، مستطردًا فى حدة :

ـــ مع كل الميزانية الهائلة ، للمخابرات المركزية ، وكل ما يتم تزويدكم به ، من أحدث التكنولوجيات ، فور خروجها من عقول مبتكريها ، ما زلتم تعجزون عن تحديد الجهة ، التى يتعامل (روميرو) هذا لحسابها ؟!...

أجابه رجل المخابرات فى حدة مماثلة :

ـــ الرجل تحت السيطرة ، منذ لحظة خروجه من مكتب وزير الدفاع ، فى المرة الأولى . وهو لم يغادر فندقه ، سوى لمقابلة الوزير ، والمحادثات الهاتفية الوحيدة التى أجراها ، كانت مع الوزير أيضًا ، وكل حرف يضغطه ، على لوحة أزرار كمبيوتره المحمول ، يتم رصدها ، وعلى الرغم من هذا ، فهو لم يجر اتصالاً واحدًا ، عبر شبكة الإنترنت ، ولم يرسل أو يستقبل أى بريد .

نقل الرئيس الأمريكى بصره بين الرجلين ، وهو يشبك أصابع كفيه أمام وجهه فى صمت متوتر ، فى حين تدخَّل وزير الدفاع فى الحديث ، قائلاً بكل توتره :

ـــ ربما هو أحد عمَّال الفندق ، الذى ينقل إليه وجباته فى جناحه ؟!

أشار مدير المخابرات بيده ، قائلاً :

ـــ كلهم من رجالنا .

هتف مستشار الأمن القومى ، فى حدة أكثر :

ـــ ولكنه لم يتنبأ بنجاح التجربة ... أليس كذلك ؟!

مطَّ مدير المخابرات شفتيه ، وهو يقول :

ـــ خبراؤنا درسوا هذه النقطة ، وانتهوا إلى أن العكس هو الصحيح .

مال الرئيس الأمريكى على مكتبه ، وهو يسأله فى توتر ملحوظ :

ـــ وكيف هذا ؟!

التفت إليه مدير المخابرات ، مجيبًا فى حزم :

ـــ كل شىء كان مرتبًا مسبقًا ، من قبل أن يلتقى بوزير الدفاع ، ولهذا لم تكن به أية حاجة لإجراء أى اتصال ، ومعرفة موقع وتوقيت التجربة .

تراجع الرئيس فى مقعـده ، وبدا أكثر توترًا ، وهو يعاود تشبيك أصابع كفيه أمام وجهه ، مغمغمًا :

ـــ الأمور مخططة مسبقًا إذن .

أشار مدير المخابرات بسبابته ، مؤمنًا :

ـــ وبمنتهى الدقة ، يا فخامة الرئيس .

تعلقت عيون ثلاثتهم بالرئيس ، الذى أغلق عينيه ، وتضاعفت علامات التوتر على ملامحه ، ولاذ بالصمت لحظات ، وهو يفكر فى عمق ، قبل أن يعتدل ، قائلاً :

ـ إننا إذن أمام عقلية جبارة ، تملك سلاحًا رهيبًا ، وتدرك جيدًا أين ومتى وكيف تضع قدميها ، فى كل خطوة تخطوها .

قال وزير الدفاع بكل توتره :

ـ وهذا ما يجعل الأمور أكثر خطورة يا فخامة الرئيس .

ثم التفت إلى مدير المخابرات ، مازجًا توتره بالصرامة :

ـ وما يحتم معرفة الجهة ، التى يعمل لحسابها (روميرو) هذا .

غمغم مدير المخابرات :

ـ بالتأكيد .

ثم استطرد ، موضحًا كلمته :

ـ جهــة كهــذه ، لن تكتفى حتمًا بالمليــارات العشرة التى تطلبها ... وحتى إن لم تبع ذلك السلاح الجبار لجهة أخرى ، فهى ستحتفظ حتمًا بجزء منه ، تستطيع بوساطته ابتزازنا لسنوات ، وربما نصبح مع الوقت ، مجرد تابعين لها .

زادت كلماته من توتر الموقف ، فساد المكتب البيضاوى للرئيس الأمريكى صمت رهيب ، قبل أن يغمغم الرئيس فى مرارة :

ـ وعلى الرغم من هذا ، فمع المهلة القليلة ، التى منحونا إياها ، ليس أمامنا سوى الخضوع ، وتنفيذ مطالبهم .

أجابه مدير المخابرات فى حزم :

ـ مؤقتًا ...

ومرة أخرى ، تابع مفسرًا :

ـ (روميرو) رجل مخابرات قديم ومحترف ، ويعلم جيدًا الوسائل التى نتبعها ، ولهذا فهو لا يمنحنا شعرة واحدة ، يمكن تتبعها ؛ لمعرفة من يعمل لحسابهم ، ولكن كل البشر يملكون مشاعر واحدة ، وردود أفعال مماثلة ، مهما اختلفت ثقافاتهم وخبراتهم .

غمغم مستشار الأمن القومى فى عصبية :

ـ لم أستوعب الأمر .

تابع مدير المخابرات ، وكأنه لم يسمعه :

ـ بعد إتمام الصفقة ، سينتابه شعور بالارتياح والظفر ، وهما عاملان كافيان ؛ ليفقد شيئًا من الحذر ، وإن ظلت غريزته تدفعه للتمسك بالجانب الأعظم منه ... وفى كل الأحوال ، فهو سيجرى اتصالاً برؤسائه الغامضين ، إن عاجلاً أو آجلاً ، وعندئذ ...

قاطعه الرئيس ، فى اهتمام شديد :

ـ وهل اتخذت كل ما يلزم ؛ لكى لا يختفى عنك لحظة واحدة ؟!

أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا ، وأجاب بمزيد من الحزم :

ـ لدينا بصمة صوته ، وسيتم تتبعها ، من أى مكان ، وعبر أية وسيلة اتصال يحاول استخدامها ، من أية دولة فى العالم ، ولقد جندنا أحد أقمارنا الصناعية ؛ لتتبعه طول الأربع والعشرين ساعة ، كما حصل أحد رجالنا على بصمته الجينية ، فى حالة ما إذا ...

قاطعه الرئيس مرة أخرى ، وهو يلوح بيده :

ـ لا داعِ للتفاصيل ... أنت أعلم بأسرار عملك

ثم التفت إلى وزير الدفاع ، قائلاً فى صرامة ، غلب عليها التوتر ، والإحساس بالعار :

ـ أجر اتصالك بذلك الرجل ، وأخبره أننا نوافق على إتمام الصفقة .

وانعقد حاجباه ، وهو يضيف ، بمزيد من الصرامة والتوتر :

ـ ولكننا نطلب بعض الضمانات .

وبدأ يذكر الضمانات ، والرجال الثلاثة يستمعون إليه ...

بكل مشاعرهم ...

بلا استثناء ..

* * *

شد (علاء) ، مدير مكتب المخابرات المصرية فى (باريس) قامته ، ولعب فى براعة دور السائق الخاص ، الذى يرتدى زيًا يناسبه ، بأزراره النحاسية الكبيرة اللامعة ، وذلك الكاب الموشى بخيوط ذهبية رفيعة فى أطرافه ، وأسرع يلتقط الحقيبة الكبيرة ، التى تدفعها سيدة عجوز أمامها ، وهى تتحنى على عربة نقل الحقائب ، على نحو يوحى بسنوات عمرها الكبيرة ، فى حين استند زوجها على عصا من الأبنوس ، لها مقبض من العاج ، وراح يدفع قدميه فى صعوبة ، تشف عن إصابته بمرض عصبى عضلى ، من أمراض الشيخوخة ...

« حمدًا للرب على سلامتكما يا مسيو ومدام (لويس) ... »

اكتفت العجوز بابتسامة متهالكة ، فى حين رفع زوجها كفه اليسرى فى صعوبة ، مغمغمًا بالفرنسية ، فى لهجة باريسية واضحة :

ـ كيف حالك يا (سيمون) ؟

أسرع يفتح باب السيارة الخلفى لهما ، وهو يجيب فى احترام كبير :

ـ فى خير حال يا مسيو (لويس) ... أشكرك .

عاونهما على ركوب السيارة ، التى تشف عن ثراء بالغ ، ثم أسرع يضع الحقيبة فى صندوق السيارة الخلفى ، ثم يسرع لاتخاذ مقعد القيادة ، وما أن ابتعد عن مطار (أورلى) ، حتى اعتدلت العجوز ، وبدا صوتها شابًا حيويًا ، وهى تسأله :

ـ هل عثرت على أى أثر لهما ؟!

هز (علاء) رأسه نفيًا ، وهو يتطلَّع إليها ، فى مرآة السيارة الداخلية ، مجيبًا :

ـ ليس بعد ... (ناشيونال جيوجرافيك) نفت عملهما لحسابها ، فى أى من طبعاتها ، وكل رجالنا ينبشون (فرنسا) ، من أقصاها إلى أقصاها ، بحثًا عنهما ...

اعتدل زوجها بدوره ، وسأله فى لهجة قوية ، تحمل كل العنفوان :

ـ وماذا عن سجلات المطارات ؟!

هز (علاء) رأسه نفيًا مرة أخرى ، وهو يجيب فى احترام :

ـ لم يغادر أحدهما (باريس) ... ليس عبر الوسائل الجوية على الأقل يا سيادة العميد ... ولكن هذا لا يمكن أن يؤكد وجودهما هنا ؛ فبعد قيام الاتحاد الأوربى ، يمكنهما السفر برًا ، إلى أية دولة من دوله ، دون الحاجة حتى لجواز سفر .

استرخى (أدهم) على مقعده الخلفى ، وقال فى حزم :

ـ لست أظننا سنعثر لأيهما على أثر .

بدت الدهشة على وجه (علاء) ، فى حين تساءلت (منى) فى حيرة :

ـ لماذا قدمنا إلى هنا إذن ، ما دمت بهذه الثقة ؟!

أجاب فى سرعة وحزم :

ـ لأبحث عن قاتلهما .

كاد (علاء) يضغط فرامل السيارة ، من فرط الصدمة ، وهو يحدق فى وجه (أدهم) ، عبر مرآة السيارة ، وهتفت (منى) مصعوقة :

ـ قاتلهما ؟!..

أجابها فى حزم :

ـ تنظيم يمتلك سلاحًا ، يمكنه إحداث هذا القدر من التدمير ، دون آثار جانبية أو إشعاعية ، لا يمكنه أن يجازف بترك أى شىء للمصادفات ... لقد أتما مهمتهما ، ويعرفان سر ما حدث ، فلماذا الإبقاء على حياتيهما ؟!

هتف (علاء) بكل دهشته :

ـ أهذا ما تتوقعه يا سيادة العميد ؟!

أجابه بكل الحزم :

ـ هذا ما تقودنى إليه خبراتى ، فى التعامل مع مثل تلك التنظيمات .

سأله (علاء) بكل اهتمامه :

ـ وهل تعتقد أنه تم قتلهما هنا ؟!

أجابه (أدهم) فى هدوء ، لا يتناسب مع الموقف :

ـ وفور وصولهما إلى (باريس) ... كل دقيقة يقضيانها على قيد الحياة ، ربما تعرض العملية كلها للخطر .

سألته (منى) فى قلق :

ـ وبقاء قاتلهما هنا أيضًا ، ربما يعرض العملية كلها للخطر .

صمت لحظات مفكرًا ، قبل أن يجيب بكل الحزم :

ـ لست أعتقد هذا .

بدت شديدة الفضول ، وهى تسأله :

ـ ولماذا لا تعتقد هذا ؟!

أشار بيده ، مجيبًا :

ـ لأنه من الحماقة إرسال رجل يعرف السر ؛ للقضاء على رجلين ، يخشى أن يفشياه ... إنه أحد القتلة المحترفين على الأرجح ... تم تكليفه المهمة ، دون أن يعرف الأسباب ؛ فكل ما سيعنيه ، هو أن يتقاضى أجرًا مناسبًا فحسب .

كان (علاء) يراقب مرآة السيارة الجانبية ؛ ليتأكد من أن أحدًا لا يتبعهم ، عندما سأل فى اهتمام :

ـ وكيف تتوقع العثور على قاتل مجهول ، فى مدينة كبيرة كهذه ؟!

بدت ابتسامة (أدهم) غامضة ، وهو يجيب فى هدوء :

ـ هو سيعثر علىّ .

وكم بدا جوابه غامضًا !!...

للغاية ...

* * *

تراجع (روميرو) فى مقعده ، فى زهو المنتصر ، وهو يتطلّع إلى وزير الدفاع الأمريكى ، فى استخفاف واضح ، قبل أن يقول ، فى لهجة لم تخل من نبرة ساخرة :

ــ وما الضمانات التى يمكن تقديمها ؛ لإثبات أننا لن نبيع السلاح إلى دولة أخرى ؟!

أجابه الوزير فى صرامة :

ــ ستقدمون تعهدًا بهذا .

تطلّع إليه (روميرو) لحظات فى صمت ، ثم انفجر ضاحكًا فجأة ، على نحو مستفز ، جعل الوزير يضيف فى حدة :

ــ أيبدو لك هذا مدعاة للسخرية ؟!

هتف (روميرو) ، من بين ضحكاته :

ــ بالتأكيد .

ثم اعتدل ، وتلاشت ضحكاته فجأة ؛ لتحل محلها لهجة صارمة قاسية ، وهو يضيف ، قبل أن ينطق الوزير بحرف آخر :

ــ وماذا ستفعلون ، لو لم نلتـــزم بذلك التعهد الســـخيف ؟!... هـــل ستقاضوننا دوليًا ؟!

زمجر الوزير فى غضب ، وبذل قصارى جهده ، حتى لا يطلق له العنان ، وهو يجيب :

ــ ذلك التعهد لن توقعه أنت .

تراجع (روميرو) معقود الحاجبين ، مما أرضى الوزير قليلاً ، فتابع فى صرامة :

ــ سيوقعه زعيم من تعمل لحسابهم .

ران على مكتب الوزير صمت عجيب ثقيل ، بعد أن أنهى عبارته الأخيرة ، وتطلّع إليه (روميرو) فى جدية شديدة ، استغرقت ما يقرب من نصف الدقيقة ، قبل أن يجيب فى قلق :

ــ لست أظنه يوافق على هذا .

أشار الوزير بيده ، وتعالت صرامته وثقته ، وهو يقول :

ــ إنها الضمانة الوحيدة المنطقية والمقبولة ... فلو حصل آخرون على السلاح نفسه ، سيفقد الكثير من نقاط قوته وتفوقه ، وسنفقد نحن مكانتنا بالتأكيد ، كزعماء للعالم الجديد ، أما لو التقينا زعيمكم ، وجلسنا معه وجهًا لوجه ، ووقّع ذلك التعهد أمامنا ، فستتوازن كفتانا ، وسيدرك أننا نعرفه كما يعرفنا ، وأنه لو عمل على خيانتنا ، فنحن قادرون على البحث عنه ، والانتقام منه ، بكل ما نملك من وسائل .

تلاقى حاجبا (روميرو) ، وبدت عليه علامات تفكير عميق ، وهو يغمغم مكررًا :

ــ لست أظنه يوافق على هذا .

صمت الوزير لحظات ، ثم أشار بيده ، قائلاً :

ــ يمكنك استشارته على الأقل .

هزّ (روميرو) رأسه نفيًا ، مغمغمًا :

ــ ليس باستطاعتى هذا .





تراجع الوزير في مقعده ، وهو يسأله في حذر :

ــ أتخشاه إلى هذا الحد ؟!

كان سؤالاً استفزازيًّا ، أتى ثماره كالمتوقع منه تمامًا ، إذ بدا (روميرو) غاضبًا ، وهو يقول في حدة :

ــ أنا لا أخشى أحدًا .

إلا أنه تراجع عن غضبه في سرعة ، تليق برجل مخابرات محترف ، وهو يضيف :

ــ ولكن ليس باستطاعتي إجراء أي اتصال معه ، في كل الأحوال .

سأله الوزير ، في شغف لم ينجح في كتمانه :

ــ ولماذا ؟!

صمت (روميرو) لحظة ، ثم مال نحوه ، مجيبًا في بطء حاسم :

ــ لأنني لا أملك أية وسيلة للاتصال به .

ظلّ الوزير يحدق فيه لحظات ، قبل أن يسأله ، في توتر بالغ :

ــ كيف كنت تتلقّى التعليمات منه إذن ؟!

هزّ (روميرو) كتفيه ، وحملت شفتاه ابتسامة إعجاب خفيفة ، وهو يقول :

ــ من الواضح أنه لاعب شطرنج ماهر ، وخبير استراتيجي محنّك ، وعقلية جبارة ، لا يشق لها غبار ... لقد تلقيت مسبقًا قائمة بكل الاحتمالات الممكنة ، لما قد يسفر عنه تفاوضنا ، ومع كل احتمال قائمة تعليمات منظمة ودقيقة ، تحوي أدق التفاصيل ، وكان عليّ الانتقال من

قائمة إلى أخرى ، وفق تطورات الموقف ... ولقد حوت القائمة الرئيسية ما يؤكد استحالة إتمام الاتصال به ، أيًّا كانت الظروف ، وتحسبًا لأية احتمالات ، لم تحو القائمة أية وسيلة للاتصال المباشر .

بهت الوزير ، لهذا الترتيب شديد الدقة ، فتراجع في مقعده في بطء ، وهو يغمغم :

ــ وماذا لو ..

قاطعه (روميرو) في حسم :

ــ كل الاحتمالات ، حتى الشاذ منها ، كانت لها قائمة فرعية منفصلة .

ثم عاد يبتسم ، مضيفًا :

ــ ألم أقل لك : إنه لاعب شطرنج ماهر ؟!

احتواهما الصمت معًا لنصف دقيقة تقريبًا ، قبل أن يسأله الوزير في حذر :

ــ لا تقل لي أيضًا : إنك لا تعرف هويته ؟!

أومأ (روميرو) برأسه ، وهو يجيب :

ــ هل سيدهشك أن يكون الجواب هو نعم ؟!

لم يبد الاقتناع على وجه الوزير ، وهو يقول ، في تناغم مدهش ، ما بين الغضب والتوتر :

ــ هل تريد إقناعي ، بأن رجلاً مثلك ، يمكن أن يعمل بهذه الكفاءة ، لحساب زعيم مجهول الهوية ؟!...

هزّ (روميرو) كتفيه ، وهو يقول :

ــ مقابل ما تقاضيته مسبقًا ، وما سوف أتقاضاه ، بعد إتمام الصفقة ، لست أعتقد أننى كنت سأتردد كثيرًا ، لو أنه الشيطان نفسه .

رمقه الوزير بنظرة صامتة متشككة طويلة ، قبل أن يميل نحوه ، قائلاً فى صرامة :

ــ هذا يقودنا إلى الضمانة الأهم .

بدا الاهتمام والانتباه على وجه (روميرو) ، فاستطرد الوزير ، فى صرامة أكبر :

ــ كيف يمكن أن تتم صفقة كهذه ؟!... وكيف يمكن أن نضمن حصولنا على ذلك السلاح ، بعد دفع المبلغ المطلوب ؟!

أشار (روميرو) بسبّابته ، وبدا تألق عينيــه واضحًا ، وهو يقول :

ــ هذا هو السؤال الصحيح .

ثم عاد يبتسم فى ثقة ، مضيفًا :

ــ وجوابه كانت له قائمة خاصة ... خاصة جدًا .

وهنا ، وفى أعمق أعماقه ، أقرّ الوزير بأنه يتعامل بالفعل مع عقلية إجرامية جبارة!! ...

عقلية لم يواجه مثلها فى حياته ...

أبدًا ...

* * *

« لقد كنت على حق يا سيادة العميد ... »

قالها (علاء) ، مدير مكتب المخابرات المصرية فى (باريس) ، وهو يقف أمام (أدهم) ، الذى استعاد و(منى) هيئتهما الحقيقية ، داخل ذلك المنزل الآمن ، فى أحد أحياء العاصمة الفرنسية الهادئة ، قبل أن يتابع ، وهو يشير إلى شاشة الكمبيوتر الخاص به :

ــ لقد لقيا مصرعهما فى حادث سيارة ، عقب وصولهما إلى (باريس) بأقل من نصف الساعة .

امتقعت (منى) :

ــ رباه !... أنت تفهمهم جيدًا بالفعل يا (أدهم) !!..

لم يبد أن (أدهم) قد تأثر كثيرًا بالنتيجة ، وهو يقول فى اهتمام :

ــ أريد معرفة كل التفاصيل عن تلك السيارة .

امتقعت (منى) مرة أخرى فى دهشة :

ــ السيارة ؟!..

التفت إليها (أدهم) بابتسامة هادئة ، ثم عاد ببصره إلى (علاء) ، متابعًا حديثه :

ــ أريد معرفة ما إذا كانت سيارة أجــرة عامة ، أم سيارة مستأجرة ، أم أنها ملك لأحدهما .. وأريد معرفة ، ما فعلته الشرطة الفرنسية بالسيارة ، بالإضافة إلى تقــارير الطب الشرعى ، والأدلة الجنائية ... باختصــار ... كل ما يمكن معرفته عن الحادث .

هزّ (علاء) رأسه ، وهو يغمغم :

ـ لن يكون هذا سهلاً .

لم يتوقف (أدهم) كثيرًا عند تعليقه ، وهو يسأله فى حزم :

ـ كم تحتاج من الوقت ؛ للحصول على هذه المعلومات ؟!

ارتسمت ابتسامة هادئة على وجه (علاء) ، وهو يجيب :

ـ ما يقرب من ساعتين .

قال (أدهم) بنفس الحزم :

ـ حاول أن تجعلها ساعة واحدة ... كل دقيقة ربما يكون لها ثمنها ، ونحن نجهل ما الهدف التالى لمن سحقوا واحتنا .

أومأ (علاء) برأسه إيجابًا ، دون أن يفقد ابتسامته ، واندفع خارج الحجرة ، وما أن أغلق الباب خلفه ، حتى قالت (منى) ، فى ضيق واضح :

ـ لماذا اصطحبتنى معك فى هذه المهمة يا (أدهم) ؟!

منحها نفس تلك الابتسامة الهادئة ، وهو يخلع سترته ، ويخرج بعض الأدوات من حقيبته :

ـ أنت غاضبة ؛ لأننى لا أخبرك بما يدور فى ذهنى ... أليس كذلك ؟!

أجابته بنفس الضيق :

ـ الأمر يتجاوز حدود الغضب ... إننا نعمل فى مهمة واحدة ، والمفترض أن قاعدة (المعرفة بقدر الحاجة) لا تنطبق على موقفنا هذا .

راح يرص أدواته فى هدوء ، ويبدأ عمله الدقيق ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح ... ينبغى أن نتشارك كل المعلومات ، ما دمنا نتشارك العملية ، ولكن الواقع أنه ليست لدينا أية معلومات واضحة مؤكَّدة حتى هذه اللحظة ، وإنما نحن فى مرحلة السعى للحصول على طرف الخيط ... وفى هذه المرحلة ، يبدو عملنا أشبه بعمل رجال الشرطة والتحريات الجنائية ، بأكثر مما هو عمل مخابراتى بحت .

تلاشى ضيقها ، وهى تسأله فى اهتمام :

ـ ولكن هناك أمر يدور فى ذهنك ... أليس كذلك ؟!

كان يمارس عمله فى اهتمام شديد ، وهو يجيب :

ـ مجرد استنتاجات يا عزيزتى ... مجرّد استنتاجات .

بدت أكثر شغفًا ، وهى تسأله :

ـ حول ماذا بالضبط ؟!

أجابها مستمرًا فى عمله :

ـ من يمتلك سلاحًا كهذا ، كان بإمكانه استخدامه لتدمير هدف أكثر أهمية وخطورة ، من واحة فى قلب الصحراء ... لو أنه يستهدف عملاً إرهابيًا أو تدميرًا ، فلماذا لم يستخدم سلاحه هذا فى قلب (القاهرة) ... أو حتى بالقرب من منطقة عسكرية هامة مثلاً .

حاولت أن تجيب فى اهتمام :

ـ لأن هدفه ليس تدميريًا .

توقف عن عمله لحظة ، ليلتفت إليها متسائلاً :

ـ ماذا يكون هدفه الأساسى إذن ؟!

أجابت فى سرعة :

ــ المساومة .

وافقها بإيماءة من رأسه ، وعاد إلى عمله :

ــ وعلى الرغم من هذا ، ومن أن الحدث قد تم على أرضنا ، فهو لم يحاول بدء أية مساومة معنا ، ولم يلجأ حتى إلى محاولة التهديد أو الابتزاز ، فما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

تطلعت إليه بنظرة متسائلة ، فتابع مجيبًا سؤاله :

ــ أنه يساوم غيرنا ، وما فعله على أرضنا هو مجرد تجربة ، يثبت له بها قوة سلاحه .

تراجعت مبهوتة ، وغمغمت :

ــ لم تكن سوى حقل تجارب إذن؟! ...

أجابها ، وهو يضع اللمسات الأخيرة على عمله المتقن :

ــ وبسلاح جديد ، من الواضح أنه قادر على صنع انقلاب كبير ، فى ميزان القوى العالمية .

التقط نفسًا عميقًا ، وهو ينطلع إلى نتائج عمله ، قبل أن يتابع :

ــ ولهذا استنتجت أن من وراء هذا ، سيتخلص حتمًا من كل من يعرفــون سر ســلاحه الجديد ... ولأننــا لا نمتلك أية معلومات عنــه ، أو وسيلة للوصول إليه ، كان من الطبيعى أن أستنتج أن طرف الخيط سيبدأ من عند قاتل مندوبيه ، اللذين نفذا العملية .

سألته ، وهى تراقب ما يفعله ، وما اعتادت رؤيته يفعله :

ــ وهل ستصل إليه ، من خلال تلك السيارة ؟!

أجابها فى هدوء :

ــ السيارة مجرد طرف خيط أصفر ، يمكن أن يقودنا إليه ، من خلال المعلومات المتسلسلة ، كما يفعل رجال البحث الجنائى .

هزت رأسها ، قائلة :

ــ السيارة يمكن أن تقودك إلى موقع ما ، وليس إلى شخص بعينه ، اتخذ حتمًا كل الاحتياطات الممكنة ، حتى لا تقود السيارة إلى معرفة هويته .

أجابها ، وهو يمارس عملاً فنيًا دقيقًا :

ــ أعلم أنه من العسير أن أتعرفه .

ثم التفت إليها ، وهو يتحسس وجهه ، مكملاً :

ــ ولهذا سأدفعه هو إلى تعرفى .

تطلعت إليه فى انبهار ، لم يقلل منه اعتيادها مواهبه المتعددة ، وهمّت بقول شىء ما ، إلا أن (علاء) عاد فى هذه اللحظة ، واندفع إلى الحجرة ، قائلاً فى حماس :

ــ كل المعلومات التى طلبتها يا سيادة العميد قد ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، وهو يحدق فيما أمامه ...

فما يراه كان بالنسبة إليه مذهلاً ...

إلى أقصى حد .

* * *

الفصل الخامس

أشار وزير الدفاع الأمريكى إلى نقطة على الخريطة الكبيرة للعالم ، وهو يقول ، محاولاً التظاهر بالصلابة والتماسك :

ـ هنا ستتم المبادلة .

تطلع الرئيس الأمريكى ، ومدير مخابراته ، ومستشاره للأمن القومى ، إلى البقعة التى أشار إليها وزير الدفاع ، قبل أن يتمتم مدير المخابرات فى حذر ، اكتسبه من طول ممارسته مهام منصبه :

(إندونسيا)[*] ؟!...

اقتربت سبابة وزير الدفاع من نقطة صغيرة وسط الجزر الإندونيسية ، وهو يقول ، فى توتر ، لم يستطع مواصلة إخفائه :

ـ بل تلك الجزيرة الأصغر ، من بين جزرها .

تراجع مستشار الأمن القومى فى توتر مماثل ، وعقد الرئيس الأمريكى حاجبيه فى شدة ، فى حين غمغم مدير المخابرات :

ـ عقلية جهنمية بالفعل !!... جزيرة صغيرة للغاية ، تعداد سكانها لا يزيد عن أربعمائة نسمة ، وأى غريب فيها سيبدو واضحًا ، كنملة سوداء ، تسير فوق ورقة بيضاء ... اختيار عبقرى .

سأله الرئيس الأمريكى فى ضيق :

ـ هل أثاروا إعجابك إلى هذا الحد ؟!

(*) (إندونسيا) : جمهورية تتكون من حوالى ثلاثة آلاف جزيرة ، فى أرخبيل (الملايو) ، عاصمتها (جاكارتا) ، وهى غنيـة بالقصدير والزيوت والمنجنيز والذهب ، أعلنت كجمهورية عام 1945م.

أومأ مدير المخابرات الأمريكى برأسه إيجابًا :

ـ من الناحية المهنية ... نعم ... جزيرة كهذه يمكن تأمينها ، بأقل عدد من الرجال ، والوسائل الإليكترونية الحديثة ، ولو تم تأمينها بصاروخ واحد مضاد للطائرات ، ومدفع ميدانى ، لا يمكنك أن تصل إليها ، إلا بشن حرب مباشرة .

بدا مستشار الأمن القومى عصبيًا ، وهو يقول :

ـ إنهم يصرون على تقاضى ملياراتهم العشرة نقدًا ، وبأوراق صغيرة ، من فئات لا تزيد عن الخمسين دولارًا ، أتدرون كم ستبلغ المساحة المكعبة لمبلغ مثل هذا ؟!

أشار الرئيس الأمريكى بيده :

ـ نحتاج إلى سفينة متوسطة على الأقل .

رفع مدير المخابرات سبابته :

ـ بل سفينة كبيرة يا فخامة الرئيس ، لو حسبنا الوزن أيضًا .

وصمت لحظة ، ثم استطرد :

ـ وهم يطلبون وضع المبلغ كله فى لفة واحدة ، محاطة بثلاث طبقات من النايلون ، محكمة الإغلاق ، وعلى الرغم من هذا ، فهم لم يطلبوا منا إلقاءها فى الماء ، فلماذا ؟!..

بدا الرئيس عصبيًا :

ـ ما دمنا اتفقنا على دفع المبلغ ، فلا داعى لأن نشغل أنفسنا بما سيفعلونه به ... المهم أن تضمن استلام ذلك السلاح بالمقابل

أجابه وزير الدفاع فى سرعة :

ــ الاتفاق ينص على أن تتسلَّم السلاح ، فى نفس اللحظة التى يتسلمون فيها المبلغ .

سأله مستشار الأمن القومى ، فى شىء من الصرامة ، لم يكن لها مبرر ، سوى ذلك الانفعال العنيف فى أعماقه :

ــ وماذا عن التعهد الذى طلبناه ؟!... بدونه لا يمكننا ضمان ألا يتم بيع السلاح إلى جهة أخرى !

قلب وزير الدفاع كفيه فى يأس :

ــ لقد أبلغتكم ما أخبرنى به (روميرو) .

أطلق الرئيس الأمريكى زفرة أكثر يأسًا :

ــ وعلى الرغم من هذا ، فليس أمامنا سوى إتمام الصفقة .

صمت لحظة ، انتقلت إليه خلالها كل العيون ، قبل أن يتابع فى مرارة :

ــ أن نتشارك السلاح مع دولة أخـرى ، أفضل مليون مرة ، من ألا نحصل عليه على الإطلاق .

غمغم وزير الدفاع :

ــ هذا صحيح .

شد مدير المخابرات قامته ، قائلاً :

ــ ولكننا سنعوض هذا يا فخامة الرئيس .

حملت إليه نظرة الرئيس ظنًا من التساؤل ، جعله يواصل فى حزم :

ــ فلنتم الصفقة أوّلا ، ثم نلتصق بذلك اللاتينى كظله ، حتى يقودنا إلى زعيمه ، أو إلى طرف خيط للوصول إليه على الأقل .

مال الرئيس على مكتبه فى اهتمام :

ــ أأنت واثق من أنك لن تفقده ؟!

بدا مدير المخابرات شديد الثقة ، وهو يجيب :

ــ لا توجد قوة فى الأرض ، يمكنها إبعاده عنا يا فخامة الرئيس .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (روميرو) يفتح باب جناحه الفاخر ؛ ليسـتقبل عاملة التنظيف الحسـناء ، ضئيلة الجسـد ، حلوة الملامح ، شرقيتها ، والتى سألته فى لهجة رقيقة ، وعبر ابتسامة ساحرة :

ــ هل أقوم بتنظيف الجناح الآن يا سنيور ؟!

تأمل (روميرو) قوامها الساحر ، وثوب الخدمة الملتصق بجسدها ، بعين رجل مخابرات مخضرم خبير ، قبل أن يقول فى صرامة :

ــ لا بأس ، ما دمت لا تحملين سلاحًا .

أطلقت ضحكة رقيقة ، متصورة أنه يداعبها ، وهمّت بجذب عربة أدوات التنظيف ، إلا أنه قال فى صرامة :

ــ اتركى العربة فى الخارج .

غمغمت فى انكسار :

ــ هذا ما أفعله دومًا يا سنيور .

التقطت أدوات النظافة ، مع زوج من الملاءات النظيفة ، ودلفت إلى الحجرة ، فى حين التقط هو هاتفه ؛ ليجرى اتصاله مع وزير الدفاع الأمريكى ، قبل أن يتعانق حاجباه فى قوة ، وهو يحدق فى شاشة الهاتف ، الخالية من كل ما يدل على التقاطه لأية إشارات ، فغمغم فى حنق :

ــ ما الذى ...

قبل أن يتم قوله سمع عاملة التنظيف الحسناء من خلفه ، تقول فى لهجة غاب عنها كل أثر للرقة :

ــ كل الأجهزة الرقمية ستتوقف عن العمل يا سنيور .

التفت إليها فى سرعة ، لتفاجئه ركلة قوية من قدمها ، فى أنفه مباشرة ، اشتركت مع عامل المفاجأة ؛ ليختل توازنه ، ويسقط أرضًا ...

وعندما حاول النهوض ، عاجلته العاملة الضئيلة الحسناء بركلة ثانية فى أسنانه ، وهى تقول فى صرامة قاسية ، لا تتناسب مع مظهرها الرقيق :

ــ لقد خنتنا .

مسح (روميرو) خيط الدم ، الذى سال من أنفه ، ليمتزج بذلك الذى سال من ركن شفتيه ، وهو يهتف :

ــ ومن أنتم ؟!

وثبت الخادمة الحسناء لتهبط بركبتيها على معدته ، على نحو جعله يطلق شهقة ألم رهيبة ، وهى تجيب :

ــ التقيت وزير دفاعنا ، وعرضت علينا سلاحكم الجبّار ، ثم أتممت الصفقة مع الأمريكيين .

راح يسعل فى شدة ، وهو يحاول استعادة سيطرته على نفسه :

ــ أنت صينية !!...

هزّت كتفيها فى هدوء :

ــ لست مجرّد صينية عادية ...

ثم وثبت مرة أخرى ، لتهبط بمرفقها على قفصه الصدرى ، مما جعله يطلق صرخة قوية ، امتزجت بصوت تحطم ضلوعه ، فسعل مرتين ، تناثر خلالهما الدم من بين شفتيه ، وهو يقول فى ألم :

ــ سيعلمون ما تفعلينه ... إنهم يراقبون كل ما يحدث هنا .

أجابته فى استهتار :

ــ من الواضح أن ذاكرتك قد أصابها التلف ، بأكثر مما أصاب قدراتك القتالية يا سنيور (روميرو) ... ألم أخبرك أن كل الأجهزة الرقمية ستتوقف عن العمل .

ومع نهاية عبارتها ، اندفعت قبضتها تحطم حنجرته بلكمة كالقنبلة ، فاتسعت عيناه عن آخرهما ، وراح يشهق شهقات عنيفة ، محاولاً التقاط القليل من الهواء ، فهزّت رأسها فى أسف زائف ، وهى تقول :

ــ رباه !!... أنت تتألم بشدة ، ولا يمكننى احتمال هذا .

دارت حوله فى رشاقة ، وأمسكت جانبى وجهه بكفيها ، فتمتم فى صوت مختنق ، من وسط شهقاته :

ــ سيصلون أسرع مما يمكنك تخيله .

ابتسمت مغمغمة :

ــ أعلم .

ثم أدارت كفيها بحركة مدروسة ، التوى معها عنقه فى شدة ، وارتفعت إثرها فرقعة جديدة ، امتزجت بشهقة أخيرة ، أطلقها (روميرو) بعينين متسعتين ، قبل أن تتجمّد ملامحه كلها ، وتخلو من أى أثر للحياة ...

ولكنه كان على حق ...

لقد أدرك الأمريكيون ، أن انقطاع كل وسائل البث الرقمى من جناحه ، يعنى حدوث أمر غير مألوف ، فاندفعوا بأقصى سرعة إليه ، ولكنهم وعندما بلغوه ، كان (روميرو) يرقد فى صالته جثة هامدة ...

ولم يكن هناك أثر لسواه ...

أى أثر ...

* * *

« نعم ... هذه السيارة تخص مكتبى ... »

قالها صاحب مكتب تأجير السيارات ، فى الحى اللاتينى فى (باريس) ، وهو يتطلّع فى حذر ، حمل دهشة حاول أن يخفيها ، إلى ذلك الأشقر الطويل الواقف أمامه ، قبل أن يتابع فى بطء :

ــ ولقد أخبرت الشرطة كل ما لدى بشأنها ، ومنحتهم كل ما يخص مستأجرها .

سأله ذلك الأشقر فى صرامة ، وبلهجة تغلب السويسرية على لكنتها :

ــ ترى هل منحتهم البيانات الحقيقية ؟!

عاد صاحب المكتب يتأمله ، فى حذر وشك ودهشة أكثر ، قبل أن يقول ، محاولاً دفع الصرامة إلى كلماته :

ــ وما شأنك أنت ؟!..

خيل إليه أن عينى الأشقر الزرقاوين ، قد اخترقتا عينيه بسهام من نار ، وهو ينحنى بقوة ، قائلاً فى صرامة مخيفة :

ــ لم أحصل على جواب بعد .

كان صاحب المعرض ينوى التصدى له ، إلا أنه وجد نفسه يجيب فى خوف ، لم يدر له سببًا :

ــ لقد أعطيتهم اسم مستأجر السيارة ، وصورة من هويته ، وحتى صورة تلك الشيك ، الذى قدمه ، والذى قالت الشرطة : إنه زائف .

اعتدل الأشقر ، قائلاً بنفس الصرامة :

ــ ولكنك تحتفظ بنسخة من كل هذا .. أليس كذلك ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، وأسرع يفتح دولاب أوراقه ، ويقلب ملفاته فى سرعة مضطربة ، قبل أن يخرج ملفًا صغيرًا ، ناوله لذلك الأشقر ، الذى فتحه فى هدوء ، وألقى نظرة فاحصة عليه ، قبل أن يقول :

ــ المستأجر (ليون تريفو) ، يقيم فى هذا الحى أيضًا ، كما تقول هويته ، فكيف تأتّى ألا تتعرفه .

غمغم الرجل ، وهو يكاد يفقد وعيه :

ــ الشرطة قالت : إنها هوية زائفة أيضًا .

سحب الأشقر تلك الورقة ، التى تحمل صورة الهوية ، وألقى باقى الملف لصاحب المعرض ، قائلاً :

ــ سأعود إليك مرة أخرى .

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، والعرق يتصبّب من وجهه ، فى حين استدار الأشقر ، وغادر المكان ، وهو يطوى الورقة ، ويدسها فى جيب معطفه ، وما أن اختفى ، حتى زفر صاحب المعرض فى توتر شديد ، ثم التقط هاتفه ، وطلب رقمًا بأصابع مرتجفة ، ولم يكد يسمع صوت محدثه ، حتى قال بكل اضطرابه وتوتره :

ــ مسيو (جيرار) .. رجل أشقر سويسرى على الأرجح ، جاء يسأل عن تلك السيارة .. لا .. ليس من رجال الشرطة يا مسيو .. إنه .. إنه ..

كان من الواضح أن محدثه قد صرخ يستحثه على الاستمرار ، فقد أبعد الهاتف لحظة عن أذنه فى انزعاج ، ثم عاد يقربه منها ، وهو يقول فى صوت مرتجف :

ــ إنه أحد الرجلين ، اللذين أكدت الشرطة مصرعهما ... نعم يا مسيو (جيرار) ... أنا واثق تمام الثقـــة ... لقد شاهدت صورتيهما فى مقر الشرطة .

صمت لحظات ، يستمع إلى (جيرار) هذا ، فى انتباه مضطرب ، قبل أن يجيب فى خفوت ، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد :

ــ لقد أجريت اتصالى بك ، فور مغادرته يا مسيو (جيرار) ... لا ... لم أخبره بأى شىء ... أقسم لك .

« من (جيرار) هذا ؟!.. »

ألقت (منى) السؤال ، وهى تضع مسماع جهاز التنصت ، الذى ألصقه (أدهم) أسفل إطار مكتب صاحب مكتب تأجير السيارات ، عندما انحنى نحوه ، فالتقى حاجبا (علاء) ، وهو يغمغم :

ــ وفقًا لتسلسل الموقف ، أخشى أن يكون (جيرار) هذا هو (جيرار فليمون) .

راجعت معلوماتها فى سرعة ، ثم غمغمت فى قلق :

ــ أتعنى (جيرار فليمون) ، زعيم الجريمة الباريسية ؟!

أومأ برأسه إيجابًا :

ــ لا أحد هنا يجرؤ على الإفصاح بهذا علانية ، على الرغم من أن أحدًا لا يجهل هذه الحقيقة ، فمن الناحية القانونية ، هو رجل أعمال ثرى ، وجهت إليه الشرطة أكثر من تسع اتهامات ، لم يمكنها إثبات اتهام واحد منها ، ثم لم تلبث أن توقفت عن اتهامه ، ما دامت لا تمتلك الأدلة الكافية لإثبات الاتهام ، وما دام هو يقاضيها ، عبر جيش محاميه ، فى كل مرة .

تلاقى حاجباها ، وهى تغمغم ، وقلقها يتصاعد :

ــ أذكر مما قرأته عنه ، إنه يحكم جميع عصابات (باريس) ، وهى تزيد عن ألف رجل ، وأنه يحيط نفسه بحراسة شديدة ، تمنع حتى البعوض من بلوغ مكمله .

تمتم فى توتر :

ــ هذا صحيح .

ران عليهما الصمت لحظات ، قبل أن يغمغم (علاء) :

ــ سيثير جنونهم أن يجدوا (هانز إيسن) ، الذى قتلوه ، ما زال على قيد الحياة ، ويسعى خلفهم .

حاولت تجاوز توترها ، وهى تقول :

ــ لقد بدوت كمن أصابته صاعقة ، عندما شاهدت (أدهم) فى هيئة (إيسن) .

هزّ كتفيه ، مغمغمًا :

ــ ربما اعتدت أنت هذا ، ولكنها أول مرة أعمل فيه معه ، فى عملية مباشرة .

غمغمت :

ــ ولكنك سمعت بالتأكيد ، عن قدرته المذهلة فى التنكر ، وتقمص الشخصيات .

حملت شفتاه ابتسامة باهتة ، غلب عليها قلقه ، وهو يقول :

ــ ما تريله ، يفوق بألف مرة ما تسمعينه .

عاد الصمت يلفهما لحظات ، وهى تستمع فى اهتمام ، إلى أحاديث صاحب مكتب تأجير السيارات مع موظفيه ، إلا أنها لم تستطع الانتظار ، لتسأل :

ــ هل تعتقد أنهم سينطلقون خلفه على الفور ؟!

التقط نفسًا عميقًا ، أطلقه فى زفرة حارة ، قبل أن يغمغم :

ــ (جيرار) له عيون ، فى كل ركن فى (باريس) ، وما دام (أدهم) قد استفزه ، فلن يدهشنى أن يكون رجاله خلفه ، فى هذه اللحظة .

سألته بكل قلقها :

ــ وهل سيكتفون بمراقبته ، أم .. ؟!

صمت لحظة ، ثم أجاب بكل القلق :

ــ أم .

تراجعت فى مقعدها ، وشعرت بقلبها يخفق بين ضلوعها ... بمنتهى القوة ...

* * *

كاد وزير الدفاع الأمريكى ينفجر غيظًا وغضبًا ويأسًا ، وهو يتطلّع إلى جثة (روميرو) ، التى تخضع لحالة من الفحص الدقيق ، شأنها شأن كل ركن فى جناحه ، فى حين بدا أحد رجال المخابرات الأمريكية شديد التوتر ، وهو يواجه مديره :

ــ لقــد عثرنا على الزميلة ، التى كانت تلعب دور خادمة الفندق ، صريعــة بكسر مماثل فى عنقها ، فى حجــرة تغيير الملابس ... من الواضح أن أخرى قد باغتتها ، وانتحلت هويتها ، و ...

قاطعه مدير المخابرات فى غضب :

ــ وكيف فاتكم أن تكشفوا أمرها ، مع كل وسائل المراقبة ، التى وضعناها فى كل ركن ؟!

أجابه الرجل ، وتوتره يتضاعف :

ــ من الواضح أنها محترقة ؛ فقد أخفت وجهها عن عدسات المراقبة طوال الوقت ، ثم قامت بتشغيل ذلك الجهاز ، الذى خلفته فى عربة أدوات

النظافة ، ليعمل على الشوشرة على كل الأجهزة الرقمية ... وأقسم أننا تحركنا على الفور ، إلا أنها أنهت عملها فى سرعة ودقة ، و ...

عاد مدير المخابرات يقاطعه ، فى غضب ثائر :

ـ وبسبب إهمالكم ، خسرنا همزة الوصل الوحيدة ، مع أخطر قضية تواجه أمننا القومى .

ارتبك رجل المخابرات فى شدة :

ـ سيدى ... أقسم أن ...

قاطعه هذه المرة بكل انفعاله :

ـ مهمتكم هنا انتهت ، وعليكم تقديم أنفسكم لمركز الاستجواب والتحقيق فوراً ، وأتعشم ألا نجد ما يدينكم ، وإلا ...

لم يواصل عبارته ، التى بدا معناها واضحاً ، وإن امتقع وجه رجل المخابرات فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ كما تأمر يا سيدى .

أشار إليه مدير المخابرات بالابتعاد فى غضب ، ثم اتجه نحو وزير الدفاع ، الذى سأله فى مرارة :

ـ هل تتوقع احتفاظك بمنصبك ، بعدما حدث ؟!

غمغم مدير المخابرات فى عصبية :

ـ أعتقد أن منصبى هو أقل ما ينبغى أن أقلق بشأنه ، فى مثل هذا الموقف .

وافقه وزير الدفاع بإيماءة من رأسه ، وهو يسأله :

ـ من تتصوّر وراء مقتله ؟!

أشار مدير المخابرات بسبّابته ، مجيباً :

ـ يدور فى رأسى احتمالان ، لا ثالث لهما .

سأله فى اهتمام :

ـ وما هما ؟!

أجاب ، متطلعاً إلى جثة (روميرو) :

ـ إما أن الجهة التى يعمل لحسابها قد تخلصت منه ؛ حتى لا يصبح وسيلة ، يمكننا التوصل من خلالها إليها ، أو ...

صمت لحظات مفكراً فى تردد ، فالتفت إليه الوزير ، يستحثه على المواصلة :

ـ أو ماذا ؟!

تردد لحظة أخرى ، قبل أن يجيب فى حذر :

ـ أو أنه عمل انتقامى .

بدت الدهشة على وجه الوزير ، وهو يردد :

ـ انتقامى ؟!... ومن سيسعى للانتقام منه ؟!... ولماذا ؟!

تردد مدير المخابرات طويلاً هذه المرة ، قبل أن يجيب :

ـ الصينيون .

انعقد حاجبا الوزير فى شدة ، وهو يحاول ربط سؤاله بهذا الجواب المقتضب ، فتابع مدير المخابرات فى بطء :

ــ لو أن خبر سعيه لإتمام الصفقة معنا ، قد تسرب إليهم ، فربما ...

قاطعه وزير الدفاع مستنكرًا :

ــ وكيف يمكن أن يتسرّب إليهم ؟!... إننا نخفى الأمر ، حتى عن العاملين الأساسيين ، فى البيت الأبيض نفسه .

واجهه مدير المخابرات ، فى حزم متوتر :

ــ وكيف تتصوّر أننا علمنا بلقائه ، مع وزير الدفاع الصينى إذن ؟!... لقد التقى وزير دفاعهم مرة واحدة ، فى حين التقى بك عدة مرات ، وأى شخص يراقبه ، ولديه خبرة مخابراتية واستراتيجية كافية سيدرك على الفور أنه حريص على إتمام الصفقة معنا .

احتقن وجه وزير الدفاع ، وهو يغمغم :

ــ هذا يعنى أن زياراته لمكتبى ..

قاطعه مدير المخابرات ، قبل أن يتم عبارته :

ــ هكذا تعمل أجهزة المخابرات .

صمت الاثنان ، يتطلعان إلى جثة (روميرو) ، ثم غمغم الوزير :

ــ ما زلت أميل إلى الاحتمال الأوّل ؛ فهو قد أبلغنا بوسيلة إتمام الصفقة ، ولم تعد له فائدة لدى من يعمل لحسابهم ... على الأقل سيوفرون العمولة التى سيتقاضاها منهم .

زفر مدير المخابرات فى توتر :

ــ السؤال هو : هـل أبلغهم بهـذا ، أم أنه قـد لقى مصرعه ، قبل أن يفعل ؟!..

أطل الفـزع من عينى وزير الدفـاع الأمريكى ، والتفت إلى مدير المخابرات ، والتقت أعينهما فى نظرة قلق مشتركة ، وذلك السؤال الأخير يدوى فى رأسيهما ...

ويعلف ...

* * *

« ها هو ذا .. »

قالها أحد رجال (جيرار فليمونت) ، وهو يشير إلى (أدهم) ، الذى يسير فى هدوء ، فى تلك المنطقة الساكنة ، من الحى اللاتينى الباريسى ، فتحفز ثلاثة من العمالقة خلفــه ، وتســاءل أحدهم ، فى لهجة تقطر منها شهوة الدم :

ــ هل طلب الزعيم قتله فورًا ، دون استجوابه ؟!

أجابه الأوّل فى صرامة :

ــ الزعيم لم يشر إلى أى استجواب .

اعتدل العملاق ، ودس قبضة حديدية بين أصابعه ، تبرز منها قطع معدنية حادة ، وهو يغمغم فى جذل وحشى :

ــ عظيم .

استل عـــلاق آخر خنجرًا ماضيًا ، طويل النصـــل من حزامه ، وهو يغمغم :

ـــ ستبدو أشبه بحادثة سرقة كالمعتاد .

أشار له الأوّل ، قائلاً :

ـــ المهم أن يتم الأمر فى سرعة .

تحرك الأربعة فى خفة ، وبأسلوب مدروس ، تدرّبوا عليه واختبروه طويلاً ، فزاد رئيسهم ومعه أحدهم من سرعتهما ؛ ليقتربا من (أدهم) ، فى حين اختفى الآخران فى شارعين ضيقين ، على جانبى الطريق ، وقطع كل منهما مسافة معقولة ، قبل أن يبرزا فى آن واحد ، معترضين طريق (أدهم) ، وأحدهما يلوح بهراوة كبيرة فى يده ، قائلاً فى خشونة قاسية :

ـــ نقودك أو حياتك .

وفى نفس اللحظة ، التى توقف فيها (أدهم) ، وهو يحمل ملامح (هانز إيسن) ، اندفع الآخران من خلفه ، ووثب أحدهما نحوه ، ليطعنه بخنجره فى ظهره ...

فى موضع القلب ...

تمامًا .

* * *

الفصل السادس

شد (سيرجى كوربون) ، رجل المخابرات الروسية الأوّل قامته ، وارتسمت الصرامة على وجهه القاسى ، وبدت واضحة فى فكه العريضة ، وهو يتجوّل بجسده الكبير المتين ، وسط تلك المنطقة من (سيبريا) ، والتى شهدت انفجار ذلك المعمل القديم ...

كان حاجباه الكثّان المعقودان ، يشيران إلى مزيج من الغضب والتوتر ، يسرى فى أعماقه ، على الرغم من ملامحه ، التى تنافس ما يحيط به من ثلوج برودة ، وعيناه الأكثر ضيقًا مما يعتمل فى صدره ، تجوبان آثار الانفجار فى حنق ..

معلوماته السابقة ، تشير إلى أن هذا المعمل القديم ، قد تم إغلاقه منذ سقوط الاتحاد السوفيتى ، فى بداية التسعينات ، من القرن العشرين ...

والتقارير الرسمية ، التى طالعها ، خلال رحلته إلى المكان ، تؤكد أنه قد صار مهجورًا ، لا يحوى سوى ما كان به من أجهزة قديمة ، تناسب تلك الفترة ...

ولكن بقايا الانفجار ، تشير إلى احتوائه على أجهزة حديثة ...

بل أحدث مما يمكن أن تجده فى الأسواق ..

ولم يكن لهذا سوى معنى واحد ..

إن هذا المعمل كان مستمرًا فى عمله ...

وحتى لحظة الانفجار ...

انتزعه من أفكاره صوت (يورى) ، رجل المخابرات المرافق له ، فالتفت إليه ، متسائلاً فى صرامة ، لم تكسر شيئًا من بروده :

ــ ماذا هناك يا (يورى) ؟!

أجابه (يورى) هذا فى سرعة :

ــ النتائج الأوَّلية تشير إلى أن كل شىء قد تم تحديثه مؤخرًا ، فبقايا بعض ما عثرنا عليه ، تعود إلى أجهزة معملية ، يعود إنتاجها إلى بدايات هذا العام ، و ...

قاطعه (سيرجى) بنفس الصرامة :

ــ وماذا عن وحدات الطاقة ؟!

أجاب (يورى) :

ــ لقد تم استبدالها كلها بوحدات شديدة الحداثة ، وكلها ما زالت سليمة ؛ لوجودها بعيدًا عن مصدر الانفجار ، ولقد تم إيصالها بالمكان ، عبر حزمة ضخمة من الألياف الزجاجية ؛ لمنح المكان طاقة كبيرة ...

ظلَّ (سيرجى) صامتًا باردًا لحظات ، وكأنه يجرى بعض الحسابات فى رأسه ، قبل أن يقول فى خشونة ، فرضها ذلك التوتر فى أعماقه :

ــ السؤال الأهم هو : ما سبب الانفجار ؟!... خطأ فى تجربة ما ، أم ...

لم يحاول إتمام سؤاله ، باعتبار أن ما قاله يكفى لفهم فحواه ، فأجابه (يورى) على الفور :

ــ لم ينته الخبراء من عملهم بعد ، ولكن النتائج الأوَّلية تشير إلى أن الانفجار قد بدأ فى منتصف المكان تمامًا ، وهذا ينفى احتمالات الخطأ إلى حد كبير ، ويجعل الأمور أشبه بحادث متعمَّد .

عاد (سيرجى) إلى صمته وبروده لحظات أخرى قبل أن يقول :

ــ ولمــاذا ؟!... ما الذى جعلهم يعملون على تطوير هــذا المعمل ، وتزويده بكل حديث ؟!... ماذا كانوا يصنعون هنا مما يستوجب نسف المكان بكل ما فيه ومن فيه ؟!

بدا (يورى) وكأنه قد التقط سؤالاً آخر ، من بين كلمات رئيسه ، وهو يشير بيده فى اهتمام ، قائلاً :

ــ البقايا البشرية تشير إلى أحد عشر رجلاً لقوا مصرعهم برصاصات مجهولة ، ولكن الأهم أن أحدهم قــد أصيب بطلق نــارى فى رأســه ، من مسافة قريبة ، والخبير الجنائى يقول : إن بعض الآثــار فى جسده ، أو ما تبقى منه ، تشير إلى أنه قد تعرض إلى تعذيب وحشى ، قبل أن يلقى مصرعه .

ازداد انعقاد حاجبى (سيرجى) الكثين ، وهو يحاول رسم صورة فى ذهنه لما حدث فى ذلك المعمل قبيل انفجاره ...

وكرجل مخابرات مخضرم ، بدت له الصورة واضحة إلى حد كبير ...

لقد تم ابتكار شىء شديد الأهمية ، فى هذا المعمل ...

شىء أراد من نفذ كل هذا الاستئثار به ، ومنع أى آخر من الحصول عليه من بعده ...

و

ومهما كان الثمن ...

كان غارقًا فى رسم الصورة فى ذهنه ، عندما اندفع أحد الجنود نحوه ، وقال مشيرًا بيده إلى منطقة قريبة نسبيًا :

ــ عثرنا على بعض الآثار هناك يا جنرال .

ودون أن يسأله (سيرجى) ، اندفع معه نحو تلك البقعة ، التى أشار إليها ، وتبعه (بورى) فى خطوات سريعة ، قبل أن ينحنى الجندى ، ويلمس بعض الثلوج التى تغطى المكان ، قائلاً :

ــ يبدو أن هليوكوبتر ما قد هبطت هنا قريبًا يا جنرال .

تطلع (سيرجى) إلى الآثار الباهتة فى اهتمام ، قبل أن يسأل فى صرامة :

ــ متى كانت آخر مرة انهمر فيها الجليد هنا ؟!

أجابه (بورى) فى سرعة :

ــ منذ خمسة أيام ، على خلاف كل الـ ...

لم يمهله (سيرجى) ليتم عبارته ، وهو يغمغم فى صرامة :

ــ وهل تم العثور على أية هليوكوبتر فى الجوار ؟!..

أجابه الجندى فى سرعة :

ــ مطلقًا يا جنرال ... من الواضح أنهم كانوا يصلون إلى هنا ، بوساطة عربات خاصة ، ما زالت موجودة ، أسفل سقف معدنى ، تحجبه الثلوج عن الأنظار .

صمت (سيرجى) بضع لحظات ، قبل أن يغمغم :

ــ هذه الآثار إذن ، تتفق منطقيًا مع الانفجار .

رفع رأسه ، وبدا أشبه بتمثال من الثلج ، بملامحه القاسية الباردة ، وهو منهمك فى تفكير عميق ، قبل أن يلتفت إلى (بورى) ، آمرًا فى صرامة :

ــ أريد كل تقارير وحدات الرادار فى المنطقة ، ومر رجال البحث الجنائى بضرورة الإسراع فى تحديد هوية القتلى ، وبالذات ذلك الذى تم تعذيبه ، وقتله برصاصة مباشرة فى الرأس ، فما أصابه يوحى بأنه كان أكثرهم أهمية ، لمن فعل هذا .

تمتم (بورى) :

ــ فورًا يا جنرال .

وتردد لحظة ، قبل أن يضيف فى حذر :

ــ ولكنهم قتلوه مثل الباقين !!...

أجابه (بورى) ، بذلك المزيج من البرود والصرامة :

ــ بعد أن عذبوه ؛ لينتزعوا منه سرًا ما ...

ثم التفت إلى (بورى) ، مضيفًا بمنتهى الصرامة :

ــ لماذا أنت هنا ؟!... لقد تلقيت أمرًا !

اندفع (بورى) مبتعدًا ؛ لتنفيذ الأوامر ، وهو يهتف مكررًا :

ــ فورًا يا جنرال ... فورًا .

عاد (سيرجى) يتأمل آثار الهليوكوبتر الباهتة ، وهو يغمغم فى أعماقه :

ـ أى سر تخفيه أيها المعمل القديم ؟!... أى سر ؟!..

وظل التساؤل يتردد فى ذهنه طويلاً ..

أى سر هذا ؟!...

أى سر ؟!..

* * *

« ما زلت أشعر بالقلق ... »

غمغمت (منى) بالعبارة فى عصبية ، وهى تستل مسدسها الصغير من حزامها فى توتر ، فأمسك (علاء) يدها ، قائلاً فى حزم :

ـ لا ينبغى لضابط المخابرات المحترف أن يفقد أعصابه ، مهما كانت الظروف .

حاولت أن تقاومه ، وهى تقول متوترة :

ـ لقد طال الأمر أطول مما يفترض ، ووفقًا لما زوّدتنا به من معلومات ، فهذا المكان يضم أكبر مقدار من رجال الجريمة ، فى (باريس) كلها .

أجابها فى صرامة :

ـ سيادة العميد كان يعلم هذا ، عندما اقتحم وكر الجريمة هذا ، ولقد كانت أوامره واضحة ... ألا تتخذ أية خطوة ، مهما كانت المبررات ، ولست أنوى مخالفة أوامره أبدًا .

قاومته مرة أخرى ، فى محاولة لانتزاع يدها من يده ، وهى تقول فى عصبية :

ـ يبدو أنك قد نسيت ضرورة أن يكون ضابط المخابرات المحترف مرنًا أيضًا ، لا يتبع خطة جامدة ، كما لو كان قطعة على لوحة شطرنج ، وأنه من الضرورى أن يتكيّف مع كل حركة يقوم بها خصمه ... ألم تسمع ما نقله إلينا جهـاز التنصت ، الذى زرعــه (أدهـم) فى حافة مكتب ذلك الرجل ؟!... ليس لدى من شك فى أن (فليمون) هذا قد أطلق رجاله خلف (أدهم) فور خروجه من مكتب السيارت المستأجرة هذا .

وافقها بإيماءة من رأسه ، ولكنه واصل فى صرامة أكبر :

ـ ليس لدى ذرة من الشك فى هذا أيضًا ، ولكن موقفك يدهشنى فى الواقع يا سيادة المقدم .

تطلعت إليه متسائلة ، فتابع :

ـ إنها المرة الأولى التى أعمل فيها مباشرة ، مع الأسطورة التى تردد عملياتها فى انبهار وتوقير ، وأنت شاركته معظم عملياته .

غمغمت فى عصبية :

ـ كلها تقريبًا .

واصل حديثه ، وكأنه لم يسمعها :

ـ وعلى الرغم من هذا ، فأنا أثق فى قدراته وكفاءته بأكثر مما تثقين فيها !!...

تراخت مقاومتها دفعة واحدة ، وشعر هو بهذا ، فأفلت يدها فى هدوء ، ولمح ذلك اللمعان فى عينيها وهى تقول :

ـ الأمر لا شأن له بثقتى فى قدراته أو كفاءته ، فأنا أكثر الناس دراية بهما ... ولكن ما أدركه أيضًا أنه فى النهاية ، ومهما بلغت قدراته ، أو

علت كفاءته ، مجرد بشر ، يمكن أن تودى به رصاصة غادرة ، فى زقاق مظلم ... ثم إننا نجهل عدد الرجال ، الذين أطلقهم (فليمون) هذا خلفه ، وربما كان الآن فى أشد الحاجة إلى دعمنا ومؤازرتنا ، فهل نجلس هنا ساكنين ، لمجرد أنه قد طلب منا هذا ؟!

صمت لحظات ، ثم قال فى حزم :

ــ لم يطلب ... لقد أمر .

قبل أن تعلق بحرف واحد ، لمحت شبح ابتسامة على شفتيه ، وهو يضيف :

ــ ولكن يبدو أن ما يرددونه عنكما صحيح .

سألته فى عصبية :

ــ وما الذى يرددونه ؟!

* * *

« خطأ ... »

كانت شفتاه قد انفرجتا لينطق بشيء ما عندما اخترقت الكلمة أذانهما معًا ، فى صرامة شديدة انفتح باب السيارة الخلفى بعدها ، ليدلف إليه (أدهم) ، وهو ما زال يحمل وجه (إيسن) السويسرى ، مستطردًا فى غضب :

ــ أنتما تقفان فى حى شديد الخطورة ، وعلى الرغم من هــذا فقد انهمكتما فى حديث جانبى ، جعل من الممكن لقيل أن يباغتكما ، دون أن تشعرا بوقع أقدامه .

حدقت فيه (منى) فى مزيج من الفرح والذهول قبل أن تهتف فى حرارة :

ــ (أدهم) .. رباه !.. ماذا ...

قبل أن تتم عبارتها ، مسَّ (أدهم) كتف (علاء) ، قائلاً فى صرامة :

ــ انطلق .

أطاعه (علاء) ، وانطلق بالسيارة على الفور ، مبتعدًا عن ذلك الحى الباريسى ، فى حين غمغمت (منى) ، وقد ألفها أسلوبه هذا :

ــ ماذا حدث؟!

أجاب فى اقتضاب حازم :

ــ حصلت على اسم القاتل .

تساءل (علاء) فى شغف :

ــ كيف ؟!

كان هذا هو السؤال نفسه الذى يدور فى ذهن (منى) ، وإن لم يلقه لسانها ، فصمت (أدهم) بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى اقتضاب :

ــ كالمعتاد .

ولم يكن جوابه هذا كافيًا أو شافيًا ...

أبدًا .

* * *

الإجابة على السؤال ، الذى طرحه رجل المخابرات المصرى (علاء) ، تحتاج منا إلى العودة بعض الوقت إلى الوراء ...

إلى تلك اللحظة ، التى هاجم فيها رجال (فليمون) الأربعة (أدهم) ، وهو ينتحل شخصية (إيسن) ، فى ذلك الشارع الضيق شبه المظلم ...

ولقد كان الأربعة من أشد المحترفين ، الذين لا يتورعون عن ذبح طفل رضيع ، دون أن يطرف لهم جفن ...

ولقد استخدموا تكتيكًا احترافيًا ؛ لحصار خصمهم ومباغتته ...

وفى توقيت واحد ، وبدقة مدهشة ، انقض اثنان منهما عليه من الأمام ، فى حين انقض عليه الثالث من الخلف ، وهوى بنصل خنجره الحاد الطويل ...

على موضع قلبه مباشرة ...

ولم يكن لدى أى منهم ذرة من الشك فى أنهم سينهون المواجهة ، خلال أقل من نصف الدقيقة ، أو قبل حتى أن يكتمل هذا الوقت ...

ولكن مشكلتهم كانت أن خصمهم أيضًا محترف ...

كما أنه يمتلك مزية ، يفتقرون إليها جميعًا ...

سرعة الاستجابة المدهشة ...

وإلى حد مذهل ...

ففى نفس اللحظة ، التى انقض فيها حامل الخنجر ذو النصل الحاد الطويل مال (أدهم) جانبًا ، على نحو مباغت ، ودار حول نفسه ربع دورة ، ليمسك معصم الرجل ، وهو يقول فى صرامة :

ــ وقع قدميك ثقيل للغاية يا هذا .

نطقها ، وهو يلوى معصم الرجل فى قوة ، أجبرت هذا الأخير على إفلات الخنجر ، وهو يطلق صرخة ألم عالية ، فى نفس اللحظة التى هوى فيها آخر من الأمام ، بهراوته الضخمة على (أدهم) ، إلا أن هذا الأخير جذب الرجل ، الذى انتزع منه خنجره ، ودفعه فى وجه الهراوة ، التى شجت رأسه بفرقعة مخيفة ...

وفى مرونة مذهلة ، أمسك (أدهم) تلك الهراوة ، واعتمد على جسد حامل الخنجر ، قبل أن يهوى ، وارتفعت قدمه تركل أنف الرجل الثالث ، الذى حاول ضربه بسيف طويل ، ثم هبط على قدميه ، مع سقوط الرجل ، وكال لحامل الهراوة لكمة كالقنبلة فى أنفه ، ألقته قرابة المترين إلى الخلف ، مفلتًا هراوته ، التى قذف بها (أدهم) بكل قوته ، نحو الرجل الرابع ، الذى كان يصوب إليه مسدسه ...

وعندما تعالت إلى مسامع سكان المنطقة ، أصوات اللكمات والركلات والتأوهات ، تصوروا أن رجال العصابات يفتكون بفريسة جديدة ، فأغلقوا عليهم أبوابهم ونوافذهم ، حتى ينتهى هذا الأمر ، الذى لم يألفوه قط ، على الرغم من اعتيادهم حدوثه ...

ولقد كان الرجال الأربعة على حق فى أمر واحد ...

لقد انتهت المعركة ، قبل انتهاء فترة نصف الدقيقة ...

ولكن بنتيجة تخالف كل ما توقعوه ...

وكل ما كان يمكنهم أن يتصوروه ...

وعندما حاول آخر الرجال ، والوحيد الذى ظل محتفظًا بجزء من وعيه ، استعادة مسدسه ، الذى سقط على مقربة منه ، فوجئ بقدم (أدهم)

تسحق كفه ، قبل أن ينتزعه هذا الأخير من مكانه ، ويتطلّع إلى عينيه مباشرة ، قائلاً فى صرامة ، تجمّد الدم ، فى عروق أقوى الرجال :

ـ من استأجر تلك السيارة ، وقتل الرجلين ؟!

حاول الرجل أن يخفى ارتجافته ، وهو يجيب ، فى شىء من الحدة :

ـ ومن أنت لتسأل ؟!

ما أن انتهى من عبارته ، حتى تحطّم أنفه فى عنف ، مع لكمة ساحقة ، أطلق لها صرخة عالية ، وشعر بالدماء تغرق وجهه وتسيل فى حلقه ، و(أدهم) يقول :

ـ كم سنًا تنوى فقدانها ، قبل أن تجيب ؟!

هتف الرجل ، فى ألم ساخط :

ـ لو علم مسيو (فليمون) فسوف ...

لم تكتمل عبارته ، مع اللكمة الثانية ، التى حطمت ثلاثًا من أسنانه الأمامية ، وملأت فمه بالدم ، الذى اضطر لابتلاع الكثير منه ...

ومع الرؤية المشوشة ، شاهد (أدهم) يرفع قبضته مرة أخرى ، فهتف فى ارتياع :

ـ (تريفو) ... (ليون تريفو) .

ولكن كانت لكمة ثالثة من نصيبه ، شعر بعدها أنه سينهار تمامًا ، و(أدهم) يقول بكل صرامته :

ـ لو أننى أردت ذلك الاسم ، المدوّن فى سجلات الشركة ، ومحاضر الشرطة ، لما بذلت جهدًا ... هل ستخبرنى باسمه الحقيقى الآن ، أم بعد أن يصبح فمك بلا فائدة ؟!

وفى هذه المرة ، كان الرعب والألم قد بلغا من رجل العصابات مبلغهما ...

أو ربما تجاوزا هذا ...

بكثير ...

* * *

حالة من التوتر العنيف ، سادت الحجرة البيضاوية ، داخل البيت الأبيض فى (واشنطن) ، وبدا الرئيس الأمريكى فى أشد حالاته توترًا وعصبية ، وهو يلوح بذراعه كلها ، هاتفًا :

ـ وماذا الآن ؟!

لم يجبه أى من القادة الثلاثة ، الذين ضمهم مكتبه ، فى لقاء خاص وسرى للغاية ، فتابع بكل انفعالاته :

ـ بمصرع (روميرو) ، فقدنا السبيل الوحيد للحصول عليه .

كان مدير المخابرات الأمريكى هو أوّل من كسر حالة الجمود والصمت ، وهو يقول فى صوت خفيض :

ـ هذا يشمل الجميع .

هتف به الرئيس فى حدة :

ـ أى جميع ؟!

ازدرد مدير المخابرات لعابه ، قبل أن يجيب فى صوت أكثر ارتفاعا :

ـ كل من يشاركون فى الصفقة نفسها .. أو فى المزاد نفسه ، لو استخدمنا كلمات (روميرو) ... مصرعه قطع خطوط الاتصال للجميع .

تساءل مستشار الأمن القومى فى عصبية :

ـ ومن أدراك أنه لم يكن هناك مفاوض سواه ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ مصرعه .

أطل التساؤل من عيون الجميع ، فأضاف فى حزم :

ـ (روميرو) هو الذى التقى بوزير الدفاع الصينى أيضًا ، وهذا يعنى أنه المفاوض الوحيد ، المنوط به إتمام هذه الصفقة ... لم إننا لا نتحدث عن صفقة سلاح عادية ، يمكنك أن تستعين فيها بأكثر من مفاوض ... إننا نتحدث عن صفقة من نوع خاص جدًا ، وسر لا ينبغى كشفه ، إلا لأقل عدد من الأفراد ، حرصًا على بقائه ... ومن الناحية المهنية ، أرى أن اختيار رجل مخابرات لاتينى سـابق ، للقيام بمهمـة المفـاوض ، لم يكن أمرًا عشوائيًا ... لقد تم لصفته السابقة التى تجعله قادرًا على فهم مدى خطورة السر ، والتعامل معه بحرفية .

غمغم وزير الدفاع :

ـ وماذا عن مصرعه ؟!

أجابه مدير المخابرات فى حزم :

ـ (روميرو) لم يلق مصرعه ، إلا بعد أن بدا من الواضح أن الجهة التى يعمل لحسابها ، قد قرَّرت إتمام الصفقة معنا ، وليس مع غيرنا ، والتخلص منه كان مجرَّد وسيلة ، لعرقلة الصفقة على نحو أو آخر .

تساءل الرئيس الأمريكى ، فى اهتمام قلق :

ـ وما الذى يجعلك واثقًا هكذا ؟!

شدَّ قامته ، وهو يجيب فى قوة :

ـ لأن هذا نفس ما كنا سنفعله ، لو انعكست الأدوار .

ساد الصمت المكان كله لحظات ، والجميع يتبادل نظرات صامتة ، حوت من الأحاديث والمناقشات أكثر مما يمكن أن يحويه الكلام ، قبل أن يتساءل الرئيس الأمريكى فى قلق :

ـ وماذا لو تصوَّرت تلك الجهة المجهولة ، أننا نحن من قتل مفاوضهم ؟!

بدا مدير المخابرات أكثر حزمًا ، وهو يجيب :

ـ لو أنهم بالقوة التى يبدون بها ، فسيدركون أننا لم نفعل .

تساءل وزير الدفاع :

ـ وماذا عن الصفقة ؟!

أجابه فى سرعة وحزم :

ـ إنها الآن مشكلتهم ، وليست مشكلتنا .

بدا مستشار الأمن القومى مستنكرًا ، وهو يسأل فى حدة :

ـ ماذا تعنى ؟!

التفت إليه مدير المخابرات ، مجيبًا فى صرامة :

ــ هم سيجدون الوسيلة .

ومرة أخرى ، عاد ذلك الصمت الثقيل يلف المكان ...

طويلاً ...

* * *

« (أندريه شاجال) ... »

نطق (أدهم) الاسم فى حزم ، وهو يقف بالقرب من نافذة ذلك المنزل الآمن ، فى قلب (باريس) ، مراقبًا الشارع الضيق ، الذى تطل عليه فقالت (منى) ، وأصابعها تتقافز على لوحة أزرار الكمبيوتر :

ــ أهذا اسمه الحقيقى ؟!

تجاهل سؤالها ، وهو يكمل فى حزم :

ــ أريد البحث عنه ، على شبكة الإنترنت ... رخصة قيادة ... بطاقة هوية ... مخالفة مرورية ... أى شىء يحوى صورته الحقيقية .

بدا (علاء) شديد الاهتمام ، وهو يتساءل :

ــ أنت واثق من أن هذا هو اسمه الحقيقى ، يا سيادة العميد ؟!

استعاد (أدهم) مشهد رجل العصابة المنهار فى قبضته ، قبل أن يجيب :

ــ نعم .

أصدرت (منى) صوتًا متوترًا فى هذه اللحظة ، فالتفت إليها الاثنان ، وسألها (أدهم) :

ــ هل عثرت عليه ؟!

أجابته فى صوت لا يحمل الارتياح :

ــ وعرفت أين نجده بالضبط .

اتجه الاثنان إليها ؛ لمراقبة شاشة الكمبيوتر ، و(علاء) يتساءل :

ــ أين ؟!

أجابت بنفس ذلك الصوت المتوتر :

ــ فى مشرحة المدينة .

انعقد حاجبا (عــلاء) فى شدة ، فى حين بدا وكأن هذا لم يفاجئ (أدهم) ، الذى ظلت ملامحه هادئة ، و(منى) تكمل :

ــ لقد لقى مصرعه برصاصة فى الرأس ، من مسافة قريبة ، منذ يومين اثنين .

هتف (علاء) :

ــ بعد قتله للرجلين مباشرة إذن .

بدا (أدهم) شديد الصرامة ، وهو يقول :

ــ لا بديل عن المواجهة إذن .

تقابل حاجبا (منى) فى قلق ، فى حين تساءل (علاء) :

ــ مع من ؟!

أجابه (أدهم) بكل الحزم :

ــ (فليمون) ... (جيرار فليمون) .

وفى لحظة واحدة ، ارتفعت حالة التوتر ...

ألف مرة ...

أو يزيد .

* * *

الفصل السابع

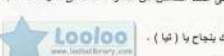
على الرغم من المطر الغزير ، المنهمر على مدينة (مانهاتن) الأمريكية فى (نيويورك) ، إلا أن تلك الفتاة الضئيلة الحسناء ، بدت يسيرها الهادئ تحت المطر ، وكأنها تستمتع بالقطرات الباردة ، التى تغمر وجهها وشعرها القصير ...

لم تكن تحمل حتى تلك المظلة التقليدية ، التى يحملها فى المعتاد ، كل من تضطرهم ظروف عملهم إلى السير فى طرقات المدينة ، فى مثل هذا الطقس ، وهى تتجه فى خطوات هادئة واثقة ، نحو منطقة الحى الصينى ، عند أطراف المدينة ...

ولبعض الوقت ، وقفت تطالع المعروضات الصينية التقليدية ، التى تطل عليها ، من خلف زجاج واجهات بعض المتاجر الصينية فى الحى ، قبل أن تنلف إلى مطعم كبير هناك ، وتعبر صالة طعامه بنفس الهدوء ، وحتى تصل إلى مطبخه الكبير ...

وهناك ، استقبلها كبير الطهاة بانحناءة احترام كبيرة ، بادلته مثلها ، قبل أن يقودها فى صمت إلى حجرة جانبية ، ويغلق بابها خلفها فى إحكام ، ثم يعاود عمله ، وكأنه لم يرها قط ، ولم يلتق بها منذ لحظات ...

وداخل تلك الحجرة الصغيرة ، خافتة الإضاءة ، استقبلها صينى أصلع ، صارم الملامح ، فى العقد الخامس من العمر ، قائلاً فى صرامة تناسب ملامحه :



ـــ أنجزت مهمتك بنجاح يا (تيا) .

ابتسمت وهى تغمغم :

ــ كالمعتاد .

انعقد حاجباه الرفيعان ، على نحو يوحى بأن كلمتها لم ترق له ، ولكنه تابع بنفس الصرامة :

ــ ولكن المهمة لم تكتمل بعد .

ارتفع حاجباها الرفيعان فى شىء من الدهشة ، ثم عادا ينخفضان فى سرعة ، دون أى تعليق ، فواصل الصينى الصارم :

ــ قتل (روميرو) الخائن وحده لا يحسم القضية ، ولكنه فقط يمنحنا المزيد من الوقت ، لنيل ما نبتغيه .

ظلت (ليا) على صمتها ، لا تنبس ببنت شفة ، ليكمل هو ، دون أن تتغير نبرته الصارمة :

ــ المهم أن نحصل على ذلك السلاح الرهيب ، قبل أن يحصل عليه سوانا ... أو أن ندرك ماهية وكيفية عمله على الأقل ، فإن لم ننجح فى هذا ، فلنضمن ألا يحصل عليه غيرنا .

تواصل صمتها لحظات أخرى ، قبل أن تقول فى حزم مقتضب :

ــ سننجح .

ثم استدارت مغادرة الحجرة الصغيرة ، دون أن تضيف حرفًا جديدًا ... على الإطلاق ..

* * *

« الأمر ليس سهلاً أبدًا .. »

قالها (علاء) فى قلق واضح ، وهو يراجع كل المعلومات ، المدوّنة فى ملفات السفارة المصرية فى (باريس) ، عن (جيرارد فليمون) ، قبل أن يتابع :

ــ (فليمون) لم يظهر وحده أبدًا ، منذ ما يقرب من عشر سنوات ؛ ففى كل مرة يغادر فيها منزله تصحبه أربع سيارات ، تمتلئ كلها بحراسة المسلحين ، والذين ينتمون كلهم لعائلته الكبيرة ، وكل منهم مستعد للتضحية بحياته من أجله ، دون أدنى تردد ، أما منزله ، فعلى الرغم من كونه فى واحد من أرقى أحياء (باريس) ، إلا أنه يعد أشبه بقلعة حصينة ، وهو يقيم فيه وحده ، بعد وفاة زوجته ، ويمتلك ضيعة ريفية بالقــرب من (ليل) ، ولكنها بحكم موقعها ، أكثر حصانة من منزله ، على الرغم من أنه لا يذهب إليها إلا لمامًا ... وهو فى الوقت ذاته شديد الشك والحذر ، وينقل هذا إلى رجاله ، وبالأخص حرسه الشخصى منهم .

تساءلت (منى) :

ــ وهل تسمح له السلطات الفرنسية بأن يكون دولة داخل الدولة ، على هذا النحو العجيب ؟!..

قبل أن تنفرج شفتا (علاء) بالإجابة ، قال (أدهم) فى هدوء :

ــ أمثاله يخفون حقيقتهم ، خلف استثمارات قانونية ضخمة ، تخفى داخلها أرباحه الكبيرة ، من نشاطاته غير المشروعة ، ويحيط نفسه دومًا بجيش من كبار المحامين وأعتاهم ، ليصبغ كل أعماله وتصرفاته بصبغة قانونية فى كل الأحوال .

التفت إليه (علاء) فى إعجاب ، أبرز نفسه فى ابتسامته ، التى لم تتناسب مع الموقف ، وهو يقول :

ـ بالضبط .

اعتدلت (منى) وهى تقول فى حزم :

ـ ولكن هناك قاعدة أساسية هامة ، يحفظها كل رجل مخابرات عن ظهر قلب .

أكمل (أدهم) بنفس الهدوء :

ـ لا يوجد نظام أمنى ، مهما بلغ استحكامه ، يخلو ولو من ثغرة واحدة .

أضافت (منى) فى حماس :

ـ المهم أن تعثر على تلك الثغرة ، وتدرك كيفية النفاذ منها إلى الهدف .

راجع (علاء) البيانات أمامه على الشاشة ، قبل أن يغمغم :

ـ لست أدرى أين تكمن الثغرة ، فى نظام أمن كهذا !

أشار (أدهم) إلى نقطة ، على صورة منزل (جيرارد فليمون) ، وهو يقول فى حزم :

ـ هنا .

ارتفع حاجبا (علاء) لحظة ، ثم التفت إليه ، وابتسم ابتسامة كبيرة ...

ابتسامة تموج بالإعجاب والانبهار ...

إلى أقصى حد ...

* * *

لم يشهد المكتب البيضاوى للرئيس الأمريكى حالة من التوتر ، كالتى شهدها فى تلك اللحظة ، إذ بدت وجوه الحاضرين معه مكفهرة شاحبة ، إلى حد مثير للشفقة ، والرئيس الأمريكى يقول فى عصبية :

ـ والآن ماذا ؟!... لقد فقدنا أداة الاتصال الوحيدة ، وكل تلمك فشلت يا مدير المخابرات ، فى التوصل إلى من وراء (روميرو) هذا .

غمغم مستشار الأمن القومى فى حنق :

ـ لقد فشلوا حتى فى تحديد هوية القاتلة .

اندفع مدير المخابرات يقول فى حدة :

ـ خبراؤنا توصلوا إلى بعض المعلومات بشأنها بالفعل .

سأله الرئيس الأمريكى فى سرعة :

ـ أية معلومات تلك ؟!

شدّ مدير المخابرات قامته ، وحاول أن يدفع بأكبر قدر من الثقة إلى صوته ، وهو يجيب بنفس السرعة :

ـ إنها شرقية .

انعقد حاجبا وزير الدفاع ، وهو يسأله فى غضب :

ـ أية معلومة تلك ؟!... كلمة شرقية هذا ، تنطبق على كل من يقيم فى المساحة من الشرق الأوسط ، وحتى (اليابان) .

بدا مدير المخابرات متحديًا :

ـ ولكن الصفقة كانت تدور بيننا وبين الصينيين ، ربما يعنى أن كلمة شرقية هذه ، تشير إلى أنها صينية .

تراجع الرئيس الأمريكى فى مقعده يتابعهم ، فى حين قال مستشار الأمن القومى فى تحفز :

ـ إننى أتساءل : كيف جزم خبراؤك بأنها شرقية ، على الرغم من أنها كانت تخفى ملامحها طوال الوقت ؟!

مال مدير المخابرات نحوه فى تحد :

ـ لأنهم خبراء .

لم تبد إجابته شافية ؛ لذا فقد عاد يعتدل ، مضيفًا فى حزم :

ـ لقد قاموا بتحليل الصور ، التى التقطتها آلات المراقبة ، وطابقوا لون بشرتها ، مع ما تحويه برامجنا المتطورة ، ووجدوا أنها تتوافق بنسبة سبعين فى المائة ، مع البشرة المميزة للعرق الصينى ، كما قام خبراء الصوتيات بتحليل كلماتها القليلة ، التى تبادلتها مع (رميرو) قبل مقتله ، ووجدوا بها لكنة مميزة ، تشير إلى أنها مولّدة .

اعتدل الرئيس الأمريكى ، قائلاً :

ـ أتعنى أنها صينية أمريكية ؟!

أومأ برأسه إيجابًا على الفور :

ـ من أب أمريكى وأم صينية ، أو العكس .

هتف وزير الدفاع فى حدة :

ـ عظيم ... لقد قلصنا إذن دائرة البحث إلى عدة ملايين فحسب .

التفت إليه مدير المخابرات ، فى حدة مماثلة :

ـ بل قلصناها إلى أمر واحد ... أن الصينيين هم من سعوا للتخلص من (روميرو) ، عندما أدركوا أن الصفقة لا تسير لصالحهم .

سأله الرئيس الأمريكى فى اهتمام شديد :

ـ وكيف علموا أن مقتل (روميرو) سيعوق إتمام الصفقة مؤقتًا ؟

سحب مدير المخابرات نفسًا عميقًا فى صدره ، ثم أطلقه فى جواب حازم :

ـ لديهم مخابرات كمخابراتنا يا سيادة الرئيس .

ساد الصمت ذلك المكتب البيضاوى مرة أخرى ، والرئيس يعود للتراجع فى مقعده ، قبل أن يتساءل فى قلق ، هو أقرب إلى اليأس :

ـ ما الخطوة التالية إذن ؟!

لم يحر وزير الدفاع أو مستشار الأمن القومى جوابًا هذه المرة ، فى حين أجاب مدير المخابرات فى ثقة ، منحه إياها صمت رفيقيه :

ـ أنقلها مشكلة الطرف الآخر الآن ، يا سيادة الرئيس .

تساءل الرئيس :

ـ الصينيون ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ بل أصحاب الصفقة ... لقد فقدوا وسيلة اتصالهم بالمشترين ، وسيسعون الآن لإيجاد وسيلة جديدة .

عاد الرئيس يعتدل ، وهو يسأل فى حزم متوتر :

ـ وهل سنجلس صامتين حتى يفعلوا ؟!

أجابه مدير المخابرات ، وقد منحه استشاره بالأجوبة المزيد من الثقة ، والشعور بالقوة :

ــ إننا نتحرك بالفعل ، منذ بداية الأحداث يا سيادة الرئيس ، ولكن فى ساحة قتال مختلفة .

سأله مستشار الأمن القومى فى لهفة :

ــ أين ؟!

شدّ قامته فى اعتداد ، مجيبًا فى حزم :

ــ (باريس) ...

وكان هذا يعنى أن الصراع سيحتدم ...

فى عاصمة الفن والجمال ...

والخطر ...

* * *

على الرغم من برودة الطقس ، بدا منظر الثلوج ، الممتدّة أمام تلك الواجهة الزجاجية الكبيرة ، لمقر (سونيا جراهام) فى جبال (سويسرا) بديعًا ، وراحت هى تتأمّله فى صمت ، وهى تنفث دخان سيجارتها الرفيعة فى تفكير عميق قبل أن تغمغم :

ــ الأمر يحتاج إلى الانتقال للخطوة التالية .

سألها شاب أشقر الشعر رياضى القوام ، متين البنيان ، يقف خلفها ، على مسافة مترين منها تقريبًا :

ــ ماذا تقترحين أيتها الزعيمة ؟!

تجاهلت سؤاله تمامًا ، وكأنها لم تسمعه ، وواصلت تطلعها إلى الثلوج لحظات ، فلاذ هو بالصمت فى انتظار جوابها ، الذى طال لبعض الوقت ، قبل أن تقول ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى قوة :

ــ سنرسل بديلاً مأمونًا .

أجابها الشاب فى حماس :

ــ أنا مستعد لــ ...

قاطعته فى صرامة :

ــ ليس أنت حتمًا .

رسمت الصدمة لوحتها ، على وجه الشاب ، فارتفع حاجباه فى دهشة مستنكرة لحظة ، قبل أن ينعقدا فى ألم ، فالتفتت إليه (سونيا) بابتسامة استهزاء ، وألقت بقايا سيجارتها إلى ركن الحجرة ، وهى تقول فى لهجة من يتحدث إلى طفل صغير :

ــ إننى أثق فى إخلاصك بكل تأكيد ، ولكن ...

لم تتم عبارتها ، مكتفية بهزة خفيفة من رأسها ، فسألها فى لهفة :

ــ ولكن ماذا أيتها الزعيمة ؟!

تطلّعت إليه لحظات فى استخفاف ، قبل أن تجيب فى نعومة أفعى :

ــ المفــاوض الذى ينبغى أن يتــم الصــفقة ، بديلاً عــن (روميرو) هو نقطة ضعف كبيرة فى أية خطة محكمة يا عزيزى (رودلف) ، ودعنى أنا عن هــذا بما لى من خبــرة سابقة فى العمل والتعامل مع أجهزة

المخابرات ... إنهم يمتلكون من الوسائل ما يتيح لهم تعقّبه وكشف كل ما يخفيه ... وما دمنا نتحدّث عن سلاح جديد ، قادر على تغيير موازين القوى العالمية ، فسيكون الصراع وحشيًا على كل الجبهات ، وإذا ما شعرت جهة ما بالخطر ، وبأنها قد تفقد تميزها ، أو تخسر فرصة امتلاك سلاح جبّار ، يجعلها زعيمة العالم بلا منازع ، فلن تتردّد فى اللجوء إلى أكثر الطرق وحشية ؛ لانتزاع المعلومات من المفاوض ، والتوصل إلى من خلفه .

ثم اتجهت إليه بخطوات هادئة ، ومررت راحتها العطرة على وجهه فى نعومة ، قبل أن تضيف :

ــ ولقد رأيت ما فعلوه بمفاوضنا السابق (رومبرو) .

أغلق عينيه فى نشوة ، وهو يستنشق عطرها فى استمتاع ، مغمغمًا :

ــ ولكنك قلت : إن الصينيين هم من ...

قاطعته مرة أخرى ، بنفس النعومة ، وهى تميل لتهمس فى أذنه :

ــ أتظن هذا يصنع فارقًا معه ؟!

واصل إغلاق عينيه ، وهو يهز رأسه نفيًا ، فابتسمت هى فى خبث ، وقد أدركت أنها قد أكملت سيطرتها عليه ، واعتدلت مكملة ، ومستعيدة صرامتها :

ــ لهذا سل نفسك : ما أفضل وسيلة ، لإلغاء نقطة الضعف هذه ؟!

فتح عينيه مع صرامتها المفاجئة ، والتفت إليها بعينين متسائلتين ، فأضافت بسؤال آخر :

ــ كيف تضمن ألا يشى بك المفاوض ، مهما تعرّض للأذى ؟!

غمغم متسائلاً :

ــ كيف ؟!

هزّت كتفيها ، وهى تقول :

ــ لا أحد يستطيع أن يفصح عما يجهل .

بدا مبهورًا بالعبارة ، وهو يغمغم ، والنشوة لم تفارقه بعد :

ــ هل تعنين أن ...

مرة أخرى قاطعته ، ولم تمنحه فرصة إتمام عبارته ، وهى تقول فى حزم :

ــ المفاوض المثالى ، هو من يجهل لحساب من يفاوض .

بدا مبهورًا ، وهو يسألها :

ــ ومن أين يمكن أن تجد شخصًا كهذا ؟!

رأى ابتسامة مفعمة بالثقة ، ترتسم على شفتيها الجميلتين ، وهى تجيب ، مشعلة سيجارة رفيعة أخرى :

ــ عزيزى (رودلف) ، على الرغم من أنك حارسى الشخصى ، فأنت لم تفهم شخصيتى بعد .

وحملت ابتسامتها قدرًا من الخبث ، وهى تضيف :

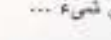
ــ إننى لا أقلم أظافرى ، دون خطة احتياطية .

قالتها ، وازدادت ابتسامتها خبثًا وثقة ...

ولم يفهم (رودلف) شيئًا ...

أى شىء ...





* * *

مط (جيرار فليمون) شفتيه ، دون سبب واضح ، عندما توقفت سيارته المصفحة ، أمام منزله الحصين ، فى قلب (باريس) ...

وعلى الفور أحاط رجال حراسته بالسيارة ، لحماية زعيم الجريمة الباريسية ، وهو يهبط منها ، ويتجه نحو باب المنزل ، حيث قام أحد الحارسين بفتح رتاج بوّابة معدنية سميكة ، عبرها (فليمون) ، ثم أغلقها خلفه فى إحكام بثلاثة رتاجات قوية ، ثم صعد فى سلالم المنزل ، ليفتح بابًا معدنيًا آخر ، عبره وأغلقه خلفه بنفس الوسيلة ، قبل أن يكمل صعوده ، لبضع درجات أخرى ، ثم يفتح باب منزله المصفّح ، ويدلف إليه ، ثم يغلقه خلفه فى إحكام ...

وفى ارتياح ، ألقى نظرة على النوافذ ، المغطاة كلها بقضبان فولاذية ، ثم خلع معطفه ، وعلقه على مشجب مجاور للباب ، وأشعل أضواء المكان ، والتفت إلى الداخل ، و ...

« تأخرت اليوم فى العودة » ...

انبعثت العبارة فجأة ، فانتفض جسد (فليمون) فى عنف ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدّق فى ذلك الجالس فى هدوء ، على بعد مترين فحسب منه ...

فى (أدهم) ...

(أدهم صبرى) ...

شخصيًا .

* * *

الفصل الثامن

انتفض (ميخائيل أوجينوفيتش) ، العالم الروسى الشاب فى عنف ، عندما اقتحم ثلاثة من رجال الأمن المسلحين ، معمله فى (موسكو) ، بمنتهى العنف والحدة ، وصوّبوا فوهات مدافعهم الآلية إلى صدره ، على نحو جعله يصرخ فى رعب :

ــ ماذا فعلت ؟!

لم يجبه أحدهم بحرف واحد ، فى حين عبر (سيرجى كوربوف) الباب المحطّم فى بطء ، بملامحه الباردة ونظراته القاسية ، التى استقرت على عينى (ميخائيل) مباشرة ، على نحو جعل هذا الأخير ينكمش فى رعب ، وهو يكرر مضعفًا فى صوت مرتجف :

ــ ماذا فعلت بالله عليكم ؟!

بقى (سيرجى) صامتًا بضع لحظات ، وهو يواصل النظر فى قسوة ، إلى عينيه مباشرة ، قبل أن يقول فى بطء :

ــ أنت شقيق (يوجين أوجينوفيتش) ... أليس كذلك ؟!

هتف (ميخائيل) فى ارتياع :

ــ (يوجين) هو شقيقى الأكبر ، ولكننى لا أعلم عنه شيئًا ، منذ أكثر من ...

قاطعه (سيرجى) فى صرامة قاسية :

ــ لقد التقيتما فى (لينجراد) ، منذ ستة أشهر فحسب ، لمدة ساعة وسبع دقائق ، فى الحديقة القومية ، وسلمك هو قرصًا رقميًا ، دسسته فى جيب معطفك الأسود ، ثم افترقتما كل فى اتجاه مخالف للآخر .

امتقع وجه (ميخائيل) فى شدة ، وخاصة عندما مال (سيرجى) نحوه ، مضيفًا فى قسوة أكثر :

ــ لو أنك فى موضعى ، ألن يثير هذا فى نفسك بعض الشكوك ؟!..

كاد (ميخائيل) يفقد الوعى ، وهو يقول فى صوت تسمعه بالكاد :

ــ إنها بعض المعادلات ، التى تساعد فى أبحاث كيمائية ، لحساب وزارة الزراعة والبيئة .

مال (سيرجى) نحوه أكثر ، حتى ارتطمت أنفاسه الباردة بوجهه ، وهو يسأله مباشرة :

ــ ما طبيعة الأبحاث ، التى كان (يوجين) يجريها فى (سيبريا) ؟!

لم يكد يأتى على ذكر (سيبريا) ، حتى عجز (ميخائيل) عن التماسك فانهار جالسًا على أول مقعد صادفه ، وهو يرتجف فى شدة ، قائلاً :

ــ لم أكن أدرى حتى أنه فى (سيبريا) .

اعتدل (سيرجى) ، قائلاً بنفس القسوة الباردة كثلوج القطبين :

ــ ولكنك كنت تعلم فيم يعمل .

قبل أن تنفرج شفتا (ميخائيل) بالجواب ، أضاف (سيرجى) محذرًا ، بمنتهى القسوة :

ــ وحذار أن تجيب بأنك لا تعلم .

عجز (ميخائيل) لحظات عن النطق ، مع ذلك الجفاف الشديد ، الذى التهب به حلقه ، ثم انفرجت شفتاه عن صوت خافت متحشرج مبحوح ، وهو يقول :

ــ لم يخبرنى عن طبيعة أبحاثه ، ولا عن المكان الذى يجريها فيه ، ولكنه أشار إلى أنها ستجلب له ما يكفى للحيا فى أمان ، حتى آخر العمر .

قال (سيرجى) فى قسوة :

ــ ولكن لديك فكرة ما .

لوّح (ميخائيل) بيده ، مجيبًا فى ارتجافة واضحة :

ــ ذكر لى أنه يعمل على سائل جديد ، سيقلب موازين القوى فى العالم .

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثين فى شدة مع العبارة الأخيرة ، فأمسك كتف (ميخائيل) ، وهو يسأله فى شراسة :

ــ وكيف يمكن لسائل ما ، أيًا كانت ماهيته ، أن يقلب موازين القوى فى العالم ؟!... أى سائل يمكن أن يفعل هذا ؟!

انهار (ميخائيل) تمامًا ، وهو يجيب :

ــ سائل متفجر .

وازداد انعقاد حاجبى (سيرجى) ، حتى اختفت تحتهما عيناه تقريبًا ...

ها قد بدأت الخيوط تلتقى ...

وعلى نحو بالغ الخطورة ...

إلى حد مخيف ...

* * *

لثوان قليلة ، فقد (جيرار فليمون) القدرة على الحركة ، وتجمّد جسده كله تقريبًا ، وهو يحدق فى (أدهم) ، الذى ظل جالسًا فى هدوء ، على المقعد المقابل له ، قبل أن يستعيد هو قدرته على الحركة فجأة ، ويثب نحو زر خاص ، مجاور للباب ، فقال (أدهم) فى هدوء :

ــ لن يعمل .

لم يلتفت إليه (فليمون) ، وهو يضغط الزر بكل قوته ، فنهض (أدهم) بنفس الهدوء ، وهو يواصل :

ــ لقد أتلفته قبل وصولك .

كان (فليمون) يعتمد على ذلك الزر ، الذى يطلق جرس الإنذار فى المكان كله ، حتى يهرع إليه رجاله ، بالسرعة التى تدربوا عليها ...

ولكن هذا لم يحدث ...

وبكل ذعره ، انتزع (فليمون) مسدسه ، واستدار ليطلقه نحو (أدهم) ...

ولكن هذا أيضًا لم يحدث ...

فمع استدارته ، فوجئ بـ (أدهم) على بعد خطوة واحدة منه ، يقبض على معصمه بكل قوته ، ثم يلويه بحركة سريعة ؛ ليجبره على إفلات مسدسه ، الذى سقط أرضًا ، بصوت معدنى مزعج ، قبل أن ينظر (أدهم) إلى عينيه مباشرة ، وهو يقول فى صرامة ، وجدت طريقها إلى كل خلية فى جسد (فليمون) كله :

ــ أعتقد أنه من الأفضل أن تتحدث فى هدوء .

حدّق (فليمون) فى عينى (أدهم) ، اللتين بدتا له أشبه برصاصتين ، تخترقان كيانه كله ، وشعر بألم فى معصمه ، جعله يقول ، فى لهجة أشبه بالتأوه :

ــ من أنت ؟!... وكيف وصلت إلى هنا ؟!..

أجابه (أدهم) بنفس الصرامة ، ودون أن يفلت معصمه :

ــ لا تشغل نفسك بمن أنا ... أما عن وصولى إلى هنا ، فسيجيبك عنه حارسا السطح ، عندما يستعيدان وعيهما .

ثم مال نحوه ، واخترقت عيناه كيانه كله ، وهو يضيف :

ــ والآن ماذا عن حوار ودى ... وعملى ؟!

مضت لحظات ، قبل أن يقول (فليمون) فى صوت عصبى مبحوح :

ــ ماذا تريد منى ؟!

أجابه (أدهم) ، وهو يفلت معصمه :

ــ معلومة ... معلومة واحدة يا مسيو (فليمون) .

دلّك (فليمون) معصمه فى توتر ، وهو يسأله فى حذر :

ــ كل هذا من أجل معلومة واحدة ؟!

هزّ (أدهم) كتفيه فى هدوء ، مجيبًا :

ــ هذا يتوقف على الجواب .

قالها ، وهو يتجه فى هدوء إلى مقعد وثير ، فى قاعة المعيشة ، ثم أشار بيده إلى المقعد المقابل ، قائلًا :

ــ لماذا لا تجلس يا مسيو (فليمون) ؟!

تردد (فليمون) لحظة ، ثم اتجه إلى المقعد ، الذى أشار إليه (أدهم) ، وجلس قبالته ، يسأله فى توتر :

ــ ما الذى تريد معرفته بالضبط ؟!

استعاد (أدهم) صرامته ، وهو يقول :

ــ (أندريه شاجال) .

تضاعف توتر (فليمون) ، مع ذكر الاسم ، وبدا هذا واضحا فى صوته ، وهو يسأل :

ــ ماذا عنه ؟!

أشار إليه (أدهم) بيده ، قائلاً :

ــ أخبرنى أنت .

أعلنت عصبية (فليمون) عن نفسها فى صوته ، وهو يقول :

ــ لقد لقى مصرعه .

قال (أدهم) :

ــ لا تضيع وقتى ، فى ذكر ما أعرفه بالفعل .

ثم حمل صوته كل الصرامة ، وهو يضيف :

ــ من وراء مصرعه ؟!

تطلّع إليه (فليمون) فى صمت بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى بطء :

ــ لست أدرى .

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (أدهم) ، وهو يقول :

ــ يا له من جواب !

قال (فليمون) فى توتر شديد :

ــ ولكنه الجواب الصحيح ... والوحيد .

انتقل (أدهم) فى لحظة واحدة ، من السخرية إلى الصرامة الشديدة ، وهو يقول :

ــ (شاجال) لقى مصرعه بأمر مباشر منك يا مسيو (فليمون) .

أجابه (فليمون) فى سرعة :

ــ لا يمكنك إثبات هذا .

تطلع إليه (أدهم) فى صمت قليلاً ، ثم مال نحوه فجأة ، قائلاً :

ــ مسيو (فليمون) ... أنا لست هنا لأتهمك بشىء .. ولا أحمل أية أجهزة تسجيل لنقل أى اعتراف منك ، فلا داع للمواربة ... أريد منك جوابًا صريحا مباشرًا .

بدا (فليمون) متحديًا ، وهو يقول :

ــ وإلا ماذا ؟!

تراجع (أدهم) فى مقعده ، قائلاً فى صرامة :

ــ ستعرف فى حينها .

ثم أضاف فى بطء :

ــ وثق فى أنه لن يروق لك هذا .

صمت (فليمون) بعض الوقت ، وبدا وكأنه يدير الأمر في رأسه ، قبل أن يقول :

ـ يمكنك أن تقول : إن أوامري كانت صدى لأوامر الممول الرئيسي .

سأله (أدهم) في سرعة :

ـ ومن هو الممول الرئيسي ؟!

لوّح (فليمون) بيده ، وهو يقول :

ـ لن يمكنك أن تعرفه ، فقد تلقيت مبلغًا كبيرًا ، لتنفيذ الأمر عبر وسيلة اتصال إليكترونية حديثة ، ومن الواضح أن ممول هذه العملية ، يعتمد نظامًا محكمًا للغاية ؛ لإخفاء هويته .

قال (أدهم) في هدوء :

ـ لا يوجد نظام أمني واحد بهذا الإحكام ... كل نظام أمني ، به حتمًا ثغرة ما .

بدا ارتياح مفاجئ على وجه (فليمون) ، وهو يقول :

ـ هذا ينطبق عليك أيضًا ، أيها المجهول .

في نفس اللحظة التي نطقها ، التقطت أذنا (أدهم) حركة خفيفة من خلفه ، فاستدار نحو مصدرها في سرعة ...

وقبل حتى أن تكتمل استدارته ، دوت تلك الرصاصة ، التي اخترقت مقعده من الخلف ...

مباشرة ...

* * *

« ما الذي يعنيه هذا ؟!.. »

ألقى الجنرال (كواليسكي) رئيس المخابرات الروسية السـؤال على (سيرجي كوربوف) ، في غضب واضح ، لم يؤثر كثيرًا في ملامح (سيرجي) الباردة القاسية ، وهو يجيب :

ـ يعني أن ما حدث في ذلـك المعمـل القديم في (سيبريا) هـو أن جهة ما قد علمت بأمر ذلك السائل ، وأدركت مدى قوته وتأثيره ، وأنها قد حصلت عليه بالفعل ، وتدمير المعمل ، وقتل علمائه وباحثيه ، هو وسيلة لمنع أية جهة أخرى من الحصول عليه .

تضاعف غضب الجنرال (كواليسكي) ، وهو يقول :

ـ أهذا كل ما لدينا ؟!

أجابه (سيرجي) بنفس البرود :

ـ إنه طرف الخيط .

هتف (كواليسكي) :

ـ وماذا عن الخيط ؟!

صمت (سيرجي) لحظة ، ثم أجاب في حزم :

ـ استجواب (ميخائيل أوجينوفيتش) بكل ما لدينا من وسائل لم يسفر عن أكثر مما أدلى به في البداية ، ولكننـا توصلنا إلى أن أحـد الباحثين الذين شاركوا (يوجين أوجينوفيتش) ، كان يقضي إجازة قصيرة في (ستالينجراد) عندما تم تدمير معمل (سيبريا) ، والقضاء على كل ما فيه ومن فيه .

سأله الجنرال (كواليسكي) في اهتمام متو

ـ وهل ظفرتم به ؟!

صمت (سيرجي) لحظة أخرى ، ثم أجاب في برود :

ـ في سبيلنا إلى هذا .

هتف الجنرال (كواليسكي) في استنكار :

ـ أي قول هذا ؟!... تعلمون أنه في (ستالينجراد) ... ألا يكفي هذا ؟!

أجابه (سيرجي) في سرعة :

ـ كان سيكفي ، لو أنه لم يفر ويختفي فـور معرفته بوسيلة ما ، بما حدث لأقرانه في (سيبريا) .

همّ الجنرال (كواليسكي) بقول شيء ما ، لولا أن أضاف (سيرجي) في سرعة :

ـ ولكننا نعلم أين هو .

ارتفع حاجبا (كواليسكي) ، وهو يقول في حدة مستنكرة :

ـ لماذا لم تنقضوا عليه إذن ؟!

على الرغـم مـن ضـيق عيني (سيرجي) لمـح فيهما الجنـرال (كواليسكي) بريقًا عجيبًا ، وهو يجيب :

ـ ننتظر أن ينقض عليه غيرنا .

تراجع رأس الجنرال (كواليسكي) في دهشة ...

فهو لم يفهم معنى جواب (سيرجي) ...

أبدًا ...

* * *

تثاءب رجل المخابرات اليابانية السابق (واو أوزاكا) ، مع نسمات الفجر الأولى في (طوكيو) ، وهو يطالع رسائله البريدية ، على شاشة الكمبيوتر الشخصي الصغير أمامه ، كمرحلة أخيرة ، يقوم بها يوميًا في المعتاد ، قبل أن يلجأ إلى فراشه ، مع مطلع الشمس ... كان هذا ما اعتاده منذ تم صرفه من الخدمة ، قبل عام مضى ، بعد عشرين عامًا من العمل ، في القسم الخارجي بالمخابرات اليابانية ...

لم يكن يدري أبدًا لمـاذا تم صرفه مـن الخدمة على الرغم من كل ما بذله من جهد ، وما حققه من نجاحات في مجال عمله ، مما أورثه سخطًا شديدًا ، لازمه منذ ترك الخدمة ، وأبى أن يفارقه ، على الرغم من مرور عام كامل ...

وبذلك السخط ، مطّ شفتيه مع قلة عدد الرسائل الإليكترونية التي يتلقاها مقارنة بما كان يتلقاه إبان فترة عمله ...

وبنفس السخط ، هم بإغلاق الكمبيوتر ، عندما انبعث منه فجأة صوت رقمي ، يقول في نبرات معدنية ، عبر نظام تغيير صوتي رقمي :

ـ من الجيد أنك ما زلت مستيقظًا يا (أوزاكا) .

تراجع (أوزاكا) بحركة حادة ، واتسعت عيناه في دهشة ، وهو يهتف :

ـ من هذا ؟!

تجاهل صاحب الصوت سؤاله ، وهـو يقول بنفس الصـوت المتغيـر رقميًا :

ـ هل يهمك أن تربح خمسة ملايين دولار مقابل عمل يومين أو ثلاثة على الأكثر ؟!

أجاب (أوزاكا) ، بعد فترة غير قصيرة من الصمت ، وفى حذر واضح :

ــ مقابل ماذا ؟!

جاءه الجواب سريعًا ومقتضبًا :

ــ تفاوض .

مضت فترة طويلة من الصمت ، أدار خلالها (أوزاكا) الأمر فى رأسه عدة مرات ، قبل أن يتساءل ، فى حذر شديد :

ــ بشأن ماذا؟!!

أتاه الجواب فى سرعة ، وكأن صاحبه كان يتوقع السؤال مسبقًا :

ــ ستعلم إن وافقت .

تساءل (أوزاكا) فى حذر أكبر :

ــ ألن تكون فيه خيانة لوطنى ... (اليابان) ؟!

مرة أخرى أتاه الجواب فى سرعة :

ــ لن يكون لوطنك أى شأن به .

تردَّد (أوزاكا) بضع لحظات ، ثم مدّ أصابعه فى حذر ، محاولاً استخدام ما لديه من مهارة وبرمجيات ، فى محاولة تحديد هوية أو موقع محدثه ، إلا أن ذلك الصوت الرقمى المتغير قال فى صرامة :

ــ لا تحاول .

تراجعت أصابع (أوزاكا) فى دهشة ، وتلفّت حوله فى عصبية ، قائلاً فى حدة :

ــ هل تراقبنى ؟!

أجابه الصوت فى صرامة :

ــ بل أتوقع ما يمكن أن يفعله رجل مخابرات يابانى سابق .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقول بنفس الحدة :

ــ وكيف تعلم هذا ؟!... المفترض رسميًا أننى موظف سابق فى واحدة من أكبر شركات الإليكترونيات الـ ...

قاطعه ذلك الصوت الرقمى بنفس الصرامة ، التى تمنحه رنينًا مزعجًا :

ــ اختيارك لم يكن عشوائيًا يا (أوزاكا) ... إننا نعرف تاريخك كله ، ونعرف أيضًا كم تشعر بالسخط والإحباط ، وكم تتوق للعودة إلى عالمك القديم ، حيث الإثارة والمتعة .

ازداد انعقاد حاجبى (أوزاكا) ، وهــو يتساءل فى صــوت تضاعفت عصبيته :

ــ من أنتم بالضبط ؟!

تجاهل صاحب الصوت سؤاله تمامًا ، وهو يقول :

ــ أمامك ساعة واحدة للتفكير ، واتخاذ القرار ... نصيحة ... ابدأ على الفور .

مع الكلمة الأخيرة ، انقطع الاتصال دفعة واحدة ...

وفى تزامن مدهش ، أشرقت الشمس فى اللحظة نفسها ، وعبرت أشعتها الذهبية النافذة ، وانصبّت على لوحة أزرار الكمبيوتر أمامه ، فتراجع هو معقود الحاجبين ، وراح يدير الأمر فى رأسه مرات ...

ومرات ...

ودون توقف ...

* * *

أكثر ما يمتاز به (أدهم صبرى) عن أقرانه في عالم المخابرات شديد التعقيد هو سرعة استجابته المدهشة ، التي اكتسبها مع مران طويل ، منذ بدأ والده الراحل إعداده لهذا العمل السرى أيام حداثته ...

وبتلك الاستجابة المدهشة ، لم يكن قد أكمل استدارته حتى ، عندما لمح بطرف عينه ذلك الرجل الذى تسلل من خلفه ...

ولمح مسدسه ، المصوّب إلى ظهره ...

وقبل حتى أن يضغط الرجل زناد مسدسه كان (أدهم) قد وثب جانباً ، ودار حول المقعد ، مستعيناً بمسنده الخلفي ، وطارت ساقه في الهواء ، لتركل المسدس من يد الرجل ، الذى أطلق رصاصته على المقعد مباشرة ...

ولكن ذلك الرجل استوعب أيضاً الأمر في سرعة ، وانقض على (أدهم) بحركة سريعة ، ودفعه أمامه نحو النافذة ...

وفي نفس اللحظة ، اندفع أكثر من عشرة رجال عبر ممر سرى ، كانت تخفيه مدفأة تقليدية قديمة ، وانقضوا كلهم عليه انقضاضة رجل واحد ...

وبكل ما يملك من مهارات قتالية ، لكم (أدهم) الرجل الذى انقض عليه ، ثم دار حول نفسه ، وركل رجلين آخرين بحركة دائرية مدهشة ، في نفس اللحظة التي انقض عليه فيها ثلاثة رجال آخرون ، وصوّب اثنان مدفعيهما الآليين نحوه ...

وفي هدوء ، أقرب إلى الاستمتاع ، استرخى (فليمون) في مقعده ، ووضع إحدى ساقيه فوق الأخرى ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يقول بابتسامة ظافرة :

ــ أريده حياً .

خفض الرجلان مدفعيهما ، واندفعا يشتركان مع زملائهما الثلاثة ، في قتال (أدهم) ، الذى أدرك أن الأمر يتجاوز قدراته ، فتراجع ليلصق ظهره بالنافذة ، ذات القضبان الحديدية ، وهو يقاتل كالأسود ، في حين أضاف (فليمون) ، وابتسامته تتسع :

ــ أريد الاستمتاع بقتله ... في بطء .

مع آخـــر كلماته ، هوى كعب مدفع آلى ثقيل على رأس (أدهم) ، الذى انهمر خيط من الدم ، يجرى بين خصلات شعره ، ويسيل على جبهته ...

إلا أن هذا لم يوقفه ...

لقد ظلّ يقاتل ...

ويقاتل ...

ويقاتل ...

حتى تلقى رأسه ضربة ثانية ...

وثالثة ...

وغاصت الدنيا أمام عينيه تماماً ...

فحتى رجل المستحيل ، مهما بلغت مهاراته وقدراته ، فهو بشر ...

مجرد بشر ...

بشر يمتلك قوة إرادة خرافية ، جعلته يواصل القتال ، حتى عندما أظلمت الدنيا أو كادت أمام عينيه ، و ...

ولكنه أخيرًا هوى ...

ومن أعدائه ...

آخر ما رآه هو وجه (جيرارد فليمون) ، وهو يطل عليه ، ويبتسم ابتسامة ظافرة متشفية ، قائلاً :

ـ رجالى لم يتلقوا منى كلمة التأمين السرية ، التى أبلغهم بها ، بعد أن أصل إلى منزلى ، دلالة على أن كل شيء على ما يرام .

ثم شدّ قامته ، وهو يضيف فى زهو :

ـ وهم مدربون جيدًا ، على ما ينبغى أن يفعلوه ، إن لم يسمعوها منى .

وكان هذا آخر ما سمعه منه (أدهم) ...

وبعدها أظلمت الدنيا أمام عينيه ...

تمامًا .

* * *

الفصل التاسع

انتهى رجـل المخـابرات الأمريكى (إيان نورتون) ، مـن عمله التقليدى فى مقر المخـابرات المركزية الأمريكية ، فى (لانجلى) بولاية (فرجينيا)[*] ، واسـتقل سيارته ، لينطلق بها عائدًا إلى مسكنه فى (واشنطن) ...

لم يكن أحـد رجـال المخابرات العاملين فى حقـل العمليات السرية أو المباشرة ، وإنما انحصر عمله فى مجال تسجيل المعلومات ، فى الطابق السفلى من المبنى ...

ومع انطلاقه بسيارته ، تثاءب فى إرهاق ، وتنهد فى عمق ، ثم راح يدندن بأغنية شعبية شهيرة ، وهو يضرب بأنامله على عجلة القيادة ، و[illegible] ...

« كيف حالك يا (نورتون) ؟!... »

انبعث السؤال من خلفه فجأة ، فانتفض جسده كله فى عنف ، واضطربت عجلة القيادة فى يده لحظة ، قبل أن يستعيد السيطرة عليه ، ويضغط فرامل السيارة فى قوة ، وهو يحدق فى المرآة الداخلية للسيارة ، والتى بدا فيها وجه (تيا) ، وهى تنهض جالسة على المقعد الخلفى ، قبل أن يهتف :

ـ أنت ؟!... كيف وصلت إلى هنا ؟!

قالت (تيا) فى صرامة ، لا تتناسب مع ملامحها الحسناء ، ولا مع جسدها الضئيل :

(*) المقر الرئيسى للمخابرات الأمريكية (CIA) .

ـــ واصل القيادة يا (نورتون) ... التوقف المفاجئ هنا سيثير الاهتمام .

عاد ينطلق بسيارته ، وهو يسألها بكل دهشته وتوتره :

ـــ إننى أضع سيارتى داخل المبنى ، فكيف بالله عليك أمكنك التسلل إليها ؟!

بدا صوتها أكثر صرامة ، وهى تجيب :

ـــ لست الوحيد الذى يعمل لحسابنا يا (نورتون) .

كان الجواب كافيًا بالنسبة إليه ، ولكنه قال فى عصبية :

ـــ هل تعلمين ما يمكن أن يصيبنى ، إذا ما رصدك أحدهم معى ؟!

انتقلت فى رشاقة إلى المقعد المجاور له ، وهى تجيب فى برود :

ـــ ستقول : إننى فتاتك .

قال فى عصبية أكثر :

ـــ تعلمين أننى متزوج ، و ...

قاطعته فى صرامة :

ـــ لن يصنع هذا فارقًا كبيرًا ، فالكثير من زملائك لهم فتيات ، خارج إطار الزوجية .

تزايدت عصبيته ، وهو يقول :

ـــ ولكنهن لا يعملن فى المخابرات الصينية .

وعلى الرغم من صرامتها ، حملت شفتاها ابتسامة ساخرة :

ـــ ومن أدراك ؟!

انعقد حاجباه فى شدة ، وحاول أن يقاوم ذلك الاضطراب الذى يسرى فى جسده ويلهب أعصابه ، وهو يقول ، محاولاً كسب صوته لمحة من الصرامة :

ـــ ماذا تريدين يا (تيا) ؟!

أجابته فى سرعة :

ـــ كالمعتاد .

وعقدت حزام الأمان حول جسدها الضئيل ، وهى تضيف فى صرامة :

ـــ معلومات .

استعاد عصبيته ، وهو يقول :

ـــ لقد أرسلت لكم آخر ما لدى .

قالت فى برود :

ـــ ما نريده هذه المرة يختلف .

بدا شديد التوتر ، وهو يسأل :

ـــ وفيم يختلف ؟!

رمقته بنظرة باردة ، واستغرقت فى الصمت بعض الوقت ، قبل أن تسأله فى صرامة :

ـــ (نورتون) ... هل تعلم لماذا ندفع لك كل هذا الراتب الكبير ؟!

أجابها بنفس التوتر :



ـــ لأننى أمدكم بمعلومات كبيرة .

حمل صوتها شيئًا من الصرامة ، وهى تقول :

ـــ بل لأنك ، ولضآلة شأنك ، تقضى كل وقتك فى قبو المبنى ؛ لتسجيل كل ما يرد إليك من معلومات ، من كل أنحاء العالم .

قال فى حدة :

ـــ وهذا يعنى معلومات كبيرة .

مالت نحوه ، وهى تقول صارمة :

ـــ ولكن المعلومات التى نريدها هـــذه المـــرة لن ترد إليك مباشرة ... بل ستحتاج إلى الكثير من الجهد ؛ للتوصل إليها .

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يسألها (نورتون) فى عصبية :

ـــ ما الذى تريدونه بالضبط هذه المرة يا (تيا) ؟!

كانت أنفاسها ترتطم بجانب وجهه ، وهى تجيب فى صوت كالفحيح :

ـــ (روميرو جونزاليس) ... هذا الاسم مر أمامك حتمًا .

انعقد حاجباه ، وهو يجيب فى شيء من الحذر ، لم يدر له سببًا :

ـــ إنه رجل المخابرات الـ ...

قاطعته فى صرامة :

ـــ نريد ملفًا كاملاً عنه ، وعن كل من عمل فى أى أمر يشأنه ، وكل من ارتبط به ، أو أجرى أية اتصالات معه أو بشأنه ، طوال العام السابق .

انعقد (نورتون) فى توتر :

ـــ لن يكون هذا سهلاً .

أجابته فى صرامة :

ـــ ولهذا ستحصل على مكافأة كبيرة بالمقابل .

قبل أن تنفرج شفتاه عن أى تعليق ، تابعت فى حزم :

ـــ وليس هذا ما نطلبه فحسب .

كاد توتره يبلغ ذروته ، وهو يسألها :

ـــ ماذا أيضًا ؟!...

مالت نحوه فى شدة ، تهمس فى أذنه بما تريده ...

واتسعت عينا (نورتون) عن آخرهما ...

فقد كان ما تطلبه خطيرًا إلى حد لا يصدَّق ...

أبدًا ...

* * *

استعاد (أدهم) وعيه تدريجيًا فى بطء ، وشعر مع استعادتها بآلام إصابات رأسه ، إلا أنه ظلَّ يغلق عينيه لحظات ، محافظًا على استرخاء ملامحه ، حتى لا تشف عن استعادته لوعيه ، وهو يرهف سمعه جيدًا ، لكل ما حوله ...

كان صوت (فليمون) يأتيه من بعيد ، وهو يتحدث إلى شخص ما ، عبر هاتفه المحمول على الأرجح ...

وبكل تركيزه ، استمع إليه (أدهم) يقول :

ـ لا ... لم نقتله يا مسيو (ريليه) ... لا بد من استجوابه أولًا ؛ لمعرفة من وراءه ، وإلى أي حد تبلغ معلوماته عنا بالضبط ... بالتأكيد يا مسيو (ريليه) ... بالتأكيد ... سأرسل لك صورته فورًا .

سمع (أدهم) بعدها وقع قدمين تقتربان ، حتى صارتا على قيد خطوة منه ، ثم صوت خافت لكاميرا هاتف محمول تلتقط صورته ، فأيقن أن التظاهر بالاستمرار في فقدان الوعي لم يعد مجديًا ، مما جعله يفتح عينيه في بطء ، ويتطلّع مباشرة إلى (فليمون) ، الذي ابتسم في ظفر ، وهو يقول متشفيًا :

ـ كان ينبغي أن تفكر ألف مرة ، قبل أن تتحدى (جبرارد فليمون) يا هذا .

قال (أدهم) في هدوء ، لا يتناسب قط مع موقفه :

ـ وكان عليك أنت أن تفكر عشرة آلاف مرة ، قبل أن تحتفظ بي على قيد الحياة ، بعد أن وقعت في يدك يا هذا .

تطلع إليه (فليمون) لحظة في دهشة ، ثم انفجر ضاحكًا في قوة ، وأشار بيده ، وهو يقول :

ـ مسألة مؤقتة يا هذا ... ألا تدرك طبيعة موقفك بالضبط ؟!

كان (أدهم) يدرك جيدًا أنه مقيّد في إحكام ، إلى مقعد معدني كبير ، وحوله ثلاثة من رجال (فليمون) ، يصوبون إليه مدافعهم الآلية ، وكأنهم يخشونه ، حتى وهو مقيّد إلى ذلك المقعد ...

وإلى جواره مباشرة ، كان هناك جهاز صغير ، يعرفه كل رجل مخابرات تمام المعرفة ...

جهاز كشف الكذب(*) ...

وبنفس الهدوء العجيب ، أدار (أدهم) بصره فيما حوله ، قبل أن يعود به إلى (فليمون) ، قائلًا في سخرية هادئة :

ـ أمن المفترض أن يثير هذا رعبي أم ضحكي ؟!

لم يرق هذا لـ (فليمون) ، الذي اعتاد أن يرتجف العمالقة أمامه ، فانعقد حاجباه في شدة ، وهو يقول في صرامة ، حملت غضبه وعصبيته :

ـ سنرى .

أشار إلى أحد رجاله ، فاستدار يفتح بابًا معدنيًا ، دلف منه رجل نحيل ، يرتدي منظارًا طبيًا ، ويبدو شديد الارتباك ، وهو يتطلع إلى (فليمون) ، الذي أشار إليه ، ثم إلى (أدهم) ، وهو يقول في صرامة :

ـ ابدأ عملك .

اتجه النحيل على الفور إلى جهاز كشف الكذب ، وراح يوصله بصدر (أدهم) وذراعه وسبابته ، ثم بجهاز كمبيوتر محمول على الجانب الآخر ، و(فليمون) يقول في صرامة :

ـ الآن لن يعود بوسعك الكذب علينا يا رجل .

(*) جهاز كشف الكذب ، مؤشر تخطيطي متعدد ، اخترعه (جون أ. لارسن) عام 1921م ، وهو يعتمد على قياس التغييرات في سرعة النبض ، و[illegible] ... أيضًا بعد سرعة إفراز العرق ، ولكن الأكاديمية الوطنية [illegible] ... في مصداقيته ، عام 2003م

تراجع فى دهشة ، عقب نطق عبارته ، عندما قال (أدهم) فى سخرية ، مقلدًا صوته ولهجته ، على نحو مدهش :

ـــ سنرى .

حدّق فيه (فليمون) فى ذهول ، ثم أدار عينيه إلى النحيل ، هاتفًا :

ـــ كيف يفعل هذا ؟!

ارتبك الرجل أكثر ، وهو يقول فى ذعر ، وكأنه يدافع عن نفسه :

ـــ لست أدرى .

عاد حاجبا (فليمون) ينعقدان فى غضب ، وهو يقول :

ـــ ماذا تنتظر ؟!... ابدأ عملك يا رجل .

جفف النحيل عرقًا وهميًا عن جبهته ، وبدأ يلقى على (أدهم) بعض الأسئلة التمهيدية المعتادة ، قبل أن يسأله دفعة واحدة :

ـــ إلى ماذا تنتمى ؟!

كان (أدهم) يدرك أن الجهاز الموصول بجسده ، سيعمل على نقل أية تغيرات فى نبضـــه ، أو ضغط دمه ، أو معدلات تنفســـه ، إلى شاشة الكمبيوتر ، عبـــر برنامج رقمى دقيـــق ، قـــادر على تسجيل أدنى تغيرات مباشرة ، فى معدّلاته الحيوية ...

وبالنسبة إليه ، كان هذا نوعًا من التحديات التى تستهويه دومًا ...

صراع حديث ، من نوع لم يكن له وجود ، عندما بدأ عمله ، فى عالم الغموض والأسرار ...

صراع بين التكنولوجيا ...

وإرادة البشر ...

وعندما يدور مثل هذا الصراع فى المعتاد ، تنتصر التكنولوجيا دومًا ، وخاصة مع المدى المذهل ، الذى بلغته فى السنوات الأخيرة ...

ولكن هناك ، فى قبو منزل (جيرارد فليمون) ، كان الصراع يختلف ...

كان صراعًا بين تكنولوجيا شديدة التطور ...

وإرادة بشرية ، أقل ما توصف به هو أنها فولاذية ...

فهى إرادة رجل يختلف ...

رجل المستحيل ...

تقودنا هذه التقدمة إلى جواب (أدهم) على سؤال النحيل ، فى هدوء شديد :

ـــ إلى نفسى .

لم يرق الجواب لـــ (فليمون) ، فقال فى عصبية :

ـــ أى جواب هذا ؟!

ارتبك النحيل ، وهو يشير إليه بالصمت والصبر ، ثم عاد فى سرعة إلى (أدهم) ، يسأله :

ـــ ماذا يعنى جوابك هذا ؟!

أجابه (أدهم) بنفس الهدوء :

ـــ يعنى أننى أعمل لحسابى ... أحصل على المعلومات ، وأبيعها لكل من يدفع الثمن .

هتف (فليمون) معترضًا :

ــ هراء .

ازدرد النحيل لعابه فى صعوبة ، وهو يلقى نظرة على شاشة الكمبيوتر ، مغمغمًا :

ــ ولكنه يقول الصدق :

اندفع (فليمون) يسأل (أدهم) فى حدة :

ــ ما الذى تخطط له بالضبط ؟!

صمت (أدهم) لحظة ، ثم أجاب ، فى سخرية واضحة :

ــ الآن أم فيما بعد ؟!

تراجع (فليمون) فى دهشة مستنكرة :

ــ الآن ؟!... وما الذى يمكنك أن تخطط له الآن ، وأنت بين أيدينا هنا ؟!...

رفع (أدهم) عينيه إليه ، قائلاً فى هدوء ، يفوح برائحة السخرية :

ــ إنها خطة بسيطة للغاية .. سأضرب هؤلاء الحمقى الثلاثة ، الذين يحملون تلك الألعاب الآلية ، ثم أحطم هذا الجهاز السخيف ، وبعدها أتفرّغ لتحطيم أنفك .

اشتعل وجه (فليمون) بالغضب ، وبدا صارمًا متحديًا قاسيًا ، وهو يقول فى حدة :

ــ هذا فى أحلامك .

ارتجف النحيل ، وهو يتمتم فى خوف :

ــ ولكنه يقول الصدق أيضًا .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، ومرة أخرى قلّد صوت (فليمون) ولهجته على نحو مدهش ، وهو يقول :

ــ أرأيت ؟!

وقبل حتى أن يتم قوله ، كان قد تحرك بالفعل ...

وفى سرعة مذهلة ...

وبراعة أكثر من مذهلة ...

لقد اندفع بمقعده الثقيل فجأة إلى الخلف ، بدفعة قوية من قدميه ، ليرتطم بأحد الرجال الثلاثة ، حاملى المدافع الآلية ، فى عنف شديد ، ثم ارتفعت قدماه لتركلان الرجل الثانى ، فى أنفه وفكه ، فى آن واحد ...

وفى سرعة ، ارتفع مدفع الرجل الثالث نحوه ، وصوّبه إلى صدره ، و...

وعلى الرغم من ثقل المعقد ، المقيّد (أدهم) إليه ، نهض به واقفًا ، على نحو جعل الرجل يتراجع فى دهشة ، على الرغم من أنه الذى يحمل السلاح ...

وعندما استعاد قدرته على الاستيعاب ، كان قد أضاع ثانيتين فحسب ...

وبالنسبة لرجل مثل (أدهم) ، هذه فترة كافية ...

للغاية ...

ففى حركة سريعة ، وعلى الرغم من ثقل المقعد المعدنى ، دار حول نفسه دورة شبه كاملة ، ليضرب حامل المدفع الآلى الأخير بقوائم المقعد ، على نحو أطاح به نحو جهاز كشف الكذب ، ونحو النحيل ، الذى أصابه رعب شديد ، جمَّده فى مقعده ، ليسقط مع الجهاز والكمبيوتر المحمول أرضًا ، ويتحطَّم الجهاز والكمبيوتر فى عنف ...

وفى ارتياع ، وعلى الرغم من أن (أدهم) ما زال مقيدًا إلى المقعد المعدنى ، تراجع (فليمون) ملتصقًا بالجدار ، واتسعت عيناه فى رعب ذاهل ، فابتسم (أدهم) ، وهو يعاود الجلوس على المقعد المعدنى ، مكررًا بذلك الهدوء ، الذى ليس له محل من الإعراب ، فى موقف كهذا :

— أرأيت ؟!..

لهث (فليمون) فى شدة ، غير مصدق لما رأته عيناه بالفعل ، ثم تذكر فجأة أنه ما زال يحمل مسدسه فى حزامه ، فاندفعت يده نحوه ، و ...

وتجمَّدت يده ، قبل أن تصل إلى مقبض مسدسه ، مع ما حدث فى الثانية التالية ...

ففى هدوء ، نهض (أدهم) من المقعد المعدنى ، متحررًا من قيوده ، وهو يضيف :

— لقد كانت لدى خططى .

تراجعت يد (فليمون) عن مقبض مسدسه ، و(أدهم) يتقدَّم نحوه ، وعيناه تخترقان كيان زعيم الجريمة الباريسية ، وهو يكمل فى هدوء مخيف :

— والآن يا عزيزى (فليمون) ... دعنا نكمل حديثنا ، الذى قاطعه رجالك .

وفى هدوء أصاب (فليمون) بحالة عجيبة من الشلل ، مدَّ (أدهم) يده ، ينتزع مسدس (فليمون) من حزامه ، ويلقيه جانبًا ، وهو يقول :

— من هو مسيو (رينيه) هذا ؟!

ومرة أخرى ، اتسعت عينا (فليمون) فى ارتياع ...

ودون مقاومة ...

على الإطلاق ...

* * *

« المصريون دخلوا الساحة ... »

قالها مدير المخابرات المركزية الأمريكية فى حزم ، داخل المكتب البيضاوى للرئيس الأمريكى ، الذى انعقد حاجباه فى توتر ، دون أن يعلق ، فاندفع مستشار الأمن القومى يسأل فى توتر :

— من أى اتجاه ؟!

التفت إليه وزير الدفاع الأمريكى فى تساؤل ، فتابع مفسرًا سؤاله :

— هل دخلوا الساحة بحثًا عن المسئول عن نسف واحتهم ، ومحوها من الخريطة ، أم أن لديهم معلومات كافية ، عن ذلك السلاح الجديد ؟!

بدا السؤال معقولاً وهامًا للغاية ، مما جعل العيون كلها تتجه نحو مدير المخابرات ، الذى شدَّ قامته ، وهو يجيب فى حزم

ــ حتى هذه اللحظة ، هم يتعقبون منفذى تفجير واشنطن .

بدا الارتياح نوعًا ما ، على وجه مستشار الأمن القومى ، ولكن مدير المخابرات تابع فى حزم :

ــ ولكن مع رجلهم ، الذى أرسلوه لكشف هذا ، لن أستبعد أن يتوصلوا إلى طبيعة السلاح ، خلال ساعات .. أو أيام على الأكثر .

عاد القلق الشديد يغمر الوجوه ، ووزير الدفاع يسأل :

ــ ومن رجلهم هذا ؟!

أجابه مدير المخابرات فى سرعة :

ــ اسمه (صبرى) ... (أدهم صبرى)(*) .

ران على الجميع صمت ثقيل طويل ، قبل أن [illegible] مستشار الأمن القومى فى حذر متوتر :

ــ هل تعنى ذلك الرجل الذى ...؟!

لم يستطع مواصـــلة ســؤاله ، إلا أن مدير المخابرات أجابه بنفس السرعة :

ــ نعم ... إنه ذلك الرجل ، الذى كال للمخابرات السوفيتية ضربات موجهــة ، وهــزم عمــلاء المخابرات البريطانية ، ودمّر منظمــة (سكوربيون) ، وقهر مستر (X) الذى لم تكشف هويته حتى الآن ... حتى (المافيا) بكل قدراتها ، لم تنجح فى القضاء عليه ، أو هزيمته(**) .

(*) النظام الأمريكى يبدأ الاسم باللقب أولاً .
(**) راجع أعداد سلسة (رجل المستحيل) .

بدا وزير الدفاع صارمًا عصبيًا ، وهو يقول :

ــ لماذا لم تصف أنه قد هزم بعض أشهر رجالنا أيضًا ؟!

انعقد حاجبا مدير المخابرات ، وهو يقول :

ــ أعترف بهذا .

ثم عاد يشد قامته ، محاولاً استعادة صرامته ، مضيفًا :

ــ ولهذا فقــد أرسلت إليه فريقًا من أقــوى رجال العمليات الخارجية الخاصة ، بقيادة أقوى عميل لدينا ، وهو قائد (مارينز) سابق (ريتشارد بورتر) ... أظنك تعرفه شخصيًا يا سيادة الرئيس .

انعقد حاجبا الرئيس الأمريكى ، قائلاً فى حزم :

ــ أهؤلاء من أرسلتهم إلى (باريس) ؟!

أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ــ بالضبط يا سيادة الرئيس ... أرسلتهم إلى (باريس) ، مع أوامر محدودة للغاية .

التقط نفسًا عميقًا ، وحاول أن يشد جسده أكثر ، مع إضافته :

ــ قتل (أدهم صبرى) ... وبكل وسيلة ممكنة .

وكان هذا يعنى أن حرارة الصراع قد ارتفعت إلى درجة رهيبة ...

(*) قوات المارينز : هى القوات الخاصة البحرية [illegible] الجيش الأمريكى كله ، والمدربة تدريبًا خاصًا للغاية .

ومخيفة ...

وخطيرة ...

بلا حدود .

* * *



الفصل العاشر

ظلَّ ذلك الصينى الأصلع صامتًا ، لما يقرب من دقيقة كاملة ، وهو يتطلَّع إلى (نيا) ، بعينين ضيقتين باردتين ، وملامح خاوية من أية انفعالات ، حتى أن هذه الأخيرة تململت فى وقفتها ، وبدت منها تنهيدة ضجر ، جعلته يقول فى بطء وصرامة :

ـ أعيدى كل ما قلتيه مرة أخرى .

شعرت بحنق شديد ، بدا واضحًا فى نبرات صوتها ، على الرغم من محاولة إخفائه ، وهى تقول فى صرامة :

ـ لقد أعدته مرتين حتى الآن .

كرر فى صرامة أشد :

ـ أعيدى ما قلتيه .

زفرت فى وضوح ، قبل أن تقول :

ـ المعلومات التى أتى بها رجلنا هنا ، تربط ما بين مفاوضاتنا السابقة ، بشأن ذلك السلاح الجديد ، وتحرك المصريين ، لتعقب مفجرى ولحتهم .. لقد أرسلوا أقوى رجالهم إلى (باريس) ، والتقارير المخابراتية الأمريكية تقول : إنه لو واصل مهمته هناك ، فهناك احتمال كبير ، أن يقوده هذا إلى كشف طبيعة السلاح ، ونظرًا لتاريخه السابق ، لا يستبعدون أحد احتمالين .. إما أن ينجح فى الحصول على السلاح الجديد ، أو ينجح فى تدميره ، بحيث لا يفوز به أحد .

ظل الصينى الأصلع صامتًا لدقيقة أخرى ، فأضافت هى فى ضيق :

ـ ولا تطالبنى بإعادة هذا مرة أخرى .

لم يعلق على عبارتها لدقيقة إضافية ، وهو صامت جامد ، كتمثال من الشمع ، مستغرقًا فى تفكير عميق ، قبل أن يسألها فى بطء شديد :

ـ من الرجل ، الذى أرسله المصريون ؟!

صمتت بدورها لحظات ، ثم أجابت فى قوة :

ـ (أدهم) .. (أدهم صبرى) .

ولأول مرة فى حياتها ، رأت (تيا) ملامحه تتوتر ، وحاجباه ينعقدان فى شدة ، وهو يغمغم فى بطء :

ـ (أدهم صبرى) ؟!...

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن تستعيد ملامحه جمودها ، ويستعيد صوته صرامته ، وهو يضيف :

ـ ما لدينا من معلومات ، عن ذلك الرجل ، يشير إلى أن الأمريكيين محقون فى قلقهم هذا .

أشارت بيدها ، قائلة :

ـ لم يكتفوا بالقلق ... لقد أرسلوا أحد رجالهم إلى (باريس) ، على رأس فرقة خاصة ، للقضاء عليه .

استعاد صمته لفترة طويلة هذه المرة ، فقالت فى حزم :

ـ أنا مستعدة للسفر إلى (باريس) فورًا .

أجابها فى سرعة وصرامة :

ـ كلا .

بدت الدهشة على ملامحها ، وهى تقول معترضة :

ـ هل ستتركه للأمريكيين ؟!

وبنفس السرعة والصرامة قال :

ـ بالتأكيد .

وقبل أن تنبس ببنت شفة ، أضاف بكل الصرامة :

ـ مالكو السلاح لن يتوقفوا .. لمجرد أن مفاوضهم قد لقى مصرعه .. سيرسلون حتمًا مفاوضًا آخر ، إن عاجلاً أو آجلاً .. ولن نترك لهم الساحة خالية ، عندما يحدث هذا .

صمتت لحظات ، محاولة استيعاب منطقه ، ثم تساءلت :

ـ وهل سنعمل على تصفيته أيضًا ، عندما يظهر ؟!

أجاب فى سرعة :

ـ لو لم تكن قد حصلنا على السلاح قبلها .

شدت قامتها ، وهى تقول فى حزم :

ـ لن تحصل عليه ، لو أننى ظللت هنا .

قالتها ، واستدارت تغادر تلك الحجرة الصغيرة ، ذات الأضواء الخافتة ، تاركة الصينى الأصلع خلفها ، وقد انعقد حاجباه فى شدة أكثر ، وعقله يردد اسمًا واحدًا ...

(أدهم) .. (أدهم صبرى) ..

* * *

« لقد تأخَّر كثيرًا .. »

قالتها (منى) فى قلق ، وهى تجلس داخل السيارة ، التى يحتل (علاء) مقعد قيادتها ، فألقى هو نظرة من بعيد ، على منزل (جيرارد فليمون) ، وهو يغمغم :

ــ لم يحن وقت تنفيذ الجزء الخاص بنا من الخطة بعد .

انعقد حاجباها ، وهى تقول :

ــ لقد أوشك الفجر على الانبلاج .

أجاب فى صرامة :

ــ لم تتلق الإشارة بعد .

ألقت نظرة بدورها ، على الحركة غير العادية ، عند منزل (فليمون) ، قبل أن تقول :

ــ التحركات التى أرصدها ، لا تشير أبدًا إلى أن خطة (أدهم) تسير كما رسمها ، وأخشى أن جلوسنا هنا ، قد يعنى تخلينا عنه ، حتى لو التزمنا بما أمر به .

ولم يعترض (علاء) هذه المرة ...

فعلى الرغم من أن طبيعة عمله تستلزم السير ، وفقًا لخطة واضحة ومحدودة ، إلا أنه كان يتفق معها فى الرأى هذه المرة ...

تلك التحركات المتوترة ، عند منزل (فليمون) ، تؤكد أن هناك أمرًا غير اعتيادى يحدث هناك ... ومع وجود (أدهم) بالداخل ، فلا ريب فى أن هذا يتعلق به ، على نحو أو آخر ...

وجلوسهما ساكنين ، حتى ولو كان هذا بأوامر منه ، قد يعنى تعرضه للخطر ...

وقواعد العمل ، فى هذه الحالة واضحة ...

لا بد من تطوير الخطة ، وفقًا لمقتضيات الأمور ...

« هناك خمسة رجال مسلحين ، بيدون متحفزين ، أكثر من المعتاد ... »

قالها فى خفوت ، حمل حسمه وتوتره ، فعقبت هى فى سرعة :

ــ ولدينا مسدسان ، وسيارة مصفحة ، ذات زجاج مضاد للرصاصات .

تساءل فى حذر :

ــ هل تظنين هذا يكفى ؟!

أجابت فى حزم :

ــ فلنجعله كذلك .

تساءل فى اهتمام :

ــ ألديك اقتراح محدود ؟!

كانت تهم بقول شىء ما ، عندما انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يغمغم فى توتر شديد :

ـ مهلاً .

مالت برأسها إلى الأمام ، محاولة كشف ما دفعه لهذا القول ، وهى تتساءل ، وقد انتقل إليها توتره :

ـ ماذا هناك ؟!

أشار إلى ركن بعيد ، وهو يجيب بكل توتره :

ـ هناك تحركات أخرى مريبة هناك ، فى تلك المساحة الضيقة ، بين البنايتين ، اللتين تواجهان ...

قبل أن ينهى قوله ، اشتعل الموقف دفعة واحدة ...

وبدون إنذار مسبق ...

قنبلة دخان ، ألقيت فجأة ، نحو رجال (فليمون) ، وانفجرت وسطهم تماماً ...

ومع انتشار سحب الدخان منها ، اندفع عشرة رجال ، من تلك المساحة الضيقة ، التى أشار إليها (علاء) ، وهم يطلقون رصاصاتهم ، من مسدسات مزوّدة بكواتم للصوت ، نحو رجال (فليمون) ، الذين باغتهم الهجوم ، وصرعتهم الرصاصات ، قبل أن تنطلق من مدافعهم رصاصة واحدة ...

أما الرجال العشرة ، الذين يرتدون دروعاً مضادة للرصاصات ، فقد أكملوا اندفاعهم ، نحو منزل (فليمون) ، وراح أحدهم يزرع متفجرات (سى فور) ، فى رتاج بابه الحديدى ...

واتسعت عيون (منى) و(علاء) ...

فحتماً ، لم يعد ما لديهما يكفى ...

على الإطلاق ...

* * *

انعقد حاجبا الرئيس المباشر السابق ، لرجل المخابرات اليابانى المستبعد (واو أوزاكا) ، وهو يلتقى بهذا الأخير ، فى محطة قطار (طوكيو) ، وبدا شديد العصبية ، وهو يقول :

ـ أتعشَّم أن يكون طلب المقابلة العاجلة هذا ، له ما يبرره يا (أوزاكا) .

انحنى (أوزاكا) فى احترام :

ـ لو لم يكن كذلك ، لما جرؤت على طلبه يا (فوجيتا) سان[*] .

مطَّ (فوجيتا) شفتيه ، وكأنما هذا لا يروقه ، وقال فى خشونة :

ـ لو أنه بشأن إعادتك إلى العمل ، فسوف ...

قاطعه (أوزاكا) فى سرعة ، مع ابتسامة خفيفة :

ـ إنه ليس كذلك يا (فوجيتا) سان .

ثم اتسعت ابتسامته قليلاً ، وهو يستدركه :

ـ ولكنه قد يقود إليه .

ازداد انعقاد حاجبى (فوجيتا) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هات ما لديك يا (أوزاكا) .

(*) لقب (سان) باليابانية ، أشبه بلقب (السيد المحترم)



أشار (أوزاكا) إلى جيبه ، وهو يقول :

ــ هاتفك المحمول أولاً يا سيدي .

هتف به (فوجيتا) مستنكراً :

ــ إنه هاتف مؤمّن يا (أوزاكا) ، وأنت تعلم هذا ، بحكم عملك ... السابق .

هزّ (أوزاكا) رأسه ، قائلاً في إصرار :

ــ هاتفك يا (فوجيتا) سان ...

ثم أضاف في حزم :

ــ ثق بي .

تطلع إليه (فوجيتا) لحظات في غضب ، ثم أخرج هاتفه المحمول ، ودسّه في منديل ورقي ، ثم اتجه نحو إناء زرع كبير ، وأخفى الهاتف داخله ، ثم التفت إلى (أوزاكا) ، قائلاً في صرامة شديدة :

ــ والآن ماذا ؟!

بدا الارتياح على وجه (أوزاكا) ، وهو يقول :

ــ دعنا نبتعد قليلاً .

سارا جنباً إلى جنب ، لمسافة عشرة أمتار تقريباً ، قبل أن يقول (أوزاكا) :

ــ لقد تلقيت اتصالاً عجيباً هذا الصباح .

سأله (فوجيتا) في اقتضاب :

ــ ممن ؟!

هزّ (أوزاكا) رأسه نفياً في بطء ، وهو يجيب :

ــ لست أدري .

توقف (فوجيتا) عن السير ، والتفت إليه مستنكراً ، دون أن يقول شيئاً ، فأضاف (أوزاكا) في سرعة :

ــ ولكنه اتصال بالغ الأهمية .. والخطورة .

عقد حاجبا (فوجيتا) ينعقدان ، وهو يواصل سيره ، متسائلاً :

ــ بأي شأن كان هذا الاتصال ؟

ولبضع دقائق كاملة ، راح (أوزاكا) يروي له ما حدث ، بأدق التفاصيل ، وما أن انتهى ، حتى غرق (فوجيتا) في صمت عميق لحظة دقيقة أخرى ، قبل أن يسأل في بطء :

ــ وماذا تنوي أن تفعل ؟!

هزّ (أوزاكا) كتفيه ، مجيباً :

ــ هذا ما أردت سؤالك عنه (فوجيتا) سان .

واصل (فوجيتا) صمته مرة أخرى ، مما أشعر (أوزاكا) بضرورة توضيح موقفه ، فعاد يقول :

ــ العرض ، بصيغته هذه ، يوحي بأنه يخفي خلفه صفقة غير مشروعة والمبلغ المعروض يؤكد أنها صفقة كبيرة ، إلـ

قاطعه (فوجيتا) ، فى حزم صارم :

ــ اقبل العرض .

توقف (أوزاكا) هذه المرة ، وهو يسأله فى دهشة :

ــ بهذه البساطة ؟!

التفت إليه (فوجيتا) ، قائلاً بكل الصرامة :

ــ إننا لا ندرى شيئًا عن طبيعة تلك الصفقة ، ولا عن طرفيها ، ولا عن مدى خطورتها ... والوسيلة الوحيدة ، لمعرفة كل هذا هى أن نكون جزءًا منها ... ولا سبيل إلى هذا ، سوى أن تقبل الصفقة .

التمعت عينا (أوزاكا) ، وهو يقول فى لهفة :

ــ أيعنى هذا أن ...

قاطعه (أوزاكا) فى خشونة :

ــ ليس بعد ... ستعود إلى عملك ، لو أن الأمر يستحق .

التقط (أوزاكا) نفسًا عميقًا ، وشدّ قامته ، وهو يقول :

ــ سيستحق .

تطلع إليه (فوجيتا) لحظات فى صمت ، ثم استدار عائدًا إلى حيث ترك هاتفه المحمول ، فى حين انصرف (أوزاكا) فى اتجاه مخالف تمامًا ..

وفى هدوء ، وعندما بلغ إناء الزرع ، التقط (فوجيتا) هاتفه المحمول ، وألقى نظرة سريعة على ما حوله ، ثم طلب رقمًا قصيرًا ، وقال فى حزم :

ــ سيقبل .

وأعاد الهاتف إلى جيب معطفه ، وغادر محطة القطار فى هدوء ...

وحزم ...

* * *

« لم يتغيّر شىء يا جنرال .. »

قالها (يورى) ، مساعد (سيرجى كوريوف) فى خفوت ، على الرغم من أنهما يجلســان وحدهما ، فى سيارة روسية تقليدية ، على قيد عشرين مترًا ، من ذلك المنزل الصغير ، على أطراف (ستالينجراد) ، حيث يختفى (إيفان تورجنيف) ، آخر من بقى على قيد الحياة من فريق الباحثين فى معمــل (سيبريا) ، فألقى (سيرجى) نظرة أخرى على المنزل ، وهو يقول فى برود :

ــ سيكون ... كل على ثقة من هذا .

تردد (يورى) لحظات ، قبل أن يقول فى حذر :

ــ ربما لا يعلمون أنه قد نجا .

صمت (سيرجى) لحظة ، ثم قال بنفس البرود :

ــ ما داموا بهذه الكفاءة ، كما يوحى ما فعلوه فسيعلمون كما علمنا ... وحتمًا ، سيسعون للتخلص من آخر من يعلم السر ، الذى فعلوا من أجله كل ما فعلوا .

أومأ (يورى) برأسه ، متظاهرًا بالاقتناع ، إلا أنه لم يستطع منع نفسه من أن يسأل :

ــ وماذا لو ظفروا به قبلنا ؟!

استدار إليه (سيرجى) ، بنظرة بالغة الصرامة ، فانكمش فى مقعده أو كاد ، وهو يغمغم مضطربًا :

ــ المفترض أن ندرس كل الاحتمالات يا جنرال .

واصل (سيرجى) رميه بتلك النظرة الصارمة لحظات ، ثم عاد ينظر إلى ذلك المنزل الصغير ، وهو يقول :

ــ لو شعرنا بذرة واحدة من الشك ، سنهاجم المنزل ، ونلقى القبض على (إيفان) هذا على الفور .

عاد (يورى) يعتدل ، وهو يغمغم :

ــ ربما أخبرنا عما تريد معرفته .

قال (سيرجى) فى صرامة :

ــ ولكننا لن نعرف أبدًا من وراء كل هذا .

ارتفع حاجبا (يورى) ، وهو يهز رأسه فى قوة ، قائلاً :

ــ أنت على حق يا جنرال .

بدا اهتمام شديد على وجه (سيرجى) ، فى هذه اللحظة ، وهو يتطلع إلى عامل توصيل طلبات ، يدق جرس باب ذلك المنزل الصغير ، فغمغم (يورى) موضحًا :

ــ إنه لا يغادر المنزل قط ، ويحصل على طعامه وشرابه من خلال عمّال التوصيل .

قال (سيرجى) فى صرامة :

ــ من الضرورى استجوابهم جميعًا ، وفحص كل ما يحملونه ، قبل أن يصل إليه .

قالها ، وهــو يتابع العامل الــذى انتظر حتى فتح (إيفان) الباب فى حذر ، فناوله الكيس الذى يحمله ، وتناول منه النقود ، قبل أن يغلق الأخير الباب فى سرعة ...

وما أن أغلق الباب ، حتى قفز العامل إلى دراجته ، وابتعد بها بسرعة زائدة ، جعلت (سيرجى) يهتف بمساعده ، وهو يستل مسدسه ، ويقفز خارج السيارة :

ــ أوقف هذا العامل .

وثب (يورى) من السيارة بدوره ، وانطلق يعدو ، لاعتراض طريق دراجة العامل ، فى حين عدا (سيرجى) بأقصى سرعته ، نحو ذلك المنزل الصغير ...

وعبر مناورة عصبية ، حاول العامل الإفلات من اعتراض (يورى) لطريقه ، ولكن هذا الأخير وثب نحوه ، وكال له لكمة فى أنفه ، أودعها كل قوته ، فانتزعه من فوق دراجته ، وألقى به أرضًا فى عنف ، فى نفس اللحظة التى بلغ فيها (سيرجى) باب المنزل الصغير ، و ...

ودوى الانفجار ...

فى قوة ...

* * *

أشار مدير المخابرات الأمريكية ، إلى خريطة العالم الكبيرة ، فى المكتب البيضاوى للرئيس الأمريكى ، وهو يقول :

ـ إننا نعلم ، على الرغم من مصرع (روميرو) أن هذه الجزيرة الصغيرة من الجزر الأندونيسية ، والتى لا يزيد تعداد سكانها عن أربعمائة نسمة ، هى موقع إتمام الصفقة ، ولكن مصرع (روميرو) حجب عنا معلومة أساسية ، وهى متى ؟!... متى ينبغى أن تتم الصفقة ؟!...

تبادل وزير الدفاع ، ومستشار الأمن القومى نظرة صامتة ، وقد رسم الإرهاق الشديد لوحته القاسية على وجهيهما ، فى حين تساءل الرئيس فى توتر :

ـ وماذا تقترح من إعادة الشرح هذه ؟!

أجابه مدير المخابرات فى سرعة :

ـ أن نقوم بالجزء الخاص بنا من الصفقة .

التفت إليه وزير الدفاع ومستشار الأمن القومى بحركة حادة ، ولكن دون أن ينبسا ببنت شفة ، فى حين بدا الرئيس عصبيًا ، وهو يقول :

ـ أى اقتراح هذا ؟!... هل نعد عشرة مليارات ، وترسلها إلى جزيرة فى حجم ضيعة متوسطة ، دون أية ضمانات مسبقة ؟! ... كيف يمكنك إقناع دافعى الضرائب بأمر كهذا ؟!

مال مدير المخابرات نحوه ، قائلاً :

ـ وكيف يمكنك إقناعهم بالأمر نفسه ، لو تمت الصفقة على نحو صحيح ، يا سيادة الرئيس ؟!

لوَّح الرئيس بيده ، وهو يقول فى حدة :

ـ على الأقل سيكون لدينا عندئذ سلاح جديد ، يضمن لنا الحفاظ على زعامة العالم الجديد ، ويبرر النفقات ، أمام الكونجرس على أقل تقدير .

اعتدل مدير المخابرات ، وهو يتطلع إلى الرئيس فى صمت ، دون أن تشف ملامحه عما يعتمل فى أعماقه ، ولاذ بالصمت لحظات ، قبل أن يقول :

ـ فى هذه الحالة ...

قبل أن يتم عبارته ، ارتفع رنين الهاتف الخاص لوزير الدفاع ، فالتفت إليه الكل ، وهو يلتقط هاتفه فى سرعة ، ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلع إلى شاشته ، فهتف به الرئيس فى حدة :

ـ لماذا لا تجيب ؟!

أجابه وزير الدفاع فى توتر :

ـ إنه رقم مجهول ، وهواتفنا مجهَّزة ، بحيث ...

قاطعه مدير المخابرات فى سرعة :

ـ أجب بسرعة ، واجعل الصوت مسموعًا للجميع .

أسرع وزير الدفاع بضغط زر الإجابة ، وزر الصوت المسموع فى آن واحد ، فارتفع من الهاتف صوت آلى رقمى ، يقول :

ـ (واو أوزاكا) ... بديل (روميرو) .

ثم انقطع الاتصال دفعة واحدة ، فوثب مدير المخابرات نحو وزير الدفاع ، وانتزع الهاتف من يده ، قائلاً :

ـ أعطنى هذا الهاتف .

نظر إليه وزير الدفاع فى دهشة مستنكرة ، فأضاف :

ـ لا بد وأن تقوم أقسامنا الفنية بفحصه فورًا ، فلربما يمكنها تحديد جهة الاتصال .

نقل الرئيس نظـــره بينهما فى توتر ، فى حيـــن اندفع مستشار الأمن القومى يقول :

ــ من (واو أوزاكا) هذا ؟!

أجابه مدير المخابرات ، وهو يجرى اتصاله بأحد رجاله ، ممن يقفون خارج مكتب الرئيس :

ــ ستعلم خلال لحظات .

وأضاف وهو يندفع نحو باب المكتب :

ــ المهم الآن أنه بديل (روميرو) .

اعتدل الرئيس ، هاتفًا :

ــ الصفقة ستكتمل إذن .

أجابه مدير المخابرات ، وهو يناول الهاتف لأحد رجاله :

ــ ألم أقل لك يا سيادة الرئيس ؟!... سيجدون سبيلاً لهذا .

قالها ، وألقى أوامره لرجله ، ثم عاد يغلق الباب ، وهو يلتفت إليهم ، فى نفس الوقت ، الذى قال فيه مستشار الأمن القومى ، فى شىء من العصبية :

ــ كل ما علينا إذن ، هو أن نجلس فى انتظار ظهور (أوزاكا) هذا .

أشار مدير المخابرات بيده ، قائلاً :

ــ انظر إلى الجانب الإيجابى للأمر يا رجل .

وشد قامته فى اعتداد ، مضيفًا :

ــ هذا يعنى أنهم ما زالوا سيعقدون الصفقة معنا .

غمغم الرئيس ، وهو يتراجع فى مقعده :

ــ هذا صحيح .. إلى حد ما .

كان مدير المخابرات يهم بقول شىء ما ، عندما ارتفع رنين هاتفه الخاص بدوره ، فالتقطه فى سرعة ، وأجاب بعد نظرة سريعة على شاشته :

ــ ماذا لديك ، يا كولونيل (بورتر) ؟!

تألقت عيناه ، وهو يستمع إلى رجله ، الذى أرسله على رأس فريق من المحترفين إلى (باريس) ، قبل أن يقول فى اقتضاب :

ــ عظيم .

ثم أنهى المحادثة ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة ، وهو يقول :

ــ أخبار إيجابية أخرى أيها السادة .

التفت إليه الكل فى لهفة وترقب ، فأضاف ، وابتسامته تزداد ظفرًا :

ــ تم القضاء بالفعـــل على الخطـــر المصرى ... على (أدهم صبرى) .

وكانت مفاجأة جديدة ...

وعنيفة .

* * *

الفصل الحادى عشر

« ستهاجم .. »

نطقتها (منى) فى حزم ، وهى تجذب مشط مسدسها فى قوة ، فالتفت إليها (علاء) فى دهشة بالغة ، جعلتها تستطرد فى حدة :

ـ لن نجلس هنا ساكنين ، ونتركه يواجه كل هذا وحده .

صمت (علاء) لحظات ، وهو يعقد حاجبيه فى شدة ، ثم أدار محرك السيارة ، وسحب مسدسه وانطلق ...

كان خمسة من الرجال العشرة ، الذين اقتحموا المكان ، قد صعدوا مع قائدهم ، الكولونيل (ريتشارد بورتر) ، إلى مكمن (جيرارد فليمون) ، فى حين بقى خمسة آخرون لتأمين المكان ، وحماية رفاقهم ...

ومع الصرير العنيف ، الذى أصدرته إطارات سيارة (علاء) ، وهى تنطلق نحوهم ، التفت الرجال الخمسة إليها ، وارتفعت فوهات أسلحتهم ، المزوَّدة بكواتم الصوت نحوها ...

وفى نفس اللحظة ، انطلقت من السيارة رصاصتان ...

رصاصة أطلقها (علاء) ، اخترقت يد أحد الرجال الخمسة ، وأجبرته على إفلات سلاحه ، وهو يطلق صرخة ألم مدوية ...

ورصاصة أطلقتها (منى) ، لتنسف ركبة آخر ، وتسقطه أرضًا ، وهو يمسك ركبته المصابة ، ويتأوه فى قوة ...

أما رصاصات الثلاثة الآخرين ، فقد انطلقت نحـو السيارة وقائدها مباشرة ...

كان تصويبهم ـ كمحترفين ـ شديد الدقة والبراعة ، وأصابت رصاصاتهم كلها زجاج السيارة الأمامى ...

حيث يجلس (علاء) بالتحديد ...

ولأن السيارة مصفحة ، وزجاجها مضاد للرصاص ، فقد ارتدت الرصاصات عن الزجاج ، تاركة فيه إصابات عنكبوتية المظهر ، لم تمنع (علاء) من مواصلة الانطلاق بالسيارة ، ليرتطم برجل ثالث فى عنف ، ويواصل طريقه لعشرة أمتار ، تلاحقه رصاصات الرجلين المتبقيين ، والتى ارتطمت كلها بجسم السيارة ، وزجاجها الخلفى ، تاركة الآثار العنكبوتية نفسها على الزجاج الخلفى ، فضغط (علاء) فرامل السيارة نصف ضغطة ، مما جعلها تدور حول نفسها ، وإطاراتها تطلق صريرًا قويًّا ، قبل أن ينطلق بها مرة أخرى ، نحو الرجلين المتبقيين ...

وبينما تستعد (منى) لإطلاق رصاصاتها نحوهما ، لمحت فى الطابق العلوى زميلاً للرجلين ، يحمل على كتفه مدفعًا صاروخيًّا ، يصوبه نحو سيارة (علاء) ...

وانعقد حاجباها بمنتهى الشدة والتوتر ...

فالسيارة مصفحة ضد الرصاصات ...

ولكن ليس ضد الصواريخ ...

وإطلاق ذلك الصاروخ نحوها ، سيعنى نسفها نسفًا ...

دون أدنى شك ...

وقبل أن تكتمل أفكارها ، انطلق الصاروخ بالفعل ...

الصاروخ القادر على تدمير السيارة ...

تمامًا ...

* * *

لأول مرة ، منــذ زمن طــويل ، رست سفينة صغيرة ، فى ذلك الميناء البدائى ، لتلك الجزيرة الصغيرة ، مــن الجزر الإندونيسية ...

وفور رسوها ، راح بحارتها ينزلون منها معدات تصوير سينمائى ، جذبت انتباه واهتمام سكان الجزيرة ، وجعلت العديدين منهم يحتشدون عند الميناء ، مراقبين ما يحدث ، وممنين أنفسهم بفترة من الرخاء ، مع قدوم الزائرين ، الذين يحتاجون إلى كل سبل الإعاشة بالتأكيد ...

ولم تمض نصف الساعة ، حتى اكتظ المكان بكل من سعى للاستفادة من هذا التغيير ، الذى بدا لسكان الجزيرة أشبه بفرصة ، لا يمكن تعويضها ...

رجال أمن الميناء الصغير ...

الباعة الجائلون ...

أصحاب متجر المأكولات الوحيد بالجزيرة ...

وكل من يعرض خدماته من سكانها ...

ومع الأجور السخية التى عرضها ركاب سفينة الإنتاج السينمائى ، راح الكل يتعاونون ؛ لنقل معدات التصوير وتصب الخيام وإحاطة معسكر السينمائيين بسياج بدائى بسيط ؛ لمنع المتطفلين ...

وفى حماس ، راح المخرج المصاحب للفريق يلقى تعليماته للمصورين ، فى نفس الوقت الذى انشغل فيه مدير الإنتاج فى تقديم التصاريح الرسمية لرجال الأمن قليلى العدد ، مع الحرص على إضافة بعض العطايا والمكافآت ، التى دفعت رجال الأمن إلى التعامل مع الفريق ، بكل حماس وتعاون ...

واحد فقط ، من سكان الجزيرة الصغيرة ، التى لا يزيد تعداد سكانها الأصليين عن أربعمائة فرد ، لم يشارك فيما يحدث ، واكتفى بالمراقبة بعض الوقت ، قبل أن يبتعد عن المكان ، ويتجه إلى منزله الصغير البدائى ، وهناك أحكم إغلاق منزله ، ثم أخرج جهاز كمبيوتر حديث للغاية ، لا يتناسب مع رقة حال منزله ، وبدأ فى إرسال رسالة خاصة ...

خاصة جدًّا ...

وفى مقرها السرى وسط جبال (سويسرا) التى غطتها الثلوج ، اندفع حارس (سونيا) الشخصى (رودلف) نحوها ، هاتفًا :

ــ وصلتنا رسالة عاجلة ، من تلك الجزيرة الإندونيسية .

أشعلت سيجارتها الرفيعة فى هدوء ، وهى تسأله :

ــ ماذا جاء بها ؟!

أدهشه هدوؤها ، فواصل فى انفعال :

ــ طاقم تصوير وصل إلى الجزيرة ، على نحو مفاجئ .

نفثت دخانها بنفس الهدوء ، قبل أن تقول :

ــ أعلم هذا .

تضاعفت دهشته مع رد فعلها ، فقال فى توتر :

ــ ماذا لو أن الأمريكيين أرسلوهم ، كوسيلة لــ ...

قاطعته فى هدوء :

ــ لم يرسلوهم .

حدّق فيها فى دهشة ، وتساءل فى ارتباك :

ــ هل تعلين يا سيدتى أن ...؟!

قاطعته فى صرامة ، وهى تنفث دخان سيجارتها :

ــ ما أخبار (أوزاكا) ؟!..

أدرك أنها ترفض خوض الأمر ، فتنحنح فى توتر ، مجيبًا :

ــ لقد استقل الطائرة منذ قليل ، وسيصل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، خلال ساعات ...

تطلعت إلى الثلوج أمامها ، وهى تقول فى خفوت :

ــ عظيم .

غمغم فى حذر :

ــ وهل ...

قاطعته فى صرامة :

ــ إنك تفسد لحظة استرخائى يا (رودلف) .

ارتبك أكثر ، وهو يتراجع مغمغمًا :

ــ معذرة يا سيدتى ، ولكننى رأيت أن ...

بدت مقاطعتها شديدة الصرامة هذه المرة ، وهى تقول :

ــ هل ستواصل إفسادها ؟!

أسرع (رودلف) يغادر المكان ، دون أن يضيف حرفًا واحدًا ، فى حين استرخت هى على أريكة وثيرة ، وتألقت عيناها فى ظفر ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى استمتاع ...

منتهى الاستمتاع ...

* * *

لم يدر (إيفان تورجنيف) كم بقى فاقد الوعى ، إلا أنه ، وعندما استعاد وعيه ، كان أول ما وقع بصره عليه ، هو وجه (سيرجى كوريوف) البارد القاسى ، والذى يقف على بعد متر واحد منه ، وقد أحاطت بجبهته ضمادة كبيرة ، زادت من صرامة ملامحه ، وهو يقول ، فى صوت أشد برودة من وجهه :

ــ من الجيد أنك قد استعدت وعيك بهذه السرعة ... لقد بذل الأطباء هنا جهدًا كبيرًا ؛ ليعيدوك إلى وعيك ، فى أقصر وقت ممكن .

كان (إيفان) يشعر بآلام مبرحة ، فى كل مكان فى جسده ، وعلى الرغم من هذا فقد ارتجف جسده فى رعب ، وهو يتساءل ، فى صوت انتقلت إليه الارتجافة :

ــ من أنت ؟!

تجاهل (سيرجى) السؤال تمامًا ، وهو يسأله بكل القسوة :

ـ ما التجارب التى كنتم تجرونها فى (سيبريا) ؟!

قفز رعب (إيفان) إلى كل خلية فى جسده ، وأشاح بوجهه ، وهو يهتف فى تخاذل :

ـ أشعر بآلام مبرحة ... ألا توجد مسكنات فى هـذا المستشفى ؟!

أجابه (سيرجى) بنفس القساوة :

ـ هذا ليس مستشفى ، ولا توجد لدينا هنا مسكنات ، بل فقط عقاقير تضاعف من الآلام ، إلى حد لا يطيقه بشرى .

هتف (إيفان) ، وهو ينكمش على فراشه :

ـ هذا ليس آدميًا .

أخرج (سيرجى) محقنًا من جيبه ، وقال بنفس الصرامة الباردة :

ـ هذا هو المقصود بالتحديد ... وهذا المحقن ملوّث ، وليس معقمًا ، ولا يحوى سوى عشرة مليمترات من الهواء ، الكافى لصنع فقاعة كبيرة فى شرايينك ، تصل خلال دقيقة واحدة إلى قلبك ، و ...

قاطعه (إيفان) فى رعب :

ـ ماذا تريد ؟!

كشف (سيرجى) ذراعه ، وسحب الهواء فى المحقن ، وهو يجيب فى قسوة :

ـ لقد أخبرتك .

قالها ، وغرس إبرة المحقن فى ذراع (إيفان) بالفعل ، فحاول هذا الأخير أن يبعد ذراعه ، إلا أنه أدرك ، أنه مقيّد إلى فراشه فى إحكام ، فصرخ بكل الرعب :

ـ الرحمة .

بدأ (سيرجى) يدفع الهواء بالفعل ، فى شرايين (إيفان) ، وهو يكرر سؤاله :

ـ ما نوع التجارب ؟!

صرخ (إيفان) :

ـ سأخبرك يا سيدى ... سأخبرك كل ما تريد معرفته .

وفى كلمات مرتجفة ، وجسد أكثر ارتجافًا ، راح يشرح له كل شىء ...

وكلما توغل فى الشرح ، ازداد انعقاد حاجبى (سيرجى) ، حتى انتهى من شرح كل ما لديه ، فصـمت (سيرجى) لحظـات ، ثم قال فى قسوة أكثر :

ـ من حسن حظنا ، أنك كنت بعيدًا عن العبوة بما يكفى ، عندما حدث الانفجار ، مما منحنا الفرصة ، للحصول منك على ما لديك .

هتف (إيفان) فى انهيار :

ـ لقد أخبرتك كل ما لدى ... أقسم بأبى وأمى على هذا ... انتزع هذا المحقن من ذراعى ... أرجوك ... الرحمة .

تطلع إليه (سيرجى) لحظات ، فى صمت وقسوة وصرامة ، قبل أن يقول :

ـ ولكن لدينا مشكلة كبيرة فى هذا الشأن .

عاد (إيفان) يكرر ، فى انهيار تام :

ـ لقد أخبرتك كل ما أعرفه ... أقسم لك ... أقسم لك .

تابع (سيرجى) ، وكأنه لم يسمعه :

ـ لقد أعلنا مصرعك بالفعل ... فهل تريدنا أن نبدو كاذبين .

ثم دفع ما تبقى من هواء فى عروق (إيفان) ، الذى اتسعت عيناه عن آخرهما ، فى مزيج من الرعب والألم ، وانطلقت من حلقه شهقة متحشرجة ، و(سيرجى) يضيف :

ـ ولكن اطمئن ... سنقيم لك جنازة لائقة ، سيفخر بها والداك .

تواصلت شهقات (إيفان) ، وكادت عيناه تقفزان من محجريهما ، فى حين ظلت ملامح (سيرجى) تحمل الصرامة والبرودة والقسوة ...

كل القسوة ...

* * *

لحظة واحدة ، كانت الفيصل بين الحياة والموت ...

لحظة تكفى ليضغط ذلك الرجل ، فى الطابق الثانى من وكر (جيرارد فليمون) ، زناد مدفعه الصاروخى ...

لحظة ، ينطلق فيها الصاروخ ، ويصيب سيارة (علاء) ، التى تجلس معه بداخلها (منى) ...

وينسفها نسفًا ...

ولقد اختلج قلب (علاء) و(منى) فى عنف ، وهما ينتظران هذه اللحظة ...

ولكن أية لحظة فى الوجود قد تأتى ...

وقد لا تأتى ...

وكانت أصابع ذلك الرجل قد بدأت تعتصر زناد المدفع الصاروخى بالفعل ...

وكمحترف على أعلى مستوى ، لم يكن خطأ التصويب واردًا ...

ولكن تلك اللحظة الحاسمة لم تأت ...

ففى تلك اللحظة بالتحديد ، ظهر (أدهم) ...

انقض فجأة على حامل المدفع الصاروخى ، وكال له لكمة فى منتصف عموده الفقرى ، دفعته إلى الأمام ، وأمالت فوهة مدفعه الصاروخى إلى أعلى ...

وبحركة غريزية ، ضغط الرجل زناد المدفع ، وهو يطلق صرخة ألم قوية ...

وانطلق الصاروخ الصغير ...

انطلق إلى أعلى ، ولمسافة طويلة ، قبل أن يبدأ مرحلة الهبوط ، ويسقط وسط شارع بعيد ، ويدوى انفجاره على بعد كيلومترين من مقر (جيرارد فليمون) ...

وفى الزمن الذى استغرقه الصاروخ ، ما بين انطلاقه وسقوطه ، تلقى مطلقه لكمة أخرى ، فى جانب وجهه ، كانت من القوة ، حتى أنها ألقته

جانبًا لمترين كاملين ، ليرتطم بالجدار فى عنف ، ثم يرتد عنه ، لتستقبله ركلة من قدم (أدهم) فى أنفه ، أسقطته فاقد الوعى كجوال من حجر ...

وقبل أن يستوعب الرجلان الباقيان عند باب وكر (جيرارد فليمون) ما حدث ، كانت سيارة (علاء) تضرب أحدهما فى عنف ، ورصاصات (منى) تحطم ركبة الآخر فى ذات اللحظة ، وهى تهتف فى انفعال :

ـــ إنه (أدهم) .. إنه حى .

مع هتافها ، وثب (أدهم) من الطابق الثانى ، ليهبط فوق سطح سيارة (علاء) مباشرة ، وهو يهتف بلهجة آمرة :

ـــ انطلق .

ودون مناقشة ، أو إضاعة لحظة واحدة ، أطاع (علاء) الأمر.. وانطلق ...

وفى سرعة توحى بأنها تعرف قدرات زميلها جيدًا ، فتحت (منى) النافذة المجاورة لها ، فى حين تشبث (أدهم) بجزء بارز من إطار النافذة حتى يحمى نفسه من السقوط ، ثم دار بجسده فى رشاقة مدهشة ؛ ليدفع جسده كله عبر النافذة ، التى فتحتها (منى) ، ويهبط على المقعد الخلفى للسيارة ، وهى تهتف به فى لهفة :

ـــ ولكن كيف ...

قاطعها فى حزم :

ـــ فيما بعد يا (منى) ... فيما بعد .

انطلقت خلفهم رصاصات (ريتشارد بورتر) والاثنين من رجاله ، ودوى صوت ارتطامها بجسم السيارة المصفح ، وهذا الأخير يصرخ فى غضب :

ـــ أوقفوه ... لا تسمحوا له بالفرار .

واصل (علاء) انطلاقه بالسيارة ، بأقصى سرعة يسمح بها محركها ، والتم فى أعماقه رغبة عارمة ، فى سؤال (أدهم) عما حدث هناك ، فى شقة (فليمون) ، واكتفى بأن تساءل :

ـــ إلى المنزل الآمن ؟!

أجابه (أدهم) فى حزم :

ـــ إلى (كاليه)[*] .

ومرة أخرى ، أطاع (علاء) دون مناقشة ، وهو يتساءل فى أعماقه نفس السؤال ، الذى يكاد يلهب عقله وعقل (منى) ...

ماذا حدث هناك ، فى شقة (فليمون) ؟!...

ماذا ؟!..

* * *

كما يحدث فى أفلام السينما ، علينا أن نعود بالأحداث قليلاً إلى الوراء ؛ حتى يمكننا إجابة ذلك السؤال ، الذى يلهب عقل (علاء) و(منى) معًا ...

(*) كاليه : مدينة بشمال (فرنسا) ، وميناء على مضيق (دوفر) ، خضعت للاحتلال الإنجليزى (1347 - 1558م) وعند (إدوارد الثالث) ملك (إنجلترا) بحرقها ، إذا ضحى ستة من أبرز أهلها بحياتهم مقابل هذا ، فتقدم عمدتها وخمسة من كبارها أنفسهم ، مما أثر فى الملك ، وتدخلت قرينته الملكة (فيليبا) ، فعفا عنهم ، وهى [illegible] فى الحرب العالمية الثانية .

نعـود إلى تلك اللحظـة ، التى اقتحم فيها (بورتر) ورجاله وكر (فليمون) ....

لقد اقتحم (بورتر) ، مع خمسة من رجاله ، شقة (فليمون) بمنتهى العنف ، بعد أن نسفوا كل الأبواب المصفحة فى طريقهم ...

حطموا الباب الأخير ، واندفعـوا داخل الشقة الفاخرة ، وهم يشهرون أسلحتهم فى تحفز كامل ؛ لمواجهة أية مقاومة داخلها ...

ولكن الشقة بدت لهم خالية تمامًا ...

لم تواجههم داخلها أية مقاومة على الإطلاق ...

ولم يجدوا أمامهم سوى (فليمون) الفاقد الوعى على مقعده ، فانقض عليه (بورتر) ، وجذبه من سترته فى قوة ، وهو يصرخ فيه :

ـــ أين المصرى يا رجل ؟!

انتفض جسد (فليمون) ، وهو يستعيد وعيه ، وملأ الذعر ملامحه ، وهو يصرخ ، متشبثًا بسترة (بورتر) :

ـــ من أنتم ؟!

دفع (بورتر) يده بعيدًا ، وصوّب إليه سلاحه صارخًا :

ـــ أنا الذى يسأل هنا يا هذا .

بدا (فليمون) أكثر ذعرًا ، مما ينبغى أن يبدو عليه زعيم الجريمة الباريسية ، وهو يهتف :

ـــ لست أدرى !!... لقد أفقدنى الوعى ، و ...

فقاطعه (بورتر) فى شراسة :

ـــ ماذا طلب منك ؟!... ماذا أراد ؟!

هتف (فليمون) فى عصبية :

ـــ لا تضيعوا الوقت ... ابحثوا عنه أولًا ، قبل أن يفر ... لقد أتى من السطح ، وربما ..

قاطعه (بورتر) بإشارة صارمة من يده ، ثم أشار باليد التى تحمل المسدس إلى رجاله الخمسة ، فاندفعوا فى أرجاء المنزل ؛ للبحث عن (أدهم) ، فى حين اتخذ اثنان منهما طريقهما إلى خارج المنزل ؛ لمواصلة الصعود إلى السطح ، الذى يحتمل لجوؤه إليه ...

وفى شراسة أكثر ، عاد (بورتر) يصوب مسدسه إلى رأس (فليمون) ، قائلًا :

ـــ ربما كنا هنا للقضاء على (أدهم صبرى) هذا ، ولكن ما يهمنا أكثر هو معرفة ما الذى كان يسعى إليه .

حدّق (فليمون) فى فوهة المسدس لحظة ، ثم قال فى بطء :

ـــ جميل منك أن أوضحت .

لجزء من الثانية ، لم يستوعب (بورتر) معنى ما قاله (فليمون) !!..

وفى الجزء التالى من الثانية ، ارتفعت يد (فليمون) فى سرعة مدهشة ؛ لتقبض على معصم (بورتر) ، وتدفعه مع فوهة مسدسه المزوّد بكاتم للصوت بعيدًا ...

وفي الجزء الثالث والأخير ، ارتفعت قبضة (فليمون) اليسرى ، لتهوى على فك (بورتر) بلكمة كالقنبلة ، و(فليمون) يضيف في لهجة حملت الكثير من السخرية :

ـ وجميل أكثر ، أنك تركتنا وحدنا هنا .

وعلى الرغم من ألم اللكمة ، كان اتساع عيني (بورتر) مبعثه الدهشة ...

هذا لأن الصوت ، الذي خرج من بين شفتي (فليمون) ، لم يكن يشبه صوته الأصلي على الإطلاق ...

بل كان صوت (أدهم) ...

(أدهم صبري) ...

ولأنه محترف ، حاول (بورتر) تجاوز الألم والدهشة ، بأقصى ما يستطيع من سرعة ...

ولكن ، وعندما يتعلق الأمر بالسرعة ، فلا أحد في أي جهاز مخابرات في العالم يمكن أن يفوق رجلنا ..

رجل المستحيل ...

ففي سرعة مذهلة وجـد (بورتر) عنقـه محاطًا بذراع (أدهم) الفولاذية ، تعتصره في قوة ، ومسدسه في يد هذا الأخير ، يصوبه إلى رأسه ، وهو يقول في سخرية :

ـ لو أن ما قرأته في ملفك صحيح يا كولونيل (ريتشارد بورتر) ، فستكون قد وضعت اسم رئيسك على قائمة الاتصال السريع ، على هاتفك المحمول ، تحت رقم واحد .

حاول (بورتر) أن يقاوم ، إلا أن مؤخرة رأسه تلقت ضربة من كعب مسدس (أدهم) ، جعلته يفقد توازنه ، وسيطرته على أطرافه ...

ولم يدر كيف ، ولكنه فوجئ بيد (أدهم) ، التي كانت تحمل المسدس ، وقد استبدلته بهاتفه هو المحمول ، والذي التقطه منه (أدهم) ، عندما تشبث به ، وهو في شخصية (فليمون) ، ورآه يضغط زر الاتصال السريع رقم واحد ، قبل أن يقول عبره ، مقلدًا صوته ولهجته ، على نحو مذهل :

ـ تم القضاء على الهدف ... انتهى أمر (أدهم صبري) .

قالها ، ثم ألقى الهاتف المحمول أرضًا ، وسحقه بضربة من قدمه ، قبل أن يعود المسدس إلى قبضته ، وهو يقول في صرامة مخيفة :

ـ والآن صرنا وحدنا تمامًا .

حاول (بورتر) أن يهتف في صوت مختنق :

ـ لن تنجو من هذا .

أجابه (أدهم) في صرامة :

ـ لا تقلق نفسك بهذا الشأن ... ما ينبغي أن تقلق بشأنه قطعًا ، هو أنني قد كشفت سر ما تسعون خلفه .

قال (بورتر) في غضب ، بنفس الصوت المختنق :

ـ السر وحده لا يكفي .. ما زال السلاح الجديد قادرًا على محو مدنكم ، باتصال هاتفي بسيط .

استعاد (أدهم) في سرعــة بقايا الهاتف المحمـــول ، التي تم العثور عليها ، في موقع انفجار الواحة ، إلا أنه أخفى كل هذا في أعماقه ، وهو

يعتصر عنق (بورتر) أكثر ، قائلاً بنفس الصرامة التى تحمل رنة ساخرة مستفزة :

ــ هذا لو نجحتم فى إدخاله إلى البلاد .

هتف (بورتر) فى عصبية مختنقة :

ــ وهل ستفحصون كل سائل يدخل إلى بلادكم ؟!

صمت (أدهم) لحظة ، استوعب خلالها الأمر كله ، قبل أن يقول فى صرامة ، تلاشت منها السخرية تمامًا :

ــ ربما تكــون خبيرًا فى العمليــات الخاصــــة يا كولونيل (بورتر) ، ولكنك فاشل تمامًا فى أعمال المخابرات .

قرن هذا بضربة ثانية من كعب مسدس (بورتر) على مؤخرة عنق هذا الأخير ، الذى فقد توازنه تمامًا ، وسقط على المقعد ، شبه فاقد الوعى ...

وفى سرعة مدهشة ، انتزع (أدهم) قناع (فليمون) ، وألقاه فوق (بورتر) ، فى نفس الوقت الذى تعالى فيه صرير إطارات سيارة (علاء) ، وهى تستدير لمواجهة آخر رجلين من رجال (بورتر) ، عند مدخل منزل (فليمون) ...

وبنظــرة واحــدة عبر النافذة أدرك ما يحدث ، ولمح فوهة المدفع الصاروخى تطــل من نافذة الحجــرة المجاورة له ، والتى انتزع رجل (بورتر) قضبانها ؛ لكى يصوب إلى سيارة (علاء) و(منى) ...

ودون إضاعة ثانية واحدة ، اقتحم (أدهم) الحجرة المجاورة ...

وكان ما سبق ...

استعاد ذهن (أدهم) هذا ، دون أن يفصح عنه ، وهو يجلس داخل سيارة (علاء) ، التى تنطلق نحو (كاليه) ، و(علاء) يسأله ، مقاومًا فضوله الشديد :

ــ أهدفنا التالى فى (كاليه) ؟!

أجابه (أدهم) فى حزم :

ــ بل الوسيلة يا (علاء) ... الوسيلة لكى نبلغ الهدف .

غمغمت (منى) فى توتر :

ــ وهل علمت طبيعة الهدف الأساسى ؟!

صمت لحظة ، قبل أن يجيبها بنفس الحزم :

ــ إنه نفس الهدف ، الذى نسعى خلفه دومًا .

وحمل صوته حزمًا يمتزج بالتوقير الشديد ، وهو يضيف :

ــ (مصر) يا (منى) .. أمن (مصر) .

وواصلت السيارة انطلاقها ، سعيًا وراء الهدف ...

أخطر هدف ...

على الإطلاق .

* * *



الفصل الثاني عشر

« سائل متفجر ، يشعله رنين هاتف ؟!... »

نطق مدير المخابرات المصرية العبارة ، في دهشة شديدة ، وهو يقرأ تلك التقرير السري العاجل ، الذي أرسله (أدهم) مشفرًا ، عبر قناة اتصال خاصة ، ثم تراجع في مقعده ، ورفع عينيه إلى نائبه ، الذي أتاه بالتقرير فور وصوله ، مكملاً ، في صوت لم تفارقه الدهشة بعد :

ــ لو صحّ هذا ، فنحن أمام أخطر سلاح عرفته البشرية ، في تاريخها كله .

وافقه نائبه بإيماءة من رأسه ، وقال في توتر ، لم يستطع إخفاءه :

ــ ولو أن هذا ما محا واحة كاملة من الوجود ، فالخطر أكبر مما يمكن تصوره ، يا سيادة الوزير[*] ؛ فلا توجد وسيلة واحدة لكشف وجود السؤال مع القادمين ، باستثناء التفتيش الذاتي والشخصي لكل قـادم ، خاصـة وأن البقايا الزجاجية ، التي تم العثور عليها ، في موقع تفجير الواحة ، توحي بأنها بقايا قنينة صغيرة !!.. ولو أن كمية تحويها قنينـة صغيرة ، قد أحدثت كل هذا الدمار ، فما الذي يمكن أن تحدثه زجاجة كاملة من ذلك السائل العجيب ، الذي يشير إليه العميد (أدهم) ؟!

غمغم المدير ، في توتر مماثل :

ــ دمار شامل .

(*) مدير المخابرات العامة المصرية على درجة وزير .

وصمت لحظة ، حاول خلالها هضم توتره الشديد ، قبل أن يضيف :

ــ ولكـن ما أعلمـه عن (ن-1) ، هـو أنه لن يرسـل معلـومة ، إلا لو كانت مؤكّدة .

تمتم نائبه :

ــ هذا صحيح .

ثم أشار بسبّابته ، مستطردًا :

ــ ولكن السؤال الأخطر هنا : من يملك مثل هذا السائل ؟!.. ولماذا نسف واحتنا ؟!

أجابه المدير على الفور :

ــ لإثبات قوة السائل وفاعليته ، أو دراسة مدى تأثيره ، وما يمكن أن يحدثه من دمار ... وهذا جواب السؤال الثاني فحسب .

تمتم نائبه ثانية :

ــ مثلما حدث مع قنبلتي (هيروشيما) و(ناجازاكي) ، مع نهاية الحرب العالمية الثانية[*] .

أشار إليه المدير بيده ، قائلاً :

(*) الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945م) : حرب دارت بين دول المحور (ألمانيا – اليابان – إيطاليا) ، والحلفاء (إنجلترا – أمريكا – فرنسا [illegible]) ، واستسلمت [illegible] دون قيد أو شرط في (7 مايو 1945م) ، واستسلام اليابان في (2 سبتمبر 1945م) .

ــ بالضبط ... لم تكن هناك فائدة من امتلاك سلاح جبار ، دون أن يعلم العالم بوجوده ... ولهذا ألقى الأمريكيون قنبلتهم الذرية على مدينة (هيروشيما) اليابانية ، فى السادس من أغسطس عام 1945م ؛ ليخبروا العالم أنهم قد صاروا يمتلكون سلاحًا جبارًا ، على الرغم من أن هزيمة (اليابان) كانت وشيكة ، حتى بدون استخدامه ... بل إنهم ألقوا بعدها قنبلتهم الثانية ، على مدينة (ناجازاكى) ، فى التاسع من أغسطس من العام نفسه ، أى بعدها بأيام فحسب ؛ فقط لأنهم صنعوا قنبلتين ، تعتمد إحداهما على الانشطار النووى ، والأخرى على الاندماج النووى ، وقتلوا مئات الآلاف من البشر ، ومحوا مدينتين من الوجود ، فقط ليقارنوا بين تأثير القنبلتين ... لهذا اختاروا مدينتين ، لهما نفس المساحة وعدد السكان تقريبًا(*) .

مرة أخرى وافقه نائبه بإيماءة من رأسه ، ثم قال فى اهتمام :

ــ الفارق بين الحالتين ، هو أن العالم كله كان يعلم أن (أمريكا) هى التى تمتلك السلاح الجبار ، الذى استخدمته لتمحو (هيروشيما) و(ناجازاكى) من الوجود ، أما الآن ، فنحن نتساءل : من يمتلك السلاح الجبار الجديد ؟!..

صمت مدير المخابرات المصرية لحظات ، قبل أن يجيب فى حزم ، ما زالت تفوح منه رائحة التوتر :

ــ وهذا ما يسعى إليه (ن-1) .

(*) حقيقة تاريخية

لم يحاول نائبه التعليق هذه المرة ، ولا حتى طرح ذلك السؤال المخيف ، الذى سيطر على عقله ... ترى هل سينجح (أدهم صبرى) ، فى إجابة السؤال ، وإنقاذ العالم من سلاح دمار شامل جديد ومخيف ؟! ...

هل ؟!..

* * *

« ما من إجابة !!... »

قالها مدير المخابرات الأمريكية فى توتر ، جعل الرئيس الأمريكى يعقد حاجبيه فى غضب ، وهو يقول فى حدة :

ــ أهذا كل ما توصلتم إليه ؟!...

كان وزير الدفاع الأمريكى ومستشار الأمن القومى يرمقان مدير المخابرات بنظرة قاسية ، جعلت هذا الأخير يجيب فى توتر شديد :

ــ الجهة التى أرسلت الرسالة استخدمت تكنولوجيا شديدة التعقيد ، تبادلت الرسالة الرقمية عبر أكثر من ألف نقطة اتصال قبل أن تصل إلى هاتف وزير الدفاع .

سأله وزير الدفاع فى عصبية :

ــ أليست لدينا تكنولوجيا مماثلة ؟!

أجابه مدير المخابرات فى حدة :

ــ بالتأكيد ، ولكنهم استخدموا بعض أقمارنا الصناعية ، عبر شفرات خاصة ، يتكون بعضها من ثلاثة آلاف رمز ، وهذا يحتاج إلى أسابيع لحلها ، حتى باستخدام أكثر أجهزة الكمبيوتر تطورًا ، ولسنا نملك كل هذا الوقت .

قال مستشار الأمن القومى فى حدة أكثر :

ــ هى مشكلة وقت إذن ؟!...

هم وزير الدفاع بقول شىء آخر ، لولا أن قال الرئيس فى حزم :

ــ هذا صحيح ... وهذا مالا نملكه .

كلماته ألجمت كل الألسنة ، وأدارت إليه كل العيون ، ولقد بدا للجميع كم يبدو مرهقًا ، وهو يضيف :

ــ ولهذا لن نضيع الوقت فى صب غضبنا على مدير المخابرات ، الذى أرى أنه وعلى الرغم من كل شىء ، يبذل قصارى جهده ، مثل كل واحد منا ؛ لنتجاوز هذه الأزمة ... الرسالة لم يمكن تحديد مصدرها .. فليكن .. لقد أخبرتنا باسم المفاوض الجديد ، وهذا يكفى فى المرحلة الحالية .

اندفع مدير المخابرات يقول :

ــ (واو أوزاكا) هو رجل مخابرات يابانى سابق ، عمل لعشرين عامًا ، قبل أن يتم صرفه من الخدمة ، دون سبب واضح ، ومنذ ذلك الحين ، وهو شبه منعزل فى منزله فى (طوكيو) ، وملفه يؤكد أنه كان عميلاً رفيع المستوى خلال فترة عمله ، مما أورثه حالة من الغضب والسخط ربما تم استغلالها لدفعه إلى أن يحل محل (روميرو) .

غمغم الرئيس ، وكأنه يحادث نفسه :

ــ رجل مخابرات سابق مرة أخرى ؟!..

أسرع مدير المخابرات يجيب :

ــ رجال المخابرات هم أفضل عناصر تفاوضية ، فى مثل هذه الأمور الدولية شديدة التعقيد ؛ لأنهم مدربون على ضبط النفس ، والثبات الانفعالى ، وكتمان الأسرار ، ولديهم قدرات تفــوق الدبلوماسيين ، على احتمال الضغوط ، وحتى عمليــات التعذيب الشديدة ، دون أن يفصحوا عما لا يريدون الإفصاح عنه ، ثم إن خبراتهم تجعلهم قادرين على كشف وسائل المراقبة والتنصت ، والإفلات منها ، و ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، عندما ارتفع رنين هاتفه الخاص ، فانعقد حاجباه ، وهو يلتقطه من جيبه فى سرعة ، وبدا القلق على ملامحه ، وهو يلقى نظرة على شاشته ، فاعتدل الرئيس ، يسأله فى انفعال :

ــ أهى رسالة مجهولة جديدة ؟!

هز مدير المخابرات رأسه نفيًا ، دون أن يرفع عينيه عن شاشة هاتفه ، مجيبًا :

ــ بل هو اتصال من رقم لا أعرفه ، وغير مسجّل على هاتفى ، وهذا أمر غير تقليدى .

صاح مستشار الأمن القومى :

ــ أجب يا رجل ... أجب بالله عليك ... ربما كان (أوزاكا) هو المتصل .

لم تقلع صيحته مدير المخابرات ، إلا أنه ضغط زر الإجابة ، وهو يجيب فى حذر :

ــ من المتحدث ؟!

أتاه صوت الكولونيل (ريتشارد بورتر) ، وهو يهتف في انفعال شديد :

ــ هنا الكولونيل (بورتر) ... الاتصال السابق لم يكن منى .. إنه ذلك المصرى ... لقد استولى على هاتفى ، وتحدث منه بصوتى ، على نحو مذهل .

احتقن وجه مدير المخابرات ، وهو يقول في حدة :

ــ ماذا تقول؟! ... أتعلى أنه ما زال حيًّا ؟!

أجابه (بورتر) بنفس الانفعال :

ــ ليس هذا فحسب ، ولكنه يعلم كل شيء عن ذلك السائل المتفجر الجديد .

كاد مدير المخابرات يعتصر هاتفه من شدة الغضب ، عندما سمع هذا الجزء الأخير ، ولقد بدا منفعلاً إلى الحد الذى جعل الرئيس الأمريكى ينهض من خلف مكتبه ، متسائلاً في عصبية :

ــ ماذا هناك ؟!

وفى نفس الوقت ، اقتــرب وزير الدفـــاع ومستشار الأمن القومى من مدير المخابرات بحركة سريعة ، وكأنهما يحاولان سماع محدثه ...

ولكن مدير المخابرات بدا وكأنه لم يشعر باقترابهما ، ولم يسمع حتى سؤال الرئيس الأمريكى ، وهو يسأل (بورتر) فى حدة غاضبة :

ــ ماذا أخبرك بالضبط ، عن ذلك السائل ؟!

هتف (بورتر) :

ــ لقد كان يعلم عنه كل شيء .

حمل صوت مدير المخابرات كل الغضب والصرامة والعصبية ، وهو يصيح به :

ــ كولونيل (بورتر) ... (أدهم صبرى) رجل مخابرات محترف ... بل أكثر رجال المخابرات احترافًا ، وهو لن يخبرك أمرًا يعرفه ، مهما فعلت به ، فكيف تحدث إليك عن سلاح جبار كهذا ؟!

صمت (بورتر) لحظات ، محاولاً استعادة الحديث القصير ، الذى دار بينه وبين (أدهم صبرى) ، قبل أن يغمغم فى ذعر :

ــ يا إلهى !!...

صاح به مدير المخابرات فى حدة بالغة :

ــ كيف علم يا كولونيل (بورتر) ؟!

ارتبك (بورتر) فى شدة ، وهو يجيب فى توتر :

ــ يبدو أننى من أخبره يا سيدى .

صرخ مدير المخابرات ، بكل ما اشتعل فى نفسه من مشاعر :

ــ وكيف علمت أنت بهذا الأمر ، الذى ندرجه تحت بند يفوق السرية المطلقة ؟!

بدا صوته واضحًا ، وهو يجيب فى ارتباك شديد :

ــ رسالتك أخبرتنى يا سيدى .

اتسعت عينا مدير المخابرات عن آخرهما ، وهو يهتف بصوت خنقه الانفعال :

ــ رسالتى أنا ؟!

اختنق صوت (بورتر) ، وهو يجيب :

ــ أقسم لك أن هذا ما حدث يا سيدى .

وعلى الرغم من أن هذا يخالف كل القواعد الأمنية ، فقد ضغط مدير المخابرات زر إنهاء المحادثة ، وأدار عينيه المتسعتين الذاهلتين المذعورتين إلى الرئيس ، الذى سأله والتوتر يعصف بنفسه فى شدة :

ــ ماذا حدث ؟!

ولكن مدير المخابرات لم يستطع ، مع ما يعصف به من انفعالات ، أن يحر جوابًا ...

أى جواب ...

* * *

بدأ قرص الشمس رحلة صعوده إلى السماء ، ليلقى خيوط أشعته الذهبية الأولى على فيلا أنيقة كبيرة ، تكاد تكون بمثابة قصر أنيق ، فى أحد أحياء (كاليه) الراقية ، المطلة على البحر ، وانعكست على نوافذها الكبيرة ، وعلى زجاج سيارة فاخرة تقف أمام مرآبها الكبير ، فتثاءب أحد حارسين ضخمين ، يقفان أمام الفيلا الكبيرة ، وهو يضع منظارًا شمسيًا على عينيه ، قائلاً لزميله :

ــ ليلة جديدة مضت .

استغرق زميله ما يقرب من نصف الدقيقة ، قبل أن يقول فى لهجة خشنة :

ــ كل الليالى تتشابه .

حاول الأول أن يبتسم ، وهو يغمغم :

ــ وكل الليالى مملة ومرهقة ، دون مبرر ... الأسوار عالية ومكهربة ، وكل ركن به كاميرا للمراقبة ، وهناك طاقم مراقبة فى القبو ، فما فائدة وجودنا هنا ؟!...

بدا زميله أكثر خشونة ، وهو يجيب :

ــ علينا أن نطيع الأوامر فحسب .. هذا ما نتقاضى أجرنا من أجله .

ثم أضاف إلى خشونته شيئًا من الصرامة ، مع استطرادته :

ــ وهو ليس بالأجر القليل .

غمغم الأول فى ضيق :

ــ أعلم هذا .

كان يغمغم بها ، عندما انفتحت نافذة الطابق الثانى من الفيلا ، وأطل منها (رينيه بولار) ، وهو يقول فى حدة :

ــ اخفضا صوتيكما .

عقد الرجلان حواجبهما ، وأطبقا شفاههما ، وتبادلا نظرة صامتة ، فى حين تراجع (رينيه) وأغلق النافذة ، وهو يقول لخادمته فى شىء من الصرامة :

ــ لماذا أستأجر المزعجين دومًا ؟!...

مط شفتيه معلنًا ازدرائه ، قبل أن يضيف :

ــ أعدى لى قدحا من القهوة ، وقومى بتشغيل بعض الموسيقى ... أحتاج إلى تهدئة أعصابى بعض الوقت .

أسرعت الخادمة ، لتعد له ما طلبه ، وضغطت زر مشغل الموسيقى فى طريقها ، فارتفعت نغمات فرنسية هادئة ، جعلت (رينيه) يسترخى على أريكته الواسعة الوثيرة ، ويسبل عينيه فى استرخاء ، وهو يحرك أصابع كفه ، متماوجًا بها مع النغمات العذبة ، و ...

وفجأة ، انقطع تواصل الموسيقى ، وانطفأت الأنوار فى المكان ، فاعتدل (رينيه) فى حركة حادة ، وهو يهتف :

ـــ ماذا حدث ؟!

لم يكد ينطقها ، حتى سمع صوتًا أشبه بالتأوه ، يأتى من أسفل نافذته ، فانعقد حاجباه ، وهو يسرع نحو النافذة ، ويفتحها هاتفًا :

ـــ ماذا يحدث هنا ؟!

لدهشته أنه لم يجد الرجلين فى موضعهما ، فصاح وهو يميل برأسه إلى الأمام ، ليلقى نظرة أكثر اتساعًا :

ـــ أين أنتما ؟!

واتسعت عيناه ، فى دهشة وذعر ، عندما لمح قدم أحد الرجلين ، فى موضع يوحى بسقوطه أرضًا ، فتراجع فى ذعر ، فى نفس اللحظة التى سمع فيها صوت خادمته من خلفه مرتجفًا ، وهى تقول :

ـــ القهوة مسيو (رينيه) .

استدار إليها فى سرعة ، ورآها تقف حاملة صينية فضية ، عليها قدح من القهوة ، و ...

ولكنها لم تكن وحدها ...

كان إلى جوارها شخص آخر ، يقول فى صرامة :

ـــ من الأفضل أن تضيف إليها قرصًا مهدئًا .

تراجع (رينيه) فى حدة ، حتى ارتطم بحاجز النافذة ، وتعلّقت عيناه المذعورتان بوجه (أدهم صبرى) ، وعينيه الصارمتين ، وسقط فكه السفلى فى رعب وذهول ، فى نفس الوقت الذى تساءل فيه عقله ، فى ارتياع بلا حدود ...

كيف وصل هذا الرجل إليه ، على الرغم من كل إجراءات الأمن ؟!...

كيف ؟!...

وفى نفس اللحظة ، التى صرخ فيها هذا السؤال فى رأسه ، عادت الموسيقى تنبعث من المشغل ، فانتفض جسد (رينيه) معها فى عنف ، واحتبس السؤال فى عقله ...

بلا جواب ...

أما طاقم المراقبة فى القبو ، والذى استعاد شاشاته ، مع بدء عمل مولد الكهرباء الاحتياطى ، فقد رأى على إحدى شاشاته حارسى الباب فاقدى الوعى ، وعلى شاشة أخرى مظلة فارغة ، يتدلى جزء منها من سطح الفيلا ، فوثبت يد أحدهم ، نحو زر الإنذار الخاص ، المتصل بالشرطة الفرنسية ، إلا أن يده تجمدت فى مكانها ، مع صوت أنثوى صارم ، يقول :

ـــ لو أننى فى موضعك لما لامست هذا الزر

استدار طاقم المراقبة كله إلى مصدر الصوت ، واتسعت عيونهم جميعًا في آن واحـــد ، وهم يحدقون في فوهـــة مسدس قوى ، تصوبه نحوهم (منى) ، التي تابعت بنفس الصرامة :

ــ ولو تبقّت بعض الحكمة لديكم ، فستجلسون هنا ساكنين ، حتى ننتهي من حوار ودي مع رئيسكم .

ولم ينبس رجال الطاقم بحرف واحد ...

على الإطلاق ...

* * *

هزّ المفتش الفرنسي (فريدريك) رأسه في دهشة حقيقية ، وهو يقول لنفسه :

ــ سنوات لم نستطع فيها الإيقاع بك ، ثم يأتي من يشعل حريقًا ، ويضعك داخل مدفأة يا (فليمون) .

بدا (جيرارد فليمون) شديد العصبية ، وهو يمسك أنفه المحطم ، من أثر قبضة (أدهم) ، قائلاً :

ــ حذار أيها المفتش ... ليس من حقك أن تتعامل معي باعتباري الجاني ، وأنا ، كما يبــدو لك واضحًا ، الضحية هنا ، الذي تم اقتحــام منزله ، ومحاولة قتله ، على النحو الذي تراه .

لم يستطع المفتش (فريدريك) منع ابتسامته ، وهو يقول :

ــ السـؤال هـو : لماذا يا مسـيو (فليمون) ؟!... رجالنا استبعدوا دافع السرقة تمامًا ؛ لأنه لم يفقــد شيء من المنزل ، وخزانتك الشخصية لم تمس ... ثم إن وجود ممر سري خلف المدفأة ، أمر غير معتاد ، في المنازل الفرنسية ، وعثورنا عليك مع بعض رجالك ، فاقدي الوعي داخله بالمصادفة البحتة ، يوحي بأنه وراء الأكمة ما وراءها ، وبقاؤك على قيد الحياة ، يعيد طرح السؤال عن الدافع .

شعر (فليمون) بالكثير من الحنق ، وهو يقول :

ــ أنا رجل أعمال معروف ، و ...

قاطعه المفتش (فريدريك) في صرامة :

ــ أخبرتك أنه لا شأن لثروتك بما حدث .

صاح فيه (فليمون) في حدة :

ــ وما شأني أنا بالدافع ؟!... حسبما أعلم ، فالجريمة قد تمت ، والبحث عن الدافع هو مهمتكم أنتم ، وليس مهمتي أنا ... هذا عملكم .

تطلّع إليه (فريدريك) لحظة في صمت ، قبل أن يقول في صرامة :

ــ وعملنا يتضمّن أيضًا سؤالك عما نفترضه من دافع ، قد يرشدنا إلى طرف خيط .

هزّ (فليمون) رأسه نفيًا في حدة ، وهو يهتف :

ــ ليس لدي دافع واضح .

عاد (فليمون) يتطلّع إليه لحظات ، قبل أن يقول ، وقد اكتسبت صرامته لمحة من الشراسة :

ــ اسمعنى جيدًا يا مسيو (فليمون) ... ما حدث هنا يمكن أن يكون طرف خيط بالفعل ؛ لأنه منحنا ، وربما لأوّل مرة ، الحق القانونى فى دخول منزلك ، وفحصه وتفتيشه ... ولدينا هنا آثار واضحة لاستخدام سلاح يفوق المعتاد ، نعتقد أنه المسئول عن ذلك الانفجار ، الذى حدث على بعد كيلومترات قليلة من هنا ... وأقسم لك أنه لن يهدأ لى بال ، حتى أعلم ما صلتك بما حدث ، وما سر تحطم إحدى نوافذ منزلك ، وانتزاع قضبانها من الداخل ، وآثار رد فعل الإطلاق الصاروخى فيها ... ثم لماذا يتم إطلاق الصاروخ عبر نافذة من نوافذ منزلك دون سواه ، على الرغم من أنه أكثر المنازل مناعة وتحصينًا ، ربما فى (باريس) كلها .

احتقن وجه (فليمون) فى شدة ، وارتفعت سبّابته ليقول شيئًا ما ، و...

وفجأة ، دوى صوت زجاج يتحطّم ، واتسعت عينا (فليمون) ، وظهرت بقعة من الدم على يسار جبينه ، قبل أن يسقط عند قدمى (فريدريك) جثة هامدة ...

وفى حركة حادة ، تراجع (فريدريك) ، والتفت إلى النافذة ، ثم ابتعد عنها فى سرعة ، وهو يهتف برجاله :

ــ المنزل المقابل .. أسرعوا ..

اندفع بعض رجاله خارجين من منزل (فليمون) ، ومنطلقين نحو المنزل المقابل ، الذى انطلقت منه الرصاصة ، فى حين عاد هو يحدّق فى جثة فليمون ، بعينين بلغتا ذروة الاتساع ...

فالمفاجأة كانت عنيفة ...

للغاية ...

والأهــم ، أنها قــد فجّرت فى عقله لغزًا جديدًا ، زاد كم تساؤلاته ... ألف مرة .

* * *

الفصل الثالث عشر

غرقت تلك الحجرة الصغيرة نسبيًا فى ضوء شديد الخفوت ، وتعلّقت عينا (سيرجى كوربوف) بتلك الشاشة الصغيرة ، التى يجلس أمامها أحد الخبراء الفنيين ، والتى تعكس على وجهه ضوءًا أخضر ، جعل المشهد داخل الحجرة يبدو وكأنه لقطة من أحد أفلام الرعب الأمريكية ، حتى أشار (سيرجى) إلى نقطة مضيئة ، بدت واضحة على الشاشة ، وهو يقول للخبير الفنى فى صرامة :

ـ ها هى ذى .

تطلّع الخبير الفنى إلى تلك النقطة المضيئة فى اهتمام ، قبل أن يقول :

ـ لم تظهر فى تسجيلات الرادار سوى لحظات قليلة يا جنرال .. من الواضح أن قائدها يجيد التحليق ، حيث تعجز الرادارات عن رصده .

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثان ، وهو يقول فى صرامة أكثر :

ـ ولكن يمكننا متابعتها عبر تسجيلات الأقمار الصناعية .

أشار الخبير الفنى بسبّابته ، مجيبًا :

ـ يمكننا هذا بالتأكيد يا جنرال .

اعتدل (سيرجى) ، وهو يقول فى صرامة عصبية :

ـ ماذا تنتظر إذن ؟!

ارتبك الخبير الفنى ، وأصابعه تجرى على أزرار أجهزته فى سرعة ، فأضيئت شاشة أخرى ، أضفت على المكان شيئًا من الحيوية ، وهو يقول :

ـ سنختار نفس الموقع والتوقيت ، و ...

قاطعه (سيرجى) فى قسوة :

ـ لا تزعجنى بالتفاصيل .

احتقن وجه الخبير الفنى ، وزاد من سرعة أصابعه ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد يا جنرال ... بالتأكيد .

نقلت الشاشة صورة هليوكوبتر (سونيا) ، وهى تنطلق بين جبال (سيبريا) ؛ لتحاشى أجهزة الرادار ، وراح الخبير الفنى يتابعها ، وهو يغمغم :

ـ يبدو أنها تستعد للهبوط يا جنرال .

عاد حاجبا (سيرجى) ينعقدان ، وهو يتابع المشهد ، على الشاشة المضيئة ...

كانت الهليوكوبتر تهبط بالفعل ، بالقرب من منطقة كثيفة الأشجار ، فتمتم فى عصبية :

ـ أظن أننى أعلم ما سيفعله هؤلاء الأوغاد .

غمغم الخبير الفنى فى حذر :

ـ تقصد ما فعلوه يا جنرال ؛ فهذا مجرد تسجيل ، و ...

قاطعه (سيرجى) فى قوة :

ـ اصمت .

أطبق الخبير شفتيه فى خوف ، فى حين تابع (سيرجى) فى غضب هبوط الهليوكوبتر ، وخروج سيارة قوية ، رباعية الدفع من بين الأشجار ؛ لتتوقف على قيد خطوات من الهليوكوبتر ، حتى ينتقل ركاب الهليوكوبتر إليها فى سرعة ، ثم تدور لتختفى بين الأشجار الكثيفة ...

وفى غضب ، غمغم (سيرجى) :

ـــ يبدو أنهم ليسوا فقط على دراية كافية بأساليب تفادى الرادارات ، ولكنهم يعلمون جيدًا ، كيف يتعاملون مع الأقمار الصناعية أيضًا .

غمغم الخبير :

ـــ من الواضح أنهم خبراء يا جنرال .

قال (سيرجى) فى صرامة :

ـــ لم تساورنى ذرة شك فى هذا ، منذ بدأت الأحداث .

لم يجرؤ الخبير الفنى على سؤاله عن أية أحداث يتحدث ، وفقًا لقواعد العمل المخابراتى ، خاصة وأن (سيرجى) هتف به فجأة :

ـــ أعد التسجيل إلى الخلف قليلاً يا رجل .

أطاعه الخبير الفنى على الفور ، وراح (سيرجى) يراقب الحركة العكسية فى اهتمام بالغ ، حتى بلغ تلك النقطة ، التى غادر فيها ركاب الهليوكوبتر إلى السيارة رباعية الدفع ، فهتف فى صرامة :

ـــ أوقف الصورة .

بضغطة زر ، أوقف الخبير الصورة ، فأضاف (سيرجى) فى صرامة :

ـــ هل يمكنك تكبير الصورة ؟!

أجابه الخبير فى سرعة :

ـــ إلى حد كبير يا جنرال .

راح يعمل على تكبير الصـــورة ، حتى بلغ أكبـــر تكبير ممكن ، فمال (سيرجى) يتطلَّع إلى الصورة فى إمعان ، وغمغم الخبير :

ـــ الصورة من أعلى يا جنرال ، ومن الصعب أن ...

قاطعه (سيرجى) ، وهو يشير إلى الشاشة ، قائلاً :

ـــ هل ترى تلك اليد الأنثوية ؟!

أجاب الخبير فى توتر :

ـــ بالطبع يا جنرال ، ولكن لا يمكننى تمييز الـ ...

قاطعه (سيرجى) مرة أخرى فى صرامة :

ـــ هل ترى ما تمسك به ؟!

تردد الخبير ، قبل أن يجيب فى خفوت حذر :

ـــ يبدو لى أشبه بسيجارة رفيعة طويلة ، و ...

للمرة الثالثة قاطعه (سيرجى) ، قائلاً فى ظفر واضح :

ـــ بالضبط .

التفت إليه الخبير الفنى فى دهشة ، تعالت عندما رآه يتألق العينين ، يتابع فى ارتياح ظافر :

ـــ لقد علمت الآن من وراء كل هذا .

وكان هذا تطورًا كبيرًا للأمور ...

تطور بالغ الأهمية ...

إلى حد مخيف ...

* * *

« اجلس يا مسيو (بولار) ... »

قالها (أدهم) فى صرامة ، جعلت (رينيه بولار) يطيعه على نحو تلقائى ، وهو يغمغم فى توتر :

ـــ ما يقولونه عنك صحيح إذن .

التقى حاجبا (أدهم) ، وهو يقول بنفس الصرامة :

ـــ من هؤلاء الذين يقولون يا مسيو (بولار) ؟!

لوّح (رينيه) بيده فى الهواء ، وبدا لحظة وكأنه سيمنحه جواب سؤاله ، إلا أنه عاد يخفض يده ، ويميل إلى الأمام ؛ ليسأله فى اهتمام :

ـــ كيف تجاوزت كل نظم الحراسة ، حتى تصل إلى هنا ؟!

أجابه (أدهم) فى سرعة :

ـــ إنه سر المهنة .

ثم قسا صوته ، وهو يكرر سؤاله :

ـــ أجبنى الآن ... من هؤلاء ؟!

ظلّ (رينيه) جامدًا ، يتطلع إليه لحظات فى صمت ، قبل أن يعتدل فى لهفة مفاجئة ، مجيبًا :

ـــ اللهم .

اقترب منه (أدهم) فى بطء ، وهو يسأله :

ـــ من منهم بالتحديد ؟!

ازدادت نبرة الثقة ، فى صوت (رينيه) ، وهو يقول :

ـــ الذين توقعوا ما يحدث الآن ، ووضعوا خططهم البديلة .

توقف (أدهم) دفعة واحدة ، وضاقت عيناه وهو يتفرّس ملامح (رينيه) ، وكأنما يحاول سبر أغواره ، وكشف ما يختفى خلف كلماته ، وعقله ينطلق بسرعة الصاروخ ؛ لمراجعة كل خطوة سبقت هذا اللقاء ...

كانت خطة بسيطة ، فى مواجهة نظام أمن شديد التعقيد ...

فلسبب ما ، كثيرًا ما تشعر أنظمة الأمن المعقدة أصحابها بقدر زائد من الثقة والطمأنينة ، خاصة ولو كانوا أصحاب سطوة أو سلطة ، أو توغل كبير فى أروقة السطوة والسلطة ...

ومع مرور الوقت تتزايد ثقتهم فى نظم أمنهم حتى لا يتصوّرون قط أنها قابلة للاختراق ...

أو للسقوط ..

ومع الثقة الزائدة ، التى تبلغ درجة من درجات الغرور ، يحدث التراخى رويدًا رويدًا ...

ولأنه يحدث على نحو تدريجي بطيء ، فلا أحد يشعر به ، وإنما على العكس تمامًا ، يعتاد عليه ، ويتصوَّر أنه أمر طبيعي ...

ومع استمرار حالة التراخي ، وفي غياب محاولات جادة لاختراق منظومة الأمن ، تدخل المنظومة كلها فيما يسمى بحالة الأمن الاستعراضي ...

هذا عندما تصير إجراءات الأمن مجرَّد استعراض يومي متواصل ، يستهدف المظهر ، بأكثر مما يستهدف الجوهر ، مما يجعل القائمين على الأمن أشبه بآلات مبرمجة ، تؤدي عملها في انتظام ، ولكنها تفتقر إلى قوة الانتباه وروح الإبداع ...

ومن كل هذه المنطلقات ، وضع (أدهم) خطته ...

فأضعف نقطة في الأمن دومًا ، هي الأسطح ...

الذين يقومون بتأمين الأسطح ، يراقبون دومًا ما يدور في أسفل ، ويتوقعون دومًا أي هجوم ، من أسفل إلى أعلى ...

لهذا استأجر (أدهم) و(منى) و(علاء) زورقًا بخاريًا ، وابتاعوا مظلتي هبوط ...

وعندما انطلق (علاء) بالزورق في سرعة ، كان هناك حبلان يمتدان من مؤخرة الزورق ، وفي نهايتهما يتشبث (أدهم) و(منى) ، وكل منهما يرتدي زلاجتين مائيتين قويتين ، ويرتدي على ظهره مظلة ...

ومع بلوغ السرعة الحد المناسب ، فتح كل منهما مظلته ...

وارتفعا في الهواء ...

وعلى بعد خمسمائة متر من فيلا (رينيه بولار) ، أفلت كل منهما الحبل ، الذي يربطه بالزورق ، فامتلأت مظلتاهما بالهواء أكثر ، ورفعتهما عاليًا ...

ولأن كليهما محترف ، يجيد توجيه مظلته جيدًا ، فقد تعاملا مع أحبالها في حرفية ، ليقوداها نحو سطح الفيلا ، مع لحظات الفجر الأولى ...

تلك اللحظات التي تصير فيها مقاومة الرغبة في النعاس عسيرة ، والتي تتثاقل فيها الأجفان ، ويصير إبقاؤها مفتوحة مرهقًا ...

في تلك اللحظة بالتحديد ، بدأ الهجوم ...

من أعلى إلى أسفل ...

وعلى ارتفاع خمسة أمتار ، أفلت كل منهما مظلته ، وهبطا كالصاعقة ، على رأس حارسي السطح ..

ولم يستغرق القتال سوى ثوان قليلة ...

وكان قتالاً سريعًا ...

صامتًا ...

عامل المفاجأة ، مع سرعة الحركة ، وحرفية الأداء ، كلها أمور أنهت القتال ، في أقل ثوان ممكنة ...

وكانت هناك نظم مراقبة بالتأكيد ..

وهذا عيب آخر ، من عيوب نظم الأمن ...

كل كاميرات المراقبة على السطح ، كانت تنقل ما يدور حول الفيلا ، دون كاميرا واحدة ، تراقب ما يدور على السطح نفسه ...

وهكذا كانت الخطة ...

بسيطة ...

سريعة ...

وفعّالة ...

فى نفس اللحظات ، التى استعاد فيها ذهن (أدهم) هذا ، كان (علاء) يواصل انطلاقه بالزورق الآلى ، فى حركة دائرية لولبية ، بحيث لا يبتعد كثيرًا عن فيلا (رينيه بولار) ...

وكان يشعر بقلق حقيقى ، من عدم وجود أية اتصالات مباشرة ، بينه وبين (أدهم) و (منى) فى الداخل ...

ثم تضاعف قلقه هذا ألف مرة ، عندما اقترب يخت كبير من الفيلا ، وتوقف عند مرساتها ، ليهبط منه جيش من المسلحين ، يرتدون كلهم أقنعة سوداء ، تخفى كل وجوههم تقريبًا ، فيما عدا العينين والفم ، وفتحتى الأنف ...

وفى توتر ، التقط (علاء) منظاره المقرب ، فى محاولة لمتابعة ما يفعله هذا الجيش من المسلحين هناك ، ولكن منظاره التقط مشهدًا آخر تمامًا ...

زورقان آليان ، بكل منهما ثلاثة من المقنعين المسلحين ، ينطلقان نحوه مباشرة ...

وهنا ، أدرك (علاء) أنه فخ ، فالتقط هاتفه فى سرعة ، وعلى الرغم من أوامر (أدهم) المشددة ، بعدم اللجوء إلى الاتصالات ، مهما كانت الأسباب ، فقد صرخ بالعربية ، عبر هاتفه :

ـ إنه فخ .

ولم يكد ينطقها ، حتى انهالت عليه رصاصات المقنعين ، من الزورقين الآخرين ..

انهالت كالمطر ...

أو كالعاصفة ..

العاتية ...

* * *

حالة عنيفة من التوتر والإرهاق ، شملت كل من جمعهم المكتب البيضاوى ، لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية ...

حالة جعلت مستشار الأمن القومى شديد العصبية ، وهو يقول :

ـ إذن فتكنولوجيتك الغبى (بورتر) ، جعل (أدهم صبرى) ، ذلك الذئب المصرى المخيف ، يعلم ما نحن بصدده .

ثم أشار إلى مدير المخابرات الأمريكية ، مستطردًا فى حدة :

ـ لقد اكتشف سر سلاحنا ، قبل حتى أن نحصل عليه .

التفت إليه مدير المخابرات ، وهو يقول فى تفكير عميق :

هناك خدعة كبرى ، تدور حولنا ، فى دهاء لم أواجه مثلها من قبل .

قال وزير الدفاع فى غضب :

ـ أهذا ردك على ما حدث ؟!

بدأ مدير المخابرات يتحرك فى المكتب ، وكأنما لا يشعر بمن حوله ، وهو يقول بتفكيره العميق :

ـ دعونا ندرس الأمر بلا انفعال ... (بورتر) لم يكن يعلم شيئًا عن طبيعة السلاح ، وفقًا لقاعدة « المعرفة بقدر الحاجة » ، وكان يقوم بمهمة للتخلص من عقبة تقف فى سبيل حصولنا عليه ... ولم يكن هناك من يعرفه سوانا ، وسوى من يدخلون مزاد شرائه ، بالإضافة إلى الجهة الأم .

ورفع عينيه إليهم ، مضيفًا فى حزم :

ـ مالكو السلاح .

اعتدل الرئيس الأمريكى ، متسائلاً فى اهتمام متوتر :

ـ ولكن لماذا ؟!.. هل يحاولون عقد صفقة ، وإفسادها فى الوقت ذاته ؟!..

هزَّ مدير المخابرات رأسه نفيًا ، وهو يقول فى اهتمام :

ـ على العكس ... إنهم يلعبون بقواعد تاجر عبقرى ... فلو أنك تسعى لعقد أو إتمام صفقة ، تتنافس فيها مؤسسة واحدة ، فستحاول عرض الثمن ، الذى يفوق ما يعرضه منافسك ... ولكن لو علمت أن خبر الصفقة قد تسرَّب ، ولم يكثر عدد منافسيك فيها فحسب ، ولكن هناك قوة كبيرة ، تسعى لإفشالها أيضًا ، فستصير مستعدًا لإتمامها فى سرعة ... وبأى ثمن .

انعقـد حاجبا الرئيس الأمريكى ، وهو يغمغم ، بمزيد من التوتر :

ـ فهمت .

قال وزير الدفاع الأمريكى فى عصبية :

ـ هى محاولة للضغط إذن .

أشار إليه مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ بالضبط .

مع آخر حروف كلماته ، ارتفع رنين هاتفه مرة أخرى ، فالتقطه فى سرعة ، واستمع إلى محدثه فى صمت واهتمام قبل أن ينهى المحادثة ، ويلتفت إلى الحاضرين قائلاً فى انفعال :

ـ لقد وصل ...

تساءل مستشار الأمن القومى فى حذر :

ـ من ؟!

شدَّ مدير المخابرات قامته ، وهو يجيب :

ـ المفاوض الجديد ... (واو أوزاكا) .

وعلى الرغم من ذلك الشحوب ، الذى بدا على وجوههم لم ينطق أحدهم بحرف ...

حرف واحد ...

* * *

مع دوى الرصاصات ، الذى بدا بعيدًا شاحبًا تراجعت (منى) بحركة حادة ، وهتفت برجال قاعة المراقبة فى صرامة :

ـ إياكم أن يأتى أحدكم بحركة واحدة ، يمكن أن تثير ذرة من الشك .

مع قولها ، ارتفع وقع أقدام ثقيلة ، تعدو عبر الممر ، الذى يقود إلى قاعة المراقبة ، فسرى التوتر فى جسدها ، وراحت تنقل بصرها فى سرعة بين داخل القاعة وخارجها ...

ثم ظهر هؤلاء الملثمون المسلحون ، الذين يرتدون دروعًا واقية من الرصاصات ، وبدأوا يطلقون رصاصات مدافعهم الآلية عبر الممر في غزارة ، أجبرت (منى) على التراجع ، إلى داخل قاعة المراقبة ، مدركة أن رصاصات مسدسها لا يمكن أن تصمد ، أمام ذلك السيل من الرصاصات ، الذي ينهال عليها ...

وفي توتر شديد ، قال أحد الفنيين :

ــ لن يمكنك الصمود أمامهم يا سيدتي .

صاحت به (منى) ، محاولة رفع صوتها ، فوق صوت الرصاصات ، التي لا تتوقف لحظة واحدة :

ــ اصمت يا هذا ...

توقفت الرصاصات ، قبل حتى أن تنتهي صيحتها ، وارتفع صوت شديد الصرامة والقسوة ، يقول في غلظة :

ــ أمامك دقيقة واحدة للاستسلام ، وبعدها سنقتحم المكان بلا رحمة .

قالها بفرنسية ، لها لكنة خاصة ، فصاحت (منى) ، محاولة إخفاء توترها :

ــ سأطلق النار على كل من هنا ، لو ...

قاطعها ذلك الصوت الغليظ في قسوة :

ــ سنطلق نحن النار على الجميع ، عندما نقتحم القاعة .

سرى توتر عنيف داخل القاعة ، وارتفعت أصوات الفنيين في عصبية شديدة التوتر ، مما زاد من انفعال (منى) ، وذلك الصوت يضيف في شراسة :

ــ الوقت يمضي في سرعة ، ولن يمتد لثانية واحدة إضافية .

تعلقت كل العيون بـ (منى) ، في ضراعة وترقب ، وارتسم الرعب على كل الوجوه ، حتى أن (منى) عجزت عن كتمان توترها ، وهي تحاول إدارة الأمر في رأسها على كل الوجوه ...

ولكن مع فارق القوة الكبير ، وعدم وجود أي مخرج من القاعة ، سوى الباب الذي أغلقته خلفها ، والذي سينهار مع أول إطلاق نيران ، كانت النتيجة تبدو محسومة مسبقًا ...

باختصار ، كان من الواضح أنه لا يوجد مفر من الموقف ...

أي مفر ...

على الإطلاق ...

* * *

مع أول دوي للرصاصات التي يطلقها ركاب الزورقين الآليين ، نحو زورق (علاء) ، استوعب عقل (أدهم) الموقف كله ، في النصف الأول من الثانية ...

وفي النصف الثاني من الثانية ، تحرك

وقبل حتى أن يدرك (رينيه) ما يحدث وثب (أدهم) وثبة مذهلة ، قطع بها ما يزيد عن أربعة أمتار ، وأحاط عنق الفرنسي بذراعه القوية ، وهو يقول في صرامة مخيفة :

ـ انتظر تفسيرًا ... سريعًا .

ثم شدّد ضغط ذراعه على عنق (رينيه) ، وهو يضيف :

ـ علمًا بأنني سأواصل الضغط ، حتى تتم الشرح ، أو يتحطّم عنقك ... أيهما أسرع .

شعر (رينيه) بعنقه يعتصر ، وبأنفاسه تختنق ، وحاول عبثًا الإفلات ، إلا أن (أدهم) كان يضع كلماته موضع التنفيذ بالفعل ، ويضغط بذراعه أكثر ...

وأكثر ...

وأكثر ...

« إنها خطة أمنية احتياطية .. »

هتف بها بصوت مختنق ، فسأله (أدهم) ، في صرامة أكثر قسوة :

ـ من وضع هذه الخطة الاحتياطية ؟!... ومن أخبرك عني ؟!

كان (رينيه) يختنق في ألم شديد ، وهو يجيب :

ـ لقد كانت تتوقع هذا .

انعقد حاجبا (أدهم) في شدة ، وهو يقول :

ـ كانت ؟!

ما أن أتم كلمته المتسائلة ، حتى اقتحم خمسة من المسلحين المقنعين المكان ، في تحفز وحشي ، فتراجع (أدهم) ساحبًا معه (رينيه) من عنقه ، فصرخ هذا الأخير مختنقًا :

ـ أطلقوا النار .

وقبل حتى أن تكتمل صرخته ، أطلق المقنعون النار بالفعل ... مباشرة .

• • •

الفصل الرابع عشر

« هذا الزجاج تم استبداله » ..

قالها الخبير الفرنسي في حـزم ، فانعقـد حاجبا المفتش (فريدريك) ، وهو يغمغم :

ـ لقد توقعت هذا .

ثم اتجه نحو الزجاج ، الذي اخترقته الرصاصة ، التي قتلت (جيرارد فليمون) ، وتحسسه مكملاً :

ـ فرجل مثل (فليمون) ، لن يضع في نوافذ بيته زجاجًا قابلاً للاختراق .

قال الخبير الفرنسي ، وهو يلملم أدواته :

ـ هناك من استبدل الزجاج المضاد للرصاص في هذه النافذة بزجاج عادي ، له نفس الملمس واللون .

التفت إليه (فريدريك) ، متسائلاً :

ـ هل تم الاستبدال من الداخل ، أم من الخارج ؟!

أشار الخبير بيده ، مجيبًا :

ـ كل النوافذ تم استبدالها من الداخل .

هتف (فريدريك) في دهشة :

ـ كلها ؟!... هل تعني ؟!

قاطعه الخبير ، وهو يتجه إلى الخارج :

ـ هل كنت تتصوَّر أنهم اختاروا النافذة ، التي يظهر منها (فليمون) ، بالمصادفة البحتة ؟!

هتف (فريدريك) في عصبية :

ـ هناك خائن بين صفوف رجال (فليمون) إذن .

توقف الخبير لحظات ، ثم التفت إلى (فريدريك) ، قائلاً :

ـ إني أعمل مع الأمن الفرنسي ، منذ أكثر من عشرين عامًا ، و(فليمون) معروف ، منذ ظهر ، بأنه شديد الحرص والحذر ، وبالذات في انتقاء رجاله المقربين ، ولو أنه أحدهم خانه ، واستبدل زجاج نوافذه المضاد للرصاص بزجاج عادي ؛ ليسمح لأحدهم باغتياله حينما تحتم الظروف ، هذا فالتفسير الوحيد هو أن جهة أكثر قوة وبأسًا من (فليمون) قد سيطرت على ذلك الخائن ، وأجبرته على فعل ما فعل .

صمت (فريدريك) لحظات ، ثم غمغم :

ـ جهة أقوى؟!

غمغم الخبير بدوره :

وبفارق هائل .

غمغم بها ، ثم غـادر المكـان مع أدواته ، تاركًا (فريدريك) خلفـه يتساءل ...

مع كل ما يعرفه عن (فليمون) وقوته ، فكيف تكون تلك الجهة ، التي تفوقه قوة بفارق هائل ؟!...

كيف ؟!...

كيف ؟! ...

* * *

على الرغم من ثقتها فى أن فرص نجاتها ، من ذلك الموقف العصيب ، تقل كثيرًا عن الصفر ، جذبت (منى) مشط مسدسها ، بعد أن تقمته بخزانة جديدة ، والتقطت نفسًا عميقًا ، فى نفس الوقت الذى هتف فيه صوت أجش من الخارج :

ــ انتهت المهلة أيتها الخاسرة .

وعلى الرغم منها ، سرت فى جسدها قشعريرة باردة ، فى نفس الوقت الذى اختفى فيها فنيو قاعة المراقبة أسفل مقاعدهم ومكاتبهم فى رعب هائل ، ودوى صوت طلقات مدفع آلى ، وتصورت (منى) أن رتاج الباب سينفجر مع دويها ، و ...

ولكن هذا لم يحدث .

لقد دوت طلقات مدفع آلى بالخارج ، ثم تلاها دوى آخر ...

وآخر ..

وآخر ...

وبخبرتها الطويلة ، أدركت (منى) أنه هناك قتال ما يدور فى الخارج ...

قتال بين من كانوا يهددونها ، وبين جهة ما ...

أو شخص ما ...

هتف قلبها وليس عقلها بالفرضية الأخيرة ...

ولهذا كان قلبها هو ما انتفض هذه المرة ...

انتفض ، وهو يهتف باسم واحد ...

(أدهم) ...

وما أن قفز الاسم ، من قلبها إلى عقلها ، حتى اندفعت تفتح الباب المغلق ، وتقفز إلى الممر فى سرعة ...

ومع قفزتها ، التفت إليها أحد المقنعين بحركة حادة ، ورفع مدفعه الآلى نحو صدرها ، و ...

دوت الرصاصات ...

بمنتهى القوة ..

* * *

فى لحظــة واحــدة ، استعاد ذهــن (علاء) كل ما تدرب عليه إبان عمله فى قسم العمليات الخاصة بالخدمة السرية فى جهــاز المخابرات المصرى ...

كانت الرصاصات تنهال عليه كالمطر ، من زورقين آليين يحمل كل منهما ثلاثة من المقنعين المحترفين ، وعلى الرغم من هذا فهو لم يفقد أعصابه لحظة واحدة ، وإنما زاد من سرعة زورقه ، وانطلق به فى خط متعرج ؛ ليتقى رصاصات خصومه ، وليصنع دائرة واسعة تضطر خصومه لاتخاذ المسار نفسه ...

لم يكن يحمل سوى مسدس واحد ، تحوى خزانته ثماني رصاصات فحسب ، مما يعنى أن عليه ، وعلى الرغم من كل ما ينهال عليه من رصاصات أن يحسن استخدام كل رصاصة لديه ...

وإلى أقصى حد ..

كان يملك ثماني رصاصات ، وخبرة خمسة عشر عامًا من الخدمة السرية والعمليات الخاصة ...

وتلك الخبرة هى ، ما دفعه لاتخاذ ذلك المسار ، الذى عجزت معه رصاصات خصومه على النيل منه أو من زورقه ، وهم يدورون حوله بالزورقين القويين ، ويحاولون اتخاذ مسارات تسمح لهم بمحاصرته ...

ومع الدورة المعقدة ، التى قام بها متعمدًا ، صار زورقه فى زاوية ، تسمح له بإطلاق رصاصته الأولى ...

ولقد فعل ...

واختار هدفه بمنتهى الدقة ...

ومنتهى الذكاء ...

فرصاصته الأولى أطلقها على قائد الزورق الآلى ، إلى يساره مباشرة ...

وبينما يستعد المقنعون الثلاثة لإطلاق النار عليه ، أصابت رصاصته قائد زورقهم ، ودفعته بعيدًا عن عجلة القيادة فى عنف ، فاختل توازن الزورق ، ومال على نحو حاد ، طاشت معه كل رصاصاتهم ، واختل توازنهم بدورهم ، حتى أن الزورق الثانى كاد يرتطم بهم ، لولا أن تفاداه قائده فى براعة لا بد من الاعتراف بها ...

ولكن رصاصة (علاء) لم تكن بلا ثمن ...

فإطلاقه رصاصته الناجحة وضعه فى زاوية سمحت للمقنعين فى الزورق الثانى بإطلاق رصاصاتهم عليه ...

وفى سرعة ومهارة ، مال (علاء) بزورقه ، محاولاً تفادى رصاصاتهم ، إلا أنه سمع صوت بعض الرصاصات ترتطم بجسم زورقه ، وهو يميل به ميلاً حادًا ، مبتعدًا عن عن مسار الزورق الثانى ، فى نفس الوقت الذى نجح فيه أحد المقنعين فى الزورق الأول من السيطرة على عجلة قيادته ، ليعود به إلى المطاردة العنيفة ..

ولكن (علاء) واصل تفادى الرصاصات فى مهارة ، على الرغم من الدوار الذى بدأ يشعر به قبل أن ينتبه فجأة إلى أن رصاصات المقنعين لم تصب جسم زورقه فحسب ...

أدرك ذلك مع شعوره بذلك السائل الدافئ الذى يسيل على ظهره ، فلما مد يده إلى ظهره ، ارتدت إليه مصبوغة بدمه ..

ومع دواره ، بدأ الزورقان يحاصرانه ...

وبدا له أنه سيخسر هذه المطاردة ، مع مرور الوقت ...

ولكن خسارته لن تؤدى إلى موته وحده ...

إنها ستعنى أيضًا أن أولئك المقنعين سيعودون ؛ للانقضاض على (أدهم) و(منى) ، فى قصر (رينيه بولار) ..

لهذا ، فقد اتخذ قرارًا حاسمًا ...

وخطيرًا ...

للغاية ...

لقــد دار بزورقه دورة حــادة قصيرة ، بحيث صــار يواجــه زورقى المقنعين ... ثم انطلق نحوهما بأقصى سرعة ...

وأطلق المقنعون رصاصاتهم ...

وواصل زورقه انطلاقه ...

حتى كان الاصطدام ...

ثم الانفجار ...

وبمنتهى العنف ...

* * *

عندما أطلق المقنعون الخمسة النار نحو (أدهم) ، قبل أن تكتمل صيحة (رينيه) كان (أدهم) يحيط عنق هذا الأخير بذراعه بالفعل ، وهو يتراجع به فى سرعة نحو النافذة خلفه ...

واتسعت عينا (رينيه) عن آخرهما ، فى مزيج من الدهشة والألم والذعر ، عندما أصاب المقنعون الخمسة جسده فى الصدر والعنق ...

وحتى السافين ...

ومع الدفعة الأولى من الرصاصات ، أدرك (أدهم) أن المدافع الآلية ، التى يحملها المقنعون الخمسة ، مدافع قوية ، قادرة على اختراق جسد (رينيه) ، وبلوغ جسده هو ، لو اقترب المقنعون الخمسة لمترين اثنين ...

وكان من الواضح أن المقنعين قد أدركوا هذا أيضًا ؛ لأنهم اندفعوا إلى الأمام ، ليطلقوا دفعتهم الثانية ...

ولكن (أدهم) لم يكن بالرجل الذى يمكن أن تهاجمه فيقف أمام هجومك ساكنًا .. حتى وهو لا يحمل سلاحًا ...

فقبل حتى أن يتحرك المقنعون الخمسة ، تحرك (أدهم) ...

لقد وثب وهو يحمل جسد أو جثــة (رينيــه) الذى قتلته رصاصات المقنعين الخمسة ، وما أن استقر جسده على الأرض ، حتى دفع جثة (رينيه) نحو المقنعين الخمسة ، ثم وثب وثبة أخرى ، صار بها وسط الرجال الخمسة مباشرة ...

وبسرعة لم تستوعبها حتى عقولهم ، تحركت قبضتاه ، وتحرك ساقاه ، لتنهال اللكمات والركلات على المقنعين الخمسة بلا هوادة ...

والعجيب أن ذلك القتال ، بين المقنعين الخمسة ورجل واحد ، لم يستغرق سوى ثلاث عشرة ثانية فحسب ...

وبعدها كان المقنعون الخمسة ملقين أرضًا فاقدى الوعى ...

وفى نفس اللحظة ، سمع (أدهم) دوى الرصاصات فى الخارج ...

وكما حدث مع (منى) ، قفز اسم واحد إلى ذهنه ...

اسمها ...

وفى سرعة مدهشة انتزع قناع أحد المقنعين مع مدفعه الآلى ، واستدار إلى جثة (رينيه) ، ليلتقط هاتفه من جيبه ، واندفع نحو النافذة ...

ووثب ...

لم تكن هناك ضرورة حتمية للوثب من النافذة ، ولكن (أدهم) لم يكن يرغب فى إضاعة ثانية واحدة ، فى اتخاذ المسار المضاد ؛ للخروج من القصر ...

قفز (أدهم) ، من ارتفاع ستة أمتار ، ليهبط على قدميه فى رشاقة ومرونة ، ثم انطلق يعدو ، متتبعًا دوى الرصاصات ، التى سرعان ما توقف ، على نحو أثار قلق (أدهم) أكثر وأكثر ...

ولأنه يعلم بالضبط أين كانت (منى) ، اتجه بأقصى سرعته نحو قاعة المراقبة ، وما أن بلغ بداية الممر المؤدى إليها ، حتى أدرك من هتاف قائد المقنعين الصارم ، أنه وصل فى اللحظة الأخيرة ...

أو بمعنى أدق ، فى اللحظة المناسبة ...

والأهم ، أنه أدرك أن (منى) لا تزال على قيد الحياة ...

وعلى الرغم من أن (أدهم) يبغض إراقة الدماء ، كما لا يبغض أى شيء آخر إلا أن حياة (منى) كانت تساوى عنده ما هو أكثر أهمية من الدم ...

لذا فقد أطلق النار ...

وعلى الفور ، استدار المقنعون ؛ ليتبادلوا معه إطلاق النار ..

ومن موقعه ، شاهد (منى) تثب إلى الممر ...

وشاهد ذلك المقنع يستدير إليها ...

ويرفع نحوها مدفعه ...

وتعالى دوى الرصاصات ...

فى عنف ...

* * *

« (واو أوزاكا) ... »

التفت (أوزاكا) إلى تلك الصينية الحسناء ضئيلة الجسد ، التى استقبلته فى مطار (دالاس) فى (واشنطون) العاصمة ، وبدا عليه حذر واضح ، وهو يسأل ، متطلعًا إلى ذلك الكاب العريض الذى يخفى نصف وجهها :

ــ من يرغب فى المعرفة بالضبط ؟!

منحته الصينية الحسناء ابتسامة ساحرة ، وهى تقول :

ــ لا داع للحذر (أوزاكا) سان ... أنا أعلم لماذا أنت هنا ، ولمن ستذهب .

تطلّع إليه (أوزاكا) فى صمت حذر ، فاتسعت ابتسامتها ، وازدادت جاذبية ، وهى تربت على كتفه ، قائلة فى مودة :

ــ اطمئن (أوزاكا) سان ... أنا جزء من عملية التفاوض ، على السلاح الجديد ...

تضاعف حذره ، وهو يقول :

ــ أى تفاوض؟!... وأى سلاح ؟!

أطلقت ضحكة عذبة قصيرة ، وقالت :

ــ من الواضح أننى لن أكتسب ثقتك أبدًا .

ثم أشارت بيدها إلى ما خلف ظهره ، مستطردة :

ــ إنه لكم .

استدار (أوزاكا) بحركة غريزية إلى حيث أشارت ، إلا أنه لم يجد شيئًا ، وعندما عاد ببصره إليها ، انعقد حاجباه فى دهشة

فالصبية الحسناء لم تكن حيث تركها ...

كانت قد اختفت ..

تماما ...

« أين ذهبت ؟!... »

ألقى مدير المخابرات الأمريكي السؤال في توتر ، وهو يتابع الأفلام ، التي التقطتها كاميرات المراقبة في صالة المطار ، فأجابه مساعده الأول في توتر :

ــ من الواضح أنها محترفة ، إلى حد كبير ، فما أن ابتعدت عن المقاومين الجدد ، حتى اتخذت مساراً مدروساً بدقة ، أبعدها عن كاميرات المراقبة ، وسط زحام صالة المطار ... ولقد أبدلت ثيابها حتماً بوسيلة ما .

غمغم مدير المخابرات في حنق :

ــ يكفي أن تنزع ذلك الكاب عن رأسها .

ثم تراجع متابعاً :

ــ أنت على حق ... إنها محترفة إلى حد فائق .

اعتدل مساعده ، وهو يقول :

ــ السـؤال هـو لماذا يا سـيادة الوزير ؟!... لمـاذا التقـت به في المطار ؟!... ماذا يمكن أن يفيدها هذا ؟!

انعقد حاجبا مدير المخابرات ، وهو يفكر في عمق قبـل أن يقـول في حزم :

ــ أعد عرض الشريط مرة أخرى .

أطاعه مساعده على الفور ، وأعاد عرض الشريط ، وراح المدير يتابعه بمنتهى الاهتمام ، حتى وصل إلى اللقطة ، التي ربتت فيها (تيا) على كتف (أوزالا) ، فهتف :

ــ أوقف المشهد .

أوقف المساعد العرض على الفور ، فمال مدير المخابرات نحو الشاشة ، وهو يتطلع في انتباه كامل ، مغمغماً :

ــ لماذا ربتت على كتفه ؟!

غمغم مساعده في حذر :

ــ كانت تريد بث الطمأنينة في نفسه .

أجابه مدير المخابرات في حزم حاد :

ــ كلا .. قم بتكبير الصورة إلى أقصى حد ممكن .

أطاع المساعد الأمر على الفور ، وقام بتكبير الصورة ، كما أراد مدير المخابرات الأمريكي ، ثم غمغم بنفس الحذر :

ــ لست أرى شيئاً .

ارتسمت ابتسامة على شفتي مدير المخابرات ، وهو يقول في ثقة :

ــ أما أنا ، فأرى .

وتصاعدت حيرة المساعد ...

ألف مرة ...

* * *

« ماذا يحدث عندكم ؟!... »

هتف قائد فرق المقنعين ، من سطح المركب الذى أحضرهم إلى قصر (ريتيه) بالسؤال ، عبر جهاز اتصال خاص محدود ...

هتف بالسؤال مرة ...

وثانية ...

وثالثة ...

ولكنه لم يتلق جوابًا واحدًا ، من أى من رجاله ، الذين انتشروا فى قصر (ريتيه) ...

كان قد رصد انفجار زورق (علاء) مع زورقى رجاله ، وأدرك أنه قد خسر ثمانية رجال بضربة واحدة ...

ولسبب ما ، فهو لم يبال كثيرًا ...

كل ما أقلقه هو مصير الفرقتين ، اللتين أرسلهما إلى القصر ...

ومع عدم تلقيه جوابًا ، التفت إلى الرجال الستة ، الذين تبقوا على سطح المركب ، وأشار إليهم ، قائلاً فى صرامة وإيجاز :

ـ هيا .

تحرك الرجال الستة ، وهم يرتدون أقنعتهم ، استعدادًا لهجوم إضافى ، عندما هتف أحدهما ، وهو يشير إلى حديقة القصر :

ـ هناك .

التفت الجميع إلى حيث يشير ، فوقعت أبصارهم على ثلاثة من رفاقهم المقنعين ، يجرون أقدامهم جرًا ، محاولين قطع حديقة القصر ، والعودة إلى المركب ...

كان أحدهما مصابًا إصابة واضحة فى ساقه ، والدماء تغرق سرواله ، وهو يجر نفسه جرًا ، فى حين يتعاون مع زميله ، الذى أغرقت الدماء كتفه فى حمل زميلهما الثالث المصاب فى صدره ، كما تقول الدماء على ثيابه ...

شاهد زعيم فرق المقنعين هذا ، فهتف بالمقنعين الستة من حوله :

ـ اتركوهم يعودون ، وقوموا أنتم بدوركم .

حملوا مدافعهم الآلية فى تحفز ، ووثبوا من المركب إلى المرسى الخشبى للقصر ، ودون أن يلتفتوا إلى زملائهم الثلاثة المصابين اندفعوا نحو القصر لشن هجومهم الاحتياطى ...

أما القائد ، فقد راح يتابع المصابين الثلاثة حتى بلغوا المركب ، فدفع اثنان منهما المصاب فى صدره إلى سطح المركب ثم صعدا بدوريهما إليه ...

وفى صرامة سألهم القائد :

ـ ماذا حدث هناك ؟!... لماذا لا يجيب [illegible]

أجابه ذلك المصاب في ساقه :

ــ ربما لأنه لم يعد هناك من يجيب .

تراجع القائد في سرعة ، والتقط مدفعه الآلي في توتر صائحًا :

ــ هذا الصوت !!... من أنت يا رجل ؟!

كان الرجل الذي يصوب إليه مدفعه مصابًا في ساقه ، والدماء تغرق سرواله ، وعلى الرغم من هذا ، فقد وثب وثبة بالغة القوة والرشاقة ، ليهبط على قيد متر واحد من قائد المقنعين ، وقبض بأصابع كالفولاذ على معصمه ، ورفع فوهة مدفعه عاليًا ، في نفس الوقت الذي اندفعت فيه يده الأخرى ، تقبض على عنق قائد المقنعين ، وهو يقول للمقنع الثالث ، الذي يبدو مصابًا في كتفه :

ــ انطلقي بالزورق يا (منى) ... دعينا نبتعد عن هنا .

انتزعت (منى) القناع الأسود عن وجهها ، وألقته بعيدًا ، تاركة شعرها الأسود الفاحم ينسدل على كتفيها حرًا ، وهي تتساءل في قلق :

ــ ولكن ماذا عن (علاء) ؟! ... لست أراه حولنا !!

كان قائد المقنعين يختنق ، بفعل أصابع أدهم ، الأشبه بكلابة من الصلب ، ولكنه غمغم في عصبية مختنقة :

ــ لو أنك تتساءلين عن زميلكم الثالث وزورقه ، فقد انفجر كلاهما ، وصارا رمادًا .

اتسعت عينا (منى) في ارتياع مصعوق ، وهي تغمغم :

ــ يا إلهي !... (علاء) !!

أما (أدهم) فقد شدد من ضغط أصابعه على عنق قائد المقنعين ، وهو يقول في غضب مخيف :

ــ أيها الوغد .

كانت (منى) تنطلق بالمركب بالفعل ، عندما هتف قائد المقنعين ، وهو يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة :

ــ لو أن هذا يريحكما فهو من نسف نفسه ، ليقضي على زورقين وثمانية رجال ، من أفضل رجالي .

أبعد (أدهم) يده عن عنقه ، وهو قول في غضب صارم :

ــ هذا لن ينفي أنك ما زلت وغدًا .

حاول قائد المقنعين أن يلتقط نفسًا عميقًا ، بعد أن أفرج (أدهم) عن عنقه ، إلا أن هذا الأخير باغته بلكمة كالقنبلة ، سمع لها فرقعة مخيفة في فكه ، قبل أن يسقط فاقد الوعي ...

ومع انطلاقتها بالمركب لم تستطع (منى) منع دموعها ، وهي تغمغم :

ــ (علاء) ... لست أصدق أننا ...

قبل أن تتم عبارتها ، فوجئت بـ (أدهم) يندفع نحو حاجز المركب ... ثم يثب في الماء ...

وارتفع حاجباها عن آخرهما ، ولكنها لم تفهم ما حدث ...

على الإطلاق .

* * *

الفصل الخامس عشر

« لم أعد أفهم شيئًا !!.. »

كانت (سونيا جراهام) تنفث دخان سيجارتها الرفيعة الطويلة فى استمتاع ، وهى تتطلّع عبــر نافــذة حجرتها الزجاجية إلى ذلــك المشهد البديع لثلــوج (سويسرا) ، على قمــة جبالها ، عنــدما صك مسامعها ذلك القول ، من مساعدها وحارسها الخاص (رودلف) ، فالتفتت إليه فى بطء ، قائلة :

ــ يلزمك ما يفوق ضعفى عمرك حتى تستوعب خطة واحدة ، من خطط (سونيا جراهام) .

أشار بيده ، قائلاً فى توتر :

ــ لست أستطيع إنكار هذا ، وفى معظم الأحيان أحاول ألا أتساءل حتى عما يحدث ، ولكن هناك أمر يكاد يثير جنونى ، من فرط غرابته وغموضه .

نفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، قبل أن تتخذ مقعدًا قريبًا ، بحركة أنيقة ، مفرطة فى الأنوثة ، ووضعت إحدى ساقيها فوق الأخرى ، وهى تقول فى هدوء :

ــ أى أمر هذا ؟!

عاد يشير بيده ، قبل أن يقول ، فى توتر متزايد :

ــ (أدهم صبرى) هذا .

هزّت كتفيها ، بحركة أنثوية أخرى ، قائلة :

ــ ماذا عنه ؟!

اندفع يقول فى عصبية :

ــ منذ عملت معه ، أعرف أنه ألد أعدائك ، وأن الخصومة بينكما تبلغ حد الكراهية الشخصية ، وعلى الرغم من هذا ، فقد استخدمنا ذلك البرنامج الخاص ، لإرسال رسالة إلى الكولونيل (بورتر) الأمريكى ، حاملة رقم مدير مخابراته ، وتحوى تفاصيل سلاحنا السرى ، و ...

قاطعته فى حدة :

ــ سلاحى السرى .

امتقع وجهه ، وهو يغمغم :

ــ هذا ما قصدته بالتأكيد .

ثم عاد يكمل :

ــ وكنا نعلم أن المعلومة ستصل إلى (أدهم صبرى) هذا ، وسيعرف طبيعة سلاحنا .. أقصد سلاحك السرى ، فلماذا تكشف سرنا ، لألد أعدائنا ؟!..

التمعت عيناها ، وهى تجيب :

ــ لأنه ليس ألد أعدائنا وحدنا .

قالتها ، وألقت سيجارتها إلى ركن الحجرة ، على نحو همجى ، لم تستطع التخلص منه بعد ، وأشعلت سيجارة أخرى فى بطء ، نفثت دخانها فى الهواء فى بطء أكثر ، وكأنها تتعمّد إثارة أعصاب (رودلف) ، قبل أن تتابع :

ــ إنه أيضًا من ألد أعداء الأمريكيين ، وما أن يعلموا أنه قد صار داخل اللعبة ، ويعرف أدق أسرارها ، حتى يقوموا بأحد أمرين ، أبسطهما ربح لنا .

تساءل فى لهفة :

ــ وما هما ؟!

نقلت دخان سيجارتها مرة أخرى ، فى بطء واستمتاع ، ثم أجابت :

ــ إما أن يطلقوا كل جيوشهم خلفه ، فينشغل بالصراع معها عنا ، ويستهلك وقته كله فى قتالها ، وإما أن يسارعوا لعقد الصفقة ، والحصول على السلاح ، قبل أن يفسد (أدهم) الأمر كله ، خاصة وأنهم يعلمون جيدًا من هو (أدهم صبرى) ، وما الذى يمكن أن يفعله .

وصمتت لحظة ، ثم أضافت فى استمتاع أكثر :

ــ والأرجح أنهم سيقومون بالأمرين معًا .

تطلَّع إليها (رودلف) لحظات فى صمت ، ثم انحنى أمامها على نحو أشبه بانحناءة فرسان القرون الوسطى ، أمام جمال الأميرات ، وقال :

ــ سيدتى .. إننى أعترف لك بالعبقرية .

غمغمت (سونيا) فى استهزاء :

ــ حقًا .

ثم أطلقت ضحكة عالية ساخرة ...

ضحكة جعلت (رودلف) يدرك أنه بالفعل أمام أفعى ...

أفعى رقطاء ، شديدة السمية ...

وإلى أقصى حد ...

* * *

على الرغم من أن المركب لم يكن قد ابتعد كثيرًا عن القصر (رينيه) ، إلا أن (منى) أوقفت محركاته ، واندفعت نحو الحاجز ، الذى شاهدت (أدهم) يقفز منه إلى البحر ، وعقلها يكاد ينفجر ، من التساؤل ، عن السبب الذى دعاه إلى القفز فى الماء ، على هذا النحو ...

ارتكنت على حاجز المركب ، ومالت بجسدها كله بحثًا عنه ، قبل أن تتزايد دقات قلبها فى عنف ...

فعلى سطح الماء ، وعلى مدى البصر ، لم يكن هناك أثر له ...

على الإطلاق ...

سرت فى جسدها قشعريرة باردة كالثلج ، ذكرتها بتلك التى أصابتها ، وهى تنتظر لحظة هجوم المقنعين ...

وعلى الرغم منها ، استعاد ذهنها مشاهد عديدة ...

وذكرى قريبة ...

للغاية ...

لقد وثبت إلى الممر ، إثر سماعها صوت تبادل الرصاصات ، وما أن خرجت من حجرة المراقبة ، حتى استدار إليها أحد المقنعين ، ورفع فوهة مدفعه نحو صدرها فى سرعة ، و ...

ودوت الرصاصات ...

رصاصات (أدهم) ، التى أصابت المقنع فى ساقيه ، وأسقطته أرضًا ، وهو يصرخ من الألم ..

وجاء دورها هى ، لتوقف صراخه بضربة قوية من كعب مسدسها على رأسه ..

أما (أدهم) ، فظل على ما اعتادته منه دومًا ...

يقاتل ، ويطلق النار فى غزارة ومهارة ...

ويريق الدماء ..

ولكنه لا يقتل أحدًا ...

فكل رصاصاته تطيح بمدفع آلى ، أو تصيب ذراع أحد المقنعين ، أو ساقه ...

والمقنعون يتساقطون ، ورصاصاتهم تطيش فى الهواء ، وتصيب سقف وجدران الممر ، وصرخات الألم تنبعث من حلوقهم ، كأطفال تلقوا عقابًا قاسيًا ، فى مرحلة التعليم الأساسى ...

الوحيد بين المقنعين ، الذى لقى مصرعه ، سقط برصاصات زميل له ...

أو بنيران صديقة ، كما يصفونها دومًا ...

والباقى كان الجزء الأسهل ...

ارتداء ملابس المقنعين وأقنعتهم ، وحمل المقنع الصريع ، حتى لا يثير عددهم الثلاثى الشبهات ، و ...

انقطعت أفكارها فجأة ، وانتفض جسدها فى انفعال شديد ، مع ما حدث فى اللحظة التالية ...

والذى لم تتوقعه ...

على الإطلاق ...

* * *

انعقد حاجبا الرئيس الأمريكى فى توتر ، عندما تلف (واو أوزاكا) إلى مكتبه البيضاوى ، فى العاصمة (واشنطن) ، وحاول مستشار الأمن القومى السيطرة على انفعاله ، فى حين نهض وزير الدفاع ، يعقد الزر الأوسط فى سترته ، وهم بمصافحة (أوزاكا) ، ولكن مدير المخابرات سبقه إليه ، وقال باليابانية ، وهو يصافحه :

ـ (أوزاكا) سان ... مرحبا بك فى البيت الأبيض ... اسمح لى ..

قالها ، ثم مد يده ليخلع سترة (أوزاكا) ، الذى تشبث بسترته ، وهو يقول فى عصبية :

ـ أنا أجيد الإنجليزية جيدًا ، ويمكنك التحدث بها ، ولكن اشرح لى أولاً ، ما شأن سترتى بالأمر .

ولدهشة الجميع ، وضع مدير المخابرات سبابته على شفتيه ، مشيرًا إليه بالصمت ، وهو يقول :

ـ إنه تقليد من تقاليد المكتب البيضاوى (أوزاكا) سان .

تراجع (أوزاكا) ، فى مزيج من الشك والعصبية ، ولكن مدير المخابرات أصرَّ على مضاعفة دهشة الجميع ، وهو يستخدم لغة إشارة عجيبة ...

والأعجب أن (أوزاكا) قد استوعبها ، بدليل أنه قد استسلم تمامًا لمدير المخابرات ، وهو ينزع سترته ، ثم يخرج من جيبه عدسة كبيرة ، ووضع السترة مقلوبة ، على سطح أقرب منضدة ، ثم راح يفحص ظهرها بعدسته فى اهتمام ...

المدهش هو أنه ، وعلى الرغم من أن أحدًا لم يتلق أية ملاحظات ، فقد لاذ الكل بالصمت ، على نحو غريزى ، وهم يراقبون ما يفعله مدير المخابرات ، بمزيج من القلق والفضول ، و ...

وفجأة ، ابتسم مدير المخابرات فى ظفر ...

وشعر الكل بلمحة من الارتياح ...

ثم عادت الدهشة تملأ نفوسهم ، عندما أخرج مدير المخابرات من جيبه ملقطًا صغيرًا ، التقط به شيئًا لم يروه ، من ظهر سترة (أوزاكا) ، قبل أن يستدير ، ليأخذ كوب مياه من أمام الرئيس ، ويلقى فيه ذلك الشىء ، دون أن يروه أيضًا ...

وفى دهشة ، مال وزير الدفاع ، محاولاً رؤية ذلك الشىء ، وهو يغمغم :

ـ أين هو ؟!

غمغم (أوزاكا) فى نفس الوقت ، فى توتر ملحوظ :

ـ أهو ما أتوقعه .

أجابه مدير المخابرات ، وهو يعتدل فى ظفر :

ـ بالضبط ... أحدث جهاز تنصت دقيق ... مصنوع بالكامل من كريستالات شفافة ، بحيث لا تمكن رؤيته ، إلا للمدقق بشدة ، على الرغم من قدرته على نقل الأصوات ، عبر جدران سميكة ، إلى مسافات بعيدة ... والوسيلة الوحيدة لإتلافه هى ...

قاطعه (أوزاكا) ، منفعلاً فى عصبية ملحوظة :

ـ أن تغمره بالماء .

ابتسم مدير المخابرات ، وأومأ له برأسه ، فأجاب (أوزاكا) هذا بانحناءة كبيرة ، ثم اعتدل قائلاً فى صرامة :

ـ إذن فالصينيون يعرفون هويتى الآن .

أجابه وزير الدفاع فى سرعة :

ـ طبعًا ... أنت تحت حمايتنا .

التفت إليه (أوزاكا) ، قائلاً بنفس الصرامة :

ـ أشكرك ، ولكننى دومًا أجيد حماية نفسى بنفسى .

كان مدير المخابرات يهم بإلقاء سؤال عليه ، عندما قال الرئيس فى توتر ، وهو ينظر بإمعان إلى كوب الماء :

ـ ما زلت أعجز عن رؤية ذلك الجهاز ، الذى تتحدثون عنه .

التفت إليه مدير المخابرات مجيبًا :

ـ لأنه مصنوع من الكريستال الشفاف يا سيادة الرئيس ، مما يجعله أشبه بالماس ... لا يمكنك أن تراه وسط مياه [illegible] .

تنحنح (أوزاكا) ، وكأنه يلفت انتباههم جميعًا إليه ، وشد قامته فى اعتداد ، وهو يقول فى حزم :

ـــ أفترض أنه فى وجود أقوى أربعة رجال فى الولايات المتحدة كلها ، لن نضيع الوقت فى مناقشة ما علق بسترتى .

انعقد حاجبا الرئيس ومستشار أمنه القومى فى دهشة مستنكرة ، فى حين رفع وزير الدفـاع حاجبيه عـن آخرهما ، وبقى مدير المخابرات متماسكًا ، وهو يقول :

ـــ ولكنك رأيت تلك الصينية وجهًا لوجه ، وكنا نريدك أن تصفها لقسم الفنى لدينا ...

قاطعه (أوزاكا) فى صرامة :

ـــ فيما بعد يا رجل ... فيما بعد .

ودون أن يدعوه أحد ، اتخذ أقرب مقعد لمكتب الرئيس ، وهو يضيف بنفس الصرامة :

ـــ أما الآن ، فدعونا نناقش الشروط الجديدة للصفقة .

هتف الرئيس مستنكرًا :

ـــ شروط جديدة ؟!... أهى صفقة عبثية أم ماذا ؟!

تجاهل (أوزاكا) هذا القول تمامًا ، وقال فى حزم :

ـــ استمعوا وأنصتوا جيدًا .

ثم بدأ يلقى عليهم الشروط الجديدة للصفقة ..

وتفجرت دهشة استنكارية فى نفوسهم جميعًا ...

بلا استثناء ...

* * *

« (علاء) .. »

هتفت (منى) بالاسم ، فى مزيج من الدهشة والفرح ، عندما صعد (أدهم) إلى سطح الماء ، وهو يحمل (علاء) ، الذى تنزف الدماء من جسده ..

ودون أن تضيع ثانية إضافية فى دهشتها ، أسرعت تلقى سلم المركب نحو (أدهم) ، الذى أمسك به ، وتسلقه بيد واحدة ، وهو يحمل (علاء) باليد الأخرى ...

وقبل أن يصل الاثنان إلى السطح ، سمعت (منى) حركة خلفها ، فحاولت أن تستدير لمعرفة سببها ، إلا أنها فوجئت بقائد المقنعين ، الذى استعاد وعيه ، ينقض عليها من الخلف ، صارخًا :

ـــ أخطأ زميلك بترك امرأة منفردة على سطح المركب أيتها العربية .

ضربت (منى) قدمه بقدمها بمنتهى القوة ، ثم غاصت بمرفقها فى معدته ، على نحو جعله يشهق من فرط الألم ، ويفلتها مرغمًا ، فدارت بجسدها فى رشاقة ، وركلته فى معدته فى قوة ، قائلة :

ـــ وأنت أخطأت مرتين أيها الحقير .

ودار جسدها حول نفسه دورة كاملة ، لتركله بقدمها الأخرى فى وجهه وهى تكمل :

ـ مرة عندما تحدثت إلى امرأة فى وقاحة .

كان يترنح من الألم ، عندما حسمت القتال بلكمة مباشرة فى أنفه ، مضيفة :

ـ ومرة عندما أسأت تقدير نساء العرب .

سقط قائد المقنعين على ظهره ، عائدًا إلى حالة فقدان الوعى ، فى حين بلغ (أدهم) سطح المركب ، وحرص على وضع (علاء) المصاب فى رفق ، قبل أن يثب هو إلى السطح فى رشاقة ، قائلاً فى هدوء :

ـ قتال لا بأس به .

هتفت فى لهفة جزعة :

ـ ألهذا قفزت إلى الماء ؟

أجاب ، وهو يحاول إسعاف (علاء) :

ـ كان يصارع فى استماتة ، ولكن جرحه جعله أضعف من أن يطيل المقاومة ... ومن حسن الحظ أن لمحته فى الوقت المناسب .

لم يكن (علاء) يبدى حراكًا ، فغمغمت فى توتر :

ـ هل تعتقد ...

أجابها فى سرعة :

ـ إنه حى ... لقد نزف الكثير من الدماء ، وسيحتاج إلى علاج طبى خاص ... أجرى اتصالك بالملحق الطبى للسفارة المصرية ، ورتبى معهم موعد ومكان اللقاء ؛ ليقوموا بنقله إلى مستشفى خاص ، وانطلقى بنا من

هنا ، فى حين أتولى أنا إسعافه ... هيا سيعود هؤلاء المقنعون سريعًا ، عندما يدركون الخدعة ...

مع آخـــر عبـــارته ، بدأت الرصاصات تنطلق بالفعل من أمام قصر (رينيه) ، فدفعت منى ذراع الحركة ، وانطلق المركب يشق طريقه مبتعدًا ، وذهنها لا يحوى سوى تساؤل واحد ..

هل سينجو (علاء) ؟!...

هل ؟!..

* * *

فى تلك الحجرة الصغيرة خافتة الإضاءة ، فى مؤخرة مطعم الحى الصينى ، جلس ذلك الصينى الأصلع صامتًا ، جامدًا كتمثال من رخام بارد ، وهو يتطلع بنظرة فاحصة إلى (ليا) ، التى بدت متململة كعادتها ، قبل أن تقول فى شىء من الحدة :

ـ هل سنمضى اليوم كله فى التأملات ؟!

أطل الغضب من عينى الصينى الأصلع ، إلا أنه لم ينعكس على ملامحه التى ظلت جامدة صارمة ، والتى واصلت جمودها مع صمته لدقيقة أخرى ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ إذن فقد كنت تعلمين أنهم سيكتشفون جهاز التنصت !

حرّت كتفيها الصغيرين ، وهى تجيب :

ـ إنهم محترفون ، وليسوا أغبياء .



قال فى صرامة ، تحمل لمحة من الغضب :

ـ لماذا كان هذا إذن؟!

ابتسمت فى خبث ، وهى تجيب :

ـ نفس ما يفعله الحواة ... اجذب الانتباه إلى أمر ، لأخفى أمرًا آخر .

تساءل فى حذر :

ـ مثل ماذا ؟!

ازدادت ابتسامتها خبثًا ، وهى تجيب :

ـ انتظر لترى .

بدا الغضب واضحًا ، فى ملامحه وصوته ، وهو يقول :

ـ عندما ألقى سؤالاً ، أنتظر جوابًا صريحًا مباشرًا .

هزّت كتفيها ، قائلة فى صرامة :

ـ وماذا لو أننى أريد مفاجأتك ؟!

احتد قائلاً :

ـ ليس هذا من حقك .

رمقته بنظرة صامتة ، لا تحمل شيئًا من شبح الابتسامة الساخرة ، التى ارتسمت على شفتيها ، واستغرق صمتها ما يقرب من ثلاثين ثانية ، ثم أقدمت على آخر شىء ، كان ممكن للصينى الأصلع أن يتصوّره أو يتوقعه ...

لقد استدارت ، وغادرت الحجرة ...

ودون أن تجيب ...

ولو بحرف واحد ..

واحتقن وجه الصينى الأصلع فى شدة ...

إنها قطته ، من يفترض أنها تعمل تحت إمرته ، كان يتجاوز كل الحدود ...

كلها ...

كاملة ...

* * *

انعقد حاجبا الجنرال (كواليسكى) فى شدة ، وهو يتطلع إلى (سيرجى موروف) نظرة طويلة صارمة ، قبل أن يقول فى خشونة طبيعية :

ـ (سونيا جراهام) ؟!... هل تعتقد حقًا ، أن عميلة (الموساد) السابقة هذه ، يمكن أن تكون خلف عمل جبار كهذا ؟!

أجابه (سيرجى) ببروده المعهود ، الذى التصقت به صرامة دائمة :

ـ عميلة (الموساد) السابقة لم تعد مجرَّد عميلة ، منذ زمن طويل ... لقد استغلت جمالها الشديد ، مع سحرها وجاذبيتها ؛ لتصبح واحدة من أقوى زعيمات منظمات الجاسوسية الحرة فى العالم ... وخبرتها وذكاؤها فى مضمار عملها السابق ، جعلاها تقترب من القمة فى مجالها الجديد ، حتى أن منظمتها صارت تملك مليارات ، تفوق ميزانيات دول كبرى ، ولو وضعت يدها على سلاح كهذا ، يمكنها أن تصبح أقوى من الولايات المتحدة الأمريكية نفسها .

مال الجنرال (كواليسكى) نحوه ، يسأله فى اهتمام :

ــ لو أنها تملك حقًا ذلك السـلاح الجبـار ، فلمـاذا لا تحتفظ به لنفسها ؟!... إنها تستطيع استخدامه لابتزاز كل دول العالم ، والفوز بمليارات لا حدود لها .. إما أن يدفعوا ، أو تنسف كبريات مدنهم .

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثين ، وهو يغمغم :

ــ سؤال جيد ، يستحق التفكير بالفعل يا جنرال .

وفى أعمق أعماقه ، تكرّر ذلك التساؤل فى قوة ...

لماذا حقًا لم تستغل (سونيا) هذا السلاح لصالحها ؟!...

لماذا ؟!...

لماذا؟! ...

* * *

« سينجو بإذن الله ... »

نطق الملحق العسكرى للسفارة المصرية العبارة فى ارتياح ، وهو ينهى محادثة هاتفية مع الملحق الطبى ، ثم تطلّع إلى (أدهم) و(منى) ، اللذين يجلسان أمامه ، مكملاً :

ــ تدريباته القديمة جعلته يثب مـن زورقه ، قبـل الارتطام بلحظة واحدة ، ولكن الرصاصة التى أصابته كانت تودى بحياته ، لولا أن أنقذناه ، بعون الله سبحانه وتعالى .

أغمضت (منى) عينها ، وهى تغمغم فى خشوع :

ــ حمدًا لله العلى العظيم .

نهض (أدهم) من مقعده ، قائلاً :

ــ الحمد لله ... أرجو أن تنقل إليه تحياتنا ، عندما يكمل استعادة وعيه ، فأنت تعرف ضرورة أن نتحرك فى سرعة ، قبل أن تكمل زعيمة الإرهاب مهمتها القذرة .

اعتدل الملحق العسكرى بحركة حادة توحى بالمفاجأة ، فى حين هتفت (منى) :

ــ زعيمة ؟!.. ومن أين علمت أن الذى يرأس كل هذا امرأة ؟!..

ارتفع رنين الهاتف فى تلك اللحظة ، فالتقط الملحق العسكرى سماعته ، واستمع إلى محدثه فى اهتمام ، فى نفس الوقت ، الذى أجاب فيه (أدهم) (منى) :

ــ (رينيه بولار) أخبرنى ، دون أن يدرى .

سألته فى دهشة :

ــ وكيف هذا ؟!

أشار بسبابته ، قائلاً :

ــ لأنه يتحدث الفرنسية ... فلو أنه يتحدث الإنجليزية ، لما أخبرنى ؛ فالإنجليزية لغة متعادلة الفعل ، لا فارق فيها بين الفعل المذكّر والمؤنث ، أما الفرنسية ، فالفارق فيها بين الفعلين واضح[*] ، وهو تحدث عمن يعد الخطط ويصدر الأوامر بصيغة المؤنث .

(*) حقيقة .

انعقد حاجبا (منى) ، وهى تفكر فى عمق ، مغمغمة :

— إذن فهى زعيمة !!.. قل لى .. ألا يدفع هذا إلى رأسك اسمًا بعينه ؟!..

« مشكلة خطيرة .. »

قطع الملحق العسكرى إجابة (أدهم) بعبارته ، فالتفت إليه هذا الأخير مع (منى) ، فى تساؤل جمعهما ، فاستطرد فى لهجة تشف عن خطورة الموقف :

— الشرطة الفرنسية وزّعت صورًا لك يا سيادة العميد ، ولسيادة الرائد (منى) ، على كل نقاط الأمن فى (فرنسا) كلها ، وبخاصة عند نقاط الحدود والمطار والموانى .

وعلى الرغم من خطورة الأمر ، ابتسمت (منى) ، قائلة :

— بالنسبة لنا ، لن يمثل هذا مشكلة كبيرة ، فقد أمدتنا (قدرى) بالفعل بجوازات سفر احتياطية و ...

قاطعها الملحق العسكرى ، فى توتر ملحوظ :

— لو أن الأمر يقتصر على الصور ، لما شعرت أنه بهذه الخطورة ، خاصة وأنا أعرف جيدًا مهارات سيادة العميد ، فى مضمار التنكر ، ولكن المشكلة أنه هناك جهة ما ، يقال إنها دولية ، زوّدت كل نقاط الأمن بشاشات خاصة ، لكشف كل أنواع التنكر ، بوساطة الأشعة فوق الحمراء .

التفت (أدهم) و(منى) إلى بعضهما البعض ، دون كلمة واحدة ، ولكن ملامحهما شفت عن إدراكهما أنهما أمام مشكلة خطيرة بالفعل ...

خطيرة للغاية .

* * *

الفصل السادس عشر

وجوم عجيب ، ذلك الذى ساد المكتب البيضاوى ، لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، بعد أن انتهى (أوزاكا) من حديثه ، وجلس فى ثقة ، يضع إحدى ساقيه فوق الأخرى ، ويدير عينيه ، بنظرة متحدية قوية ، فى العيون التى تحدق فيه ذاهلة ، قبل أن يقطع الرئيس الأمريكى حالة الصمت والوجوم ، وهو يقول فى صرامة ، لم تخل من توتر ملحوظ :

ـ أعد ما قلته مرة أخرى (أوزاكا) سان ؛ فأنا أريد التأكد من أننى لم أخطئ الفهم ، أو تجاوزت نقطة من النقاط .

أشار (أوزاكا) بيده فى غطرسة ، قائلاً :

ـ الأمر أبسط من أن تتجاوز إحدى نقاطه ، أو تعجز عن فهمه يا سيادة الرئيس ... المنظمة التى أعمل لحسابها ، تمهلكم أربعاً وعشرين ساعة ؛ لتدبير وإيصال مائتى مليار دولار ، إلى تلك الجزيرة الصغيرة فى (أندونسيا) ، على أن تكون كلها من فئة المائة دولار ، ويتم إلقاؤها من طائرة ، على بعد ميل بحرى واحد من الشاطئ الغربى للجزيرة ، وهى محاطة بغلاف من المطاط ، غير القابل للغرق ، وبعدها بأربع وعشرين ساعة أخرى ، ستصلكم قنينة تحوى ذلك السائل الجبار الجديد ، مع تعليمات الاستخدام .

كان مدير المخابرات هو أول من تحدث ، قائلاً فى صرامة :

ـ نحن نعلم كيفيـة الاستخدام ، عبـر مكالمة هاتفية واحـدة ، ولكن ما تقوله عليه الكثير من التحفظات .

سأله (أوزاكا) فى هدوء :

ـ مثل ماذا ؟!

اندفع وزير الدفاع قائلاً فى شىء من الحدة :

ـ تصاعد الرقم المطلوب فى كل مرة إلى حد يفوق الاحتمال ، وضمانات تسليم كل كمية السائل ، وعدم بيع كمية إضافية لدولة أخرى ، و ...

قاطعه (أوزاكا) فى صرامة :

ـ وماذا عن ضمانات عدم تعقبكم للمبلغ ، وعدم تسجيل أرقام الدولارات ، أو تزويدها بحبر مغناطيسى خاص ؟

أجابه مستشار الأمن القومى فى حدة :

ـ هل تعتقد أننا نستطيع فعل هذا ، فى أقل من أربع وعشرين ساعة فقط ؟!

ابتسم (أوزاكا) ابتسامة لم ترق لأى منهم ، وهو يقول :

ـ وماذا عن تلك الدولارات الخاصة ، التى تحتفظون بها ، فى قبو مؤمن فى (لانجلى)[*] ، من أجل أمور كهذه[**].

انعقد حاجبا مدير المخابرات ، وهو يغمغم :

ـ من الواضح أنك تعلم الكثير عنا (أوزاكا) سان .

(*) لانجلى : المقر الرئيسى للمخابرات المركزية الأمريكية .

(**) حقيقة ، فالأمن القومى الأمريكى يحتفظ بالفعل بمقدار كبير من الدولارات ، من مختلف الفئات ، مزودة بشريط مغناطيسى خاص بالغ الدقة ، يسمح بتعقبها [illegible] فى ظروف خاصة .

هزّ (أوزاكا) كتفيه ، قائلاً :

ـ عشرون عامًا من العمل فى المخابرات ، ليست بالأمر الهين .

ثم اعتدل بحركة مفاجئة ، مضيفًا فى صرامة :

ـ ولكن كل محاولاتكم ، ومهما فعلتم ، لا تعنى شيئًا ؛ لأن من أصل لحسابهم لديهم وسيلة مضمونة ؛ لمنعكم من القيام بأى إجراء .

اعتدل الرئيس الأمريكى ، قائلاً فى توتر :

ـ أية وسيلة ؟!

أشار (أوزاكا) بيده ، مجيبًا :

ـ هاتف محمول .

كان من الواضح أن مدير المخابرات هو وحده قد استوعب ما يعنيه الجواب ، مع تراجعه بحركة حادة متوترة ، فى حين أطلّت نظرة متسائلة من عيون الآخرين ، جعلت (أوزاكا) يتابع :

ـ كل ما سيتطلبه الأمر هو مكالمة هاتفية واحدة ، وتمحى اثنتان من مدنكم من الخريطة الأمريكية إلى الأبد ، كما تم محو تلك الواحة المصرية .

شحبت الوجوه كلها فى توتر ، وتبادل الكل نظرة عصبية ، قبل أن يقول الرئيس الأمريكى ، فى لهجة أن يجعلها صارمة :

ـ (أوزاكا) سان ... أظننا نحتاج إلى بعض الوقت ، لمناقشة هذا العرض فيما بيننا .

ألقى (أوزاكا) نظرة على ساعة يده ، وقال :

ـ لكم هذا ، ولكن الطائرة التى ستقلع إلى (بكين) أمامها أقل من ثلاث ساعات ، وما لدى من أوامر يقول : إنه إن لم أحصل على قرار فورى ، فعلى السفر إلى (الصين) مباشرة ، حيث ينتظرنى وزير دفاعهم ، على أحر من الجمر .

ومرة أخرى ، تبادل الكل نظرة صامتة ...

ففى أعماق كل منهم انكسر شىء عاشوا به طويلاً ...

الغرور ...

الغرور الأمريكى ...

العظمة ...

* * *

« هاتف (رينيه) سيفيدنا كثيرًا بالفعل ... »

قالتها (منى) ، وهى تجلس أمام شاشة كمبيوتر كبيرة ، فى السفارة المصرية فى (باريس) ، فسألها (أدهم) فى اهتمام :

ـ هل حدثت اتصالاته ، خلال الأسبوع المنصرم ؟!

أشارت بيدها ، مجيبة :

ـ لقد راجعت كل الاتصالات ، وتعقبت كل مكالمة تلقاها ، وكلها من داخل (فرنسا) ، فيما عدا ثلاثة اتصالات .

مال نحو شاشة الكمبيوتر ، يسألها :

ــ من أين تلقاها ؟!

أشارت إلى الهاتف ، المتصل بجهاز الكمبيوتر ، وهى تقول :

ــ مكالمتان مجهولتا المصدر ، ومكالمة واحدة من (زيورخ)[*]

اعتدل (أدهم) ، وهو يغمغم فى اهتمام :

ــ (زيورخ) ؟!

التفتت إليه (منى) ، تسأله :

ــ ما الذى يدور فى ذهنك ؟!

أشار بيده ، قائلاً ، وهو ما زال مستغرقًا فى تفكيره :

ــ إدارة أمر شديد التعقيد ، إلى هذا الحد ، يحتاج حتمًا إلى خبرة كبيرة ، وإلى شخصية قيادية جريئة ، بلا مشاعر أو مبادئ ، وتمتلك فى الوقت ذاته من المال والقوة ، ما يتيح لها أن تواجه وتتحدى دول كبرى ، دون أن يطرف لها جفن .

غمغمت تسايره :

ــ هذا صحيح .

تخفض بعينيه إليها ، وهو يكمل :

ــ ولو علمنا أن من وراء كل هذا هو امرأة ، فكم من نساء الأرض تعرفينهم ، ويتميزون بكل هذا .

(*) زيورخ : أكبر مدن (سويسرا) وأكثرها أمنًا وأمانًا ونظافة وهدوءًا ، تمتاز بوجود أكبر شركات الخدمات المصرفية ، وبالجمع بين القديم والحديث .

صمتت لحظة ، ثم أجابت فى بطء :

ــ اثنتان ... (دونا كارولينا)[*] ، و(سونيا جراهام) .

عاد إلى تفكيره العميق ، وهو يقول :

ــ منظمة (المافيا) ، ومنذ تكوينها ، لم تسع قط للصدام مع الدول ، أو مع الأنظمة السياسية ، ولقوة دونا لا يتعدى حدود تعاملاتها ، فى (أوروبا) والأمريكتين ... تتبقى لنا إذن ...

هتفت (منى) فى انزعاج :

ــ (سونيا) .

صمت بضع لحظات ، وكأنه يعيد إدارة الأمر فى رأسه مرات ومرات ، قبل أن يقول فى بطء :

ــ فى عملنا ، من الخطأ أن نتخذ إجراءات وخطوات حيوية ، بناء على استنتاج محض ، دون معلومات أو أدلة يقينية .

خفت صوتها ، وهى تغمغم :

ــ ولكن ..

أشار إليها ، وهو يقول فى حيوية مفاجئة :

ــ بالضبط ... ولكن ...

لم تستوعب كلمته فى البداية ، ولكنه تابع فى سرعة ، وبنفس الحيوية :

(*) راجع قصة (دونا كارولينا) المغامرة رقم (60) [illegible] (رجل المستحيل)

ـ ولكن هذه ، فيها يكمن الأمر كله ... هذا لأننا لسنا فى مواجهة عادية ، وليس لدينا ما يكفى من الوقت ؛ للحصول على معلومات يقينية ، من مصدرين مختلفين ، كما تقتضى الأوامر والقواعد ، لذا فليس أمامنا ، مع ضيق الوقت المتاح ، سوى (لكن) هذه .

تساءلت فى حذر :

ـ محطتنا التالية هى (زيورخ) فى (سويسرا) إذن .

قبل أن يجيبها (أدهم) ، دلف الملحق العسكرى للسفارة إلى الحجرة ، وهو يقول :

ـ أبلغتهم كل ما طلبته يا سيادة العميد .

التفت إليه (أدهم) ، متسائلاً :

ـ وماذا عن وسيلة الانتقال ؟!

هزّ الملحق العسكرى كتفيه ، مجيبًا :

ـ إنها ليست تقليدية بالتأكيد ، ولكننا حصلنا ، بصورة دبلوماسية شديدة الصعوبة ، على موافقة السلطات هنا ، على اعتبارها مماثلة لسيارات السفارة ، ذات الصفة الدبلوماسية ، لمدة رحلة واحدة ، تفقد بعدها هذه الصفة .

وتنهّد فى توتر ، قبل أن يكمل :

ـ ولقد قضيت ما يقرب من نصف الساعة ، فى جدال مع المسئولين ؛ لإقناعهم بأن هوية من سيستقل الوسيلة أمر يخص السفارة وحدها ، بموجب الاتفاقيات الدولية ، على الرغم من الظروف الاستثنائية الخاصة .

تطلّعت إليه (منى) لحظة ، ثم التفتت إلى (أدهم) ، متسائلة :

ـ كيف أمكنك تجاوز الأمر ، على هذا النحو ؟!

ولم يجب (أدهم) مباشرة ...

ففى ذهنه ، كان يسترجع كلمات قديمة ...

كلمات سمعها من والده الراحل ، منذ زمن طويل ...

« البساطة يا (أدهم) ... فى عالم معقّد كعالمنا ، كثيرًا ما تبعد البساطة من أذهان المحترفين ، لذا فهى تنتصر دومًا على العقول المتخمة بالتعقيدات ... تذكر ما أقوله جيدًا يا (أدهم) ، وسوف تستوعبه مع الزمن ... إنه من الأعقد أن تكون بسيطًا فى هذا العالم .. »

ارتسمت على شفتيه ابتسامة حزينة ، وهو يسترجع هذا ، فهتفت به (منى) متزعجة :

ـ (أدهم) .

انتزعه هتافها من ذكرياته ، فتنهّد على نحو مسموع ، وغمغم :

ـ من الأعقد أن تكون بسيطًا فى هذا العالم .

أطلت دهشـــة حائرة ، مـــن عينى الملحق العســكرى فى حين غمغمت هى :

ـ ماذا ؟!

واتسعت ابتسامة (أدهم) الحزينة ...

اتسعت دون جواب ...

على الإطلاق ...

* * *

رفع (ريتشار بورتر) منظاره المقرب إلى عينيه ، في اهتمام شديد ، على نحو جعل أحد رجاله يسأله في اهتمام :

ــ هل تثق في وجودهم هنا يا كولونيل ؟!

صمت (بورتر) بضع لحظات دون جواب ، ثم أشار بيده ، قائلاً :

ــ لا يوجد مكان لهم سوى هذا .

ثم خفض المنظار عن عينيه ، وألقى نظرة عادية على مبنى السفارة المصرية ، قبل أن يضيف :

ــ الأجهزة الأمنية هنا تعاونت معنا بإخلاص ، عندما أوهمناهم بأن المصري والمصرية ، هما من تسبب في كل الفوضى ، التي أدت إلى حدوث تفجيرات ، ومصرع (فليمون) ، والأجهزة التي زوّدناهم بها ، زادت من قناعتهم ، إلى الحد الذي جعلهم يرفعون درجات الاستعداد الأمني إلى الدرجة القصوى ، بحيث تصبح السفارة المصرية ، هي المكان الوحيد الآمن للمصريين ، ومن عاونهم من السفارة هنا .

غمغم الرجل :

ــ وهذا يعني عدم استطاعتهم مغادرتها أيضاً .

أشار (بورتر) بسبّابته ، قائلاً :

ــ بالضبط .

التقط الرجل نفساً عميقاً ؛ لتقوية إرادته ، ثم قال :

ــ فلماذا نحن هنا إذن ؟!

انعقد حاجبا (بورتر) ، وهو يجيب في حدة :

ــ لاصطيادهما ، إذا ما فقدا عقليهما ، وقرّرا الخروج والمواجهة .

كان يتصور أن حدته ستجعل رجله يتراجع ، إلا أن الرجـل قـال في عناد :

ــ ولكن ذلك المصري واسع الحيلة ، كما يقول ما أرسلوه لنا عنه ، ومن المحتمل أن ...

قاطعه (بورتر) ، في حدة صارمة :

ــ لا توجد أية احتمالات .

ثم التفت إليه ، قائلاً في حدة أكبر :

ــ ولكن ماذا تفعل أنت هنا ... اذهب واتخذ موقعك ، مع من يحيطون بالسفارة ... هيا .

أراد الرجل أن يخبره بأنه هنا ، بناءً على طلبه ، إلا أنه لم يفعل ، واستدار ليغادر المكان ، في نفس اللحظة التي ارتفع فيها هدير فوق رأسيهما ، جعل (بورتر) يرفع رأسه في حدة ، قبل أن ينعقد حاجباه في شدة ...

فالآن فقط ، اتفق مع رجله ، على أن (أدهم صبري) واسع الحيلة بالفعل ...

إلى أقصى حد ...

* * *

على الرغم من بروده الأسطورى المعروف ، بدا صوت (سيرجى كوربوف) متوترًا بعض الشيء ، وهو يقول لأحد رجال القسم الفنى بالمخابرات الروسية فى صرامة شديدة :

— ماذا تعنى بأنك لا تستطيع تحديد موقعها ؟! ... المفترض أننا نتابع كل زعماء المنظمات الكبيرة طوال الوقت .

ارتبك الفنى فى خوف ، وهو يشير إلى شاشة الكمبيوتر أمامه ، قائلاً :

— هذا صحيح يا جنرال ، ولكن المعلومات عنها تنتهى منذ عام وثلاثة أشهر ، فى جزيرة من جزر الكاريبى ، وبعدها ...

لم يتم عبارته ، ولكنه التصق فى مقعده ، مطبقاً شفتيه [illegible] ؛

— وكان هذا قبل أن أعمل هنا بأربعة وثلاثين يومًا .

رمقه (سيرجى) بنظرة ، كادت تدفعه إلى الغوص فى مقعده ، قبـل أن يقول الأول فى صرامة أكثـر ، حاول أن يخفى بها توتره :

— ابحث عن أى خيط يمكن أن يوصلنا إليها إذن .. راجع ملفها كله . سيرتها ... اهتماماتها .. عاداتها .. حساباتها البنكية ... جد أى شيء .. أى شيء ، يمكن أن نبدأ به بحثنا .

بدأت أصابع الفنى فى تنفيذ الأمر ، قبل حتى أن ينهى (سيرجى) حديثه فانعقد حاجبا هذا الأخير الكثان ، وهو يضيف فى غضب عجيب :

— وافعل هذا بأقصى سرعة ... وإلا ...

والتصق الفنى المسكين فى مقعده أكثر ...

وأكثر ...

وأكثر ...

* * *

« إذن فالتسليم سيتم فى جزيرة أندونيسية !!.. »

قالها الصينى الأصلع فى بطء هامس ، قبل أن يرفع عينيه إلى (تيا) ، مستطردًا فى صرامة ، لم يكن لها ما يبررها :

— أحسنت عندما غرست جهازى تنصت فى زى ذلك اليابانى أيتها العميلة .

قالت (تيا) فى صرامة ، بدت واضحة فى صوتها ، وليس فى ملامحها :

— اسمى (تيا) .

رمقها الأصلع بنظرة بالغة الصرامة ، قبل أن يقول :

— يبدو أنك قد نسيت أهم قاعدة فى عملنا أيتها العميلة .

تعمَّد الضغط على حروف كلمتيه الأخيرتين على نحو ملحوظ ، فاستقبلت (تيا) هذا بملامح جامدة ، جعلته يواصل بنفس الصرامة :

— لا يوجد من لا يمكن استبداله .

صمتت (تيا) لحظات ، ثم قالت فى بطء ، وفى هدوء ، لا يتناسب مع الموقف :

— هل تعنى أنك تريد استبدالى ؟!

أجابها بكل صرامة :

ــ أعنى أنه ليس من العسير استبدالك .

رمقته بنظرة طويلة صامتة ، ثم قالت فى بطء :

ــ هذا لا ينطبق على الجميع .

انعقد حاجباه ، وهو يسألها فى صرامة غاضبة :

ــ ما معنى هذا القول؟!

شدت قامتها ، وهى تجيب فى صرامة :

ــ ربما يعنى أننى أيضًا أستطيع استبدالك .

انعقد حاجباه أكثر ، وحملت نظرته إليها مزيجًا عجيبًا من الصرامة والتوتر ، ثم تحركت يده فى سرعة ، والتقط من جانب مقعده نجمة معدنية رباعية الأطراف ، ذات نصال حادة للغاية ، وألقاها نحو رأس (تيا) مباشرة ...

وبحركة رشيقة مدهشة ، تفادت (تيا) تلك النصال ، وسحبت مسدسًا صغيرًا من جراب خاص ، عند قمة جوربها ، ووثبت جانبًا ، وهى تطلق من فوهته ، المزوّدة بكاتم دقيق للصوت رصاصة واحدة ، امتزج صوتها المكتوم ، بصوت تلك النجمة الرباعية الحادة ، وهى تنغرس فى جدار الحجرة خلفها ...

واتسعت عينا الصينى الأصلع عن آخرهما ، وأطلت منهما نظرة ، هى خليط من الدهشة والألم وعدم التصديق ، وظهر ثقب صغير دموى فى

جبهته ، أعلى المسافة بين عينيه مباشرة ، سالت منه قطرات من الدم ، قبل أن يهوى جسده كله جثة هامدة ، فى منتصف حجرته خافتة الإضاءة ...

وفى هدوء ، تطلّعت (تيا) إلى جثته ، وهى تعتدل واقفة ، ثم استدارت تلقى نظرة على تلك النجمة ، التى انغرست فى الجدار خلفها ، ورفعت ثوبها القصير قليلاً ، لتعيد مسدسها الصغير إلى جرابه ، قبل أن تغمغم :

ــ دومًا كنت أرى هذه الحجرة الحقيرة أشبه بالقبر .

واستدارت فى هدوء تغادر الحجرة ، وتغلق بابها خلفها فى إحكام ، ثم عبرت المطعم الصينى بنفس الهدوء ، وما أن صارت خارجه ، حتى التقطت هاتفها المحمول ، وقالت فى اقتضاب :

ــ تم الأمر .

ثم أعادت الهاتف إلى موضعه ، وسرعان ما امتزجت بالمارة ، وتلاشت بينهم ...

تمامًا ...

* * *

احتقن وجه الكولونيل (بورتر) فى شدة ، وهو يتابع تلك الهليوكوبتر الصغيرة ، التى دارت فى السماء ، فوق سطح السفارة المصرية لحظات ، قبل أن تستعد للهبوط على السطح ، وغمغم فى مقت :

ــ يا لك من ثعلب ماكر أيها المصرى !!

ثم هتف بأحد رجاله :

ــ الناس ... أريد قناصًا من أفضل قناصينا

كانت الهليوكوبتر قد استقرت فعليًا ، على سطح السفارة المصرية ، عندما جاء ذلك القناص مسرعًا ، وهو يحمل بندقيته الخاصة ، المزودة بمنظار مقرب قوى ، وقال له (بورتر) ، فى صرامة عصبية :

ـ الهدفان سيخرجان الآن ، للصعود إلى تلك الهليوكوبتر هناك ... أريدك أن تصيبهما فور رؤيتهما .

رفع القناص يده بالتحية ، ثم رقد أرضًا ، ووضع بندقيته ذات المنظار على حامل تثبيت قوى ، وألصق عينيه بعدسة المنظار ، فى انتظار ظهور (أدهم) و(منى) ، فى حين قال (بورتر) فى عصبية :

ـ ذلك الثعلب المصرى يجيد التنكر إلى حد مذهل ؛ لذا أطلق النار على أى شخص ، يحاول ركوب الهليوكوبتر .

استقبل القناص الأمر ، وهو يحبس أنفاسه جيدًا ؛ حتى يضمن دقة إصابة الهدف ...

وعبر عدسة منظاره القوى ، شاهد رأسًا يبرز على السطح ...

ثم ظهر وجه (أدهم) ...

وكتم القناص أنفاسه تمامًا ...

وضغط زناد بندقيته القوية ...

ودوت رصاصة ، أصابت هدفها ...

وبمنتهى الدقة .

* * *

الفصل السابع عشر

« السيجارة الرفيعة » ..

نطقها الفتى فى انفعـــال ، وهـــو يرفع ورقـــة صغيرة ، أمام عينى (سيرجى) ، الذى ألقى نظرة سريعة عليها ، قبل أن يسأله فى صرامة :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابه الفتى فى حماس تلميذ ، توصل إلى حل معادلة حسابية معقدة :

ـ ملف (سونيا جراهام) يشير إلى أنها تدخن بشراهة ، نوعًا خاصًا من السجائر ، تحمل فى نهايتها شعارها ، الذى هو حرف (سين) بالإنجليزية (s) ، على شكل أفقى .

لمع حماســـه فى جذب انتبـــاه (سيرجى) ، الذى قال فى اهتمام :

ـ وأنت تتبعت هذا ؟!

أشار الفتى بيده ، مجيبًا :

ـ ليس هذا فحسب ، ولكننى توصلت إلى أسلوب تسليم تلك الطلبية الخاصة .

بدا (سيرجى) وكأنما انساب إليه انفعال الرجل ، وهو يقول :

ـ من يتسلمها ؟!.. وأين ؟!

مال الفتى نحوه ، مجيبًا فى ظفر حماس :

ـ متجر صغير فى (هامبورج) بألمانيا ، يحمل اسم (فراو سجاريت) أو (سيدة السجائر) بالألمانية ، يملكه (جوزيف ليخنشتاين) ، وهو

مجرم سابق ، تم العفو عنه ، ومحيت صحيفة سوابقه بوسيلة ما ، لم يتم ذكرها فى سجله .

تطلع (سيرجى) إلى الفنى لحظات فى صمت ، لا يحمل أى انفعال معروف ، فاعتدل هذا الأخير ، وتساءل فى قلق :

ـ هل أنجزت فروضى بنجاح يا جنرال ؟!

ظل وجه (سيرجى) يحمل ملامحه الباردة لحظات ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ عمل لا بأس به .

ثم التقط سماعة الهاتف الخاص إلى جواره ، دون أن يبالى بمزيج الحيرة والإحباط ، الذى ارتسم على وجه الفنى ، وقال فى حزم آمر :

ـ أريد طائرة خاصة إلى (ألمانيا) فورا ... لا ... لن نذهب إلى (برلين) ... سنهبط مباشرة حيث الهدف ... (هامبورج) .

وعندئذ ، ظهر الارتياح على وجه الفنى ...

لقد أيقن أنه أدى فروضه ...

وعلى أكمل وجه ...

* * *

انطلقت رصاصة قناص (بورتر) ، نحو الهدف الذى بدا له واضحًا ، عبر منظاره المقرب القوى ...

نحو رأس (أدهم صبرى) ...

مباشرة ...

ولأنه قناص محترف ، بل واحد من أفضل القناصين ، فى الجيش الأمريكى ، كان من المستحيل أن يخطئ إصابة هدفه ...

لذا فقد أصاب الهدف ...

وبمنتهى الدقة ...

والصمت ...

ولجزء من الثانية ، توقع أن يرى الدماء تتفجّر من رأس (أدهم) ، و ...

ولكن الجزء التالى من الثانية ، خيب كل توقعاته ...

وحمل إليه مفاجأة ...

مذهلة ...

فالدماء لم تتفجر من رأس الهدف ...

لقد انفجر الرأس بأكمله ...

وقبل أن يرتفع حاجبا (بورتر) وقناصه فى دهشة ، انطلقت رصاصة أخرى ، أطاحت ببندقية القناص ، وتبعتها ثانية ، حطمت منظار البندقية تمامًا ...

وهنا تفجّرت الدهشة كلها ، فى كيان [illegible] (بورتر) وفى كل خلية من خلايا قناصه المحترف ...

ففى هدوء ، وبابتسامة ساخرة ، نهض (أدهم) من أسفل غطاء خاص ، له نفس لون سقف السفارة ، وهو يحمل بندقية قنص ، ذات منظار شديد القوة ، وخرجت (منى) إلى السقف ، وهى تلقى بقايا الرأس الصناعى ، الذى كان يحمل وجه (أدهم) ، والمصنوع من مزيج من المولان والمصيص ، وأسرعت نحو الهليوكوبتر ، ولحق بها (أدهم) ، الذى توقف لحظة ، ليلصق على جانب الهليوكوبتر لوحة من البلاستيك ، تحمل بالفرنسية عبارة (هيئة دبلوماسية) ، ثم لوّح بيده للكولونيل ، الذى احتقن وجهه فى شدة ، عندما شاهد الهليوكوبتر ترتفع فى سماء (باريس) ، وسمع القناص إلى جواره يهتف فى انفعال :

ــ أبلغ السلطات لإسقاطها يا كولونيل .

قال (بورتر) فى مقت ، وعيناه تتابعان الهليوكوبتر تبتعد :

ــ من ذا الذى سيجرؤ على إسقاط هليوكوبتر ، تحمل صفة هيئة دبلوماسية يا هذا .

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يلتقط هاتفه الخاص ، متابعًا فى صرامة منفعلة :

ــ ولكن أقمارنا الصناعية تستطيع أن تقوم بدور آخر ...

وطلب رقمًا سريعًا ، وهو يضيف ، وقد تضاعف مقته :

ــ دور يمكن أن يحسم الأمر لصالحنا .. تمامًا ..

سمع رنين الهاتف عند الطرف الآخر ، والهليوكوبتر تبتعد ...

وتبتعد ...

وتبتعد ...

* * *

تجاهل مدير المخابرات الأمريكى رنين هاتفه الخاص تمامًا ، وهو يقف صامتًا داخل المكتب البيضاوى للرئيس الأمريكى ، الذى يواجه (أوزاكا) ، قائلاً فى توتر :

ــ أبلغ من أرسلوك أن كل شىء سيتم وفقًا لما طلبوه ... مائتا مليار دولار ستصل إلى الموقع ، قبل مرور أربع وعشرين ساعة .

قال (أوزاكا) فى برود :

ــ اثنتان وعشرون ساعة فقط يا سيادة الرئيس ... لقد أضعتم ساعتين فى اتخاذ القرار .

تنهد الرئيس الأمريكى فى عصبية ، وقال فى صرامة حادة :

ــ كل شىء سيتم وفقًا للجدول .

ألقت نظرة ظافرة من عينى (أوزاكا) ، جعلت مدير المخابرات يوقف صوت هاتفه ، وهو يسأله :

ــ متى ستبلغ من أرسلوك أن الصفقة قد تمت .

ابتسم (أوزاكا) ابتسامة لم ترق لأحدهم ، وهو يجيب :

ــ لن أبلغهم .

بدت نظراتهم حادة ، فاستطرد فى سرعة :

ــ ولكنهم سيعلمون .

غمغم مستشار الأمن القومي في عصبية :

ــ ألغز هذا ؟!

استعاد (أوزاكا) ابتسامته الغامضة المستفزة ، في حين قال مدير المخابرات في صرامة :

ــ ليس لغزًا ... إنه نوع من التسلسل المنطقي .

استدارت العيون كلها إليه ، فتابع في صرامة أكثر :

ــ (أوزاكا) سان لن يستقل الطائرة إلى (بكين) ، وهذا سيعني أن الصفقة قد تمت .

امتزجت الدهشة بالفهم والاستيعاب في عيونهم ، في حين قال (أوزاكا) في هدوء :

ــ من الواضح أنك تستحق منصبك يا هذا .

أجابه مدير المخابرات في قوة :

ــ وكذلك أنت (أوزاكا) سان .

ابتسم (أوزاكا) ابتسامته المستفزة ، ورماهم جميعًا بنظرة ظافرة ، قبل أن يغادر المكتب البيضاوي ، وما أن فعل ، حتى التقط مدير المخابرات هاتفه من جيبه ، وطلب رقم آخر اتصال ، وهو يقول :

ــ ماذا لديك هذه المرة يا (بورتر) ؟!..

وبينما كان يستمع إلى التفاصيل من (بورتر) ، كان (واو أوزاكا) يغادر البيت الأبيض ظافرًا ، وهو يغمغم لنفسه :

ــ عظيم يا (أوزاكا) ... أتممت الصفقة ، وسيستعينون بك حتمًا ؛ لتسليم السلاح ، وعندئذ ..

توقف عند هذه النقطة ، والتقط نفسًا عميقًا في انتعاظ ، وهو يستقل سيارته ، وينطلق بها إلى فندقه ، متابعًا غمغمته :

ــ من ذا الذي سيتردد في إعادتك إلى عملك ، بعد أن تأتي إلى (اليابان) بسلاح جبار ، يمكنك أن تنتقم بوساطته من الأمريكيين ، ومما فعلوه بمدينتي (هيروشيما) و(ناجازاكي) ، في الحرب العالمية الثانية ، وليس هذا فحسب ، وإنما ستصبح أقوى دولة في العالم ، عند حصولها على ما يفوق القنابل الذرية ألف مرة .

أطلق ضحكة عالية ظافرة ، ودار بسيارته عند الناصية ، ولمح تلك السيارة ، التي دارت معه بنفس المنحنى ، فالتفت إليها ، وابتسامته ما زالت تعلو شفتيه ، خاصة وأنه قد رأى وجه فاتنة ، ذات ابتسامة ساحرة تقود السيارة المجاورة ، وهي تنظر إليه في إعجاب واضح ...

ومع تلك الوجه الفاتن ، وتلك الابتسامة الساحرة ، عربدت في رأسه بعض الأفكار المبتذلة لوهلة ، و ...

وفجأة ، حلت فوهة مسدس مزود بكاتم للصوت ، محل الابتسامة الفاتنة ، ورأى (أوزاكا) وميضًا عند الفوهة ، وحاول أن يدير رأسه ، متفاديًا الأمر ، وساعدته خبرته الطويلة ، فحاول أن يتفادى الرصاصة الصامتة

التى اخترقت زجاج النافذة المجاورة له ، والتصقت بجبهته بالفعل ، وشعر بالدماء الساخنة تسيل من جرح جبهته ، فزاد من سرعة سيارته ، ودار بها عند أول منحنى ، وهو يبحث عن مسدسه ...

ولكن (تيا) ، صاحبة الوجه الفاتن والابتسامة الساحرة ، صوبت فوهة مسدسها فى هدوء إلى إطار سيارته الخلفى الأيسر ...

وانفجر الإطار فى قوة ، فى نفس اللحظة التى دارت فيها سيارة (أوزاكا) عند المنحنى ، فاختلت عجلة القيادة فى يد (أوزاكا) ، الذى حاول السيطرة عليها ، إلا أن السيارة انقلبت فى عنف ، وارتطمت بسيارة أخرى ، قبل أن تصطدم بجدار أحد المبانى ، وتدور إطاراتها فى الهواء ...

وعلى الرغم من جراحه وإصاباته ، حاول (أوزاكا) الخروج من السيارة ، وسط المارة الذين تجمعوا حولها ، وبعضهم يحاول معاونته ، و...

ومن بينهم ، لمح وجهًا أنثويًا ، أثار كل توتره وانفعاله ...

نفس الوجه الفاتن ، والابتسامة الساحرة ...

وجه (تيا) ...

وبينما تمتد إليه أيادى المعاونة ، ظهرت بينها يد (تيا) ، التى لامست عنقه ...

وشعر (أوزاكا) بتلك الوخزة المؤلمة فى عنقه ...

ولأنه رجل مخابرات سابق محترف ، فقد أدرك ما تعنيه ...

وبعينين مذعورتين بالستين ، شاهد يد (تيا) تتراجع ، بذلك الخاتم الخاص فى وسطاها ، والذى ما زالت تلك الإبرة الدقيقة تبرز منه ...

وشاهد ابتسامتها الظافرة ، قبل أن تنسحب من المكان كله ، وتعود إلى سيارتها ، وتنطلق بها مبتعدة ...

أما (أوزاكا) فقد احتقن وجهه ، وبدأت أطرافه ترتعش ، دون أن يملك أية سيطرة عليها ..

وعندما وصل إليه رجلا المخابرات الأمريكية ، اللذين يفترض أن يتعقباه ، دون أن يشعر ، كان هو قد فقد كل ما يمكن أن يشعر به ..

كل ما منحهما إياه ، كان نظرة أخيرة ، تحوى فتات حياة تنسحب ...

وفى اللحظة التالية مباشرة صار مجرد جثة ...

جثة هامدة ...

تمامًا ...

* * *

« إلى أين ؟!... »

ألقى قائد الهليوكوبتر السؤال ، فى توتر ملحوظ ، تضاعف عندما أتاه الجواب مقتضبًا من بين شفتى (أدهم) :

ــ شرقًا .

التقط القائد نفسًا عميقًا ، محاولاً السيطرة على توتره ، وقال :

ـ بغض النظر عن ذلك الأسلوب العجيب ، الذى رأيته على سطح سفارتكما ، والممارسات غير الطبيعية هناك ، فلا بد وأن تحددا لى أين ستذهبان بدقة ؛ حتى يمكننى ..

قاطعه (أدهم) فى صرامة :

ـ سنعبر الحدود السويسرية .

انعقد حاجبا القائد فى توتر شديد ، وهو يقول فى عصبية :

ـ مستحيل !... (سويسرا) ليست عضـوًا فى الاتحـاد الأوروبى ، ولا تسعى حتى إلى هذا(*) ، وعبور حدود دولة محايدة ، دون إذن مسبق ، يعد انتهاكًا لـ ...

قاطعته (منى) فى هدوء :

ـ لا بأس ... سنبلغ نقطة التقاء الحدود الفرنسية الألمانية السويسرية فحسب .

أضاف (أدهم) ، وهو يسترخى فى مقعده :

ـ وتفاديا للمشكلات الدبلوماسية ، سنهبط داخل حدود (ألمانيا) ، وهى عضو فى الاتحاد الأوروبى ، ولكن فى أقرب نقطة إلى الحدود السويسرية .

مط قائد الهليوكبتر شفتيه ، مغمغمًا :

ـ لا بأس بهذا .

(*) حقيقـة .

وصمت لحظة ، ثم أضاف مستعيدًا توتره :

ـ ولكن هذا يبدو لى أقرب إلى أعمال المخابرات والجاسوسية ، منه إلى العمل الدبلوماسى .

كان ينتظر جوابًا من (أدهم) أو (منى) ، ولكنه ، وعندما استدار إليهما ، ارتطم بملامح جامدة وصمت مطبق ...

بلا جواب ...

إطلاقًا ...

* * *

« ألمانيا ... »

قالها مدير المخابرات الأمريكية ، عبر هاتفه المؤمن ، للكولونيل (بورتر) ، الذى انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ إذن فأرض الصراع الجديدة هى (ألمانيا) .

أجابه مدير المخابرات فى حزم :

ـ هذا ما رصدته أقمارنا الصناعية ... الهليوكوبتر انطلقت مـن السفارة المصرية فى (باريس) ، وهبطت فى منطقـة ألمانية ، متاخمة للحدود السويسرية .

بدا صوت (بورتر) عصبيًا ، وهو يقول :

ـ هى (ألمانيا) إذن أم (سويسرا) ؟!

أجابه مدير المخابرات في صرامة :

— جواسيسنا يسعون الآن ، وفي هذه اللحظة ، للبحث عن الجواب ، أما أنت ورجالك ، فعليكم الانتقال فورًا ، إلى حيث هبطت الهليوكوبتر ، فإذا كانت ساحة القتال التالي ، فهي تبدأ حتمًا من تلك النقطة .

قالها مدير المخابرات ، وأنهى الاتصال على الفور ، تاركًا (بورتر) ، وهو ما زال يطرح السؤال على نفسه ...

(ألمانيا) أم (سويسرا) ؟!..

أم ماذا ؟!...

وبينما يطرح على نفسه السؤال ، كان مدير المخابرات يعتدل ، ليواجه الرئيس الأمريكي في توتر ، وهذا الأخير يقول في صرامة :

— من منكم يستطيع التنبؤ بما سيكون عليه الموقف الآن ، بعد مصرع ثاني المفاوضين ، على يد القاتلة نفسها ؟!

غمغم مدير المخابرات :

— من الواضح أنها محترفة شديدة الجرأة والمهارة يا سيادة الرئيس ، فهي تعرف موقع كل كاميرا ، من كاميرات الأمن في الشوارع والطرق الرئيسية ، وتعلم أنها ستلتقط ما فعلته ، ولكنها لن تكشف هويتها ، مع الزوايا التي تتخذها ، وتلك القبعة الصغيرة على رأسها ...

تساءل مستشار الأمن القومي في حدة :

— وماذا عن الأقمار الصناعية ؟!... ألم تخبر العالم كله ، إبان حرب (العراق) ، أنها قادرة على معرفة نوع نسيج الملابس الداخلية للرئيس العراقي ؟!

رفع مدير المخابرات رأسه إليه ، مجيبًا في صرامة :

— كم يدهشني أن تحتل منصبك هذا ، وأنت تصدق مثل هذه الدعايات العسكرية ؟!... لو أنها قادرة على ما تقول بالفعل ، فلماذا عجزت عن إيجاد الرئيس العراقي نفسه ، عندما سعى للاختفاء ؟!...

مطَّ مستشار الأمن القومي شفتيه ، دون أن يجيب ، وأشاح بوجهه في عصبية ، في حين تساءل وزير الدفاع :

— ولكنني ما زلت أتساءل مثله .. ماذا عن الأقمار الصناعية ؟!

أشار مدير المخابرات بيده ، مجيبًا :

— لقد تبعتها أقمارنا ، حتى دخلت إلى محطة من محطات مترو الأنفاق ، وبعدها لم يمكنها تمييزها ، من بين رواد المترو ، في كل محطات الوصول ، في (واشنطن) كلها .

اعتدل الرئيس الأمريكي ، وهو يهتف في غضب :

— هل سينحصر الأمر في كل مرة ، في توزيع الاتهامات على بعضكم البعض ، على حساب القضية الرئيسية ؟!

صمت الثلاثة ، والتفتوا إلى الرئيس ، الذي تابع بنفس الغضب :

— ما زال السؤال هو الأخطر والأهم ... هل مصرع (أوزاكا) يعني أنه لم يبلغ رؤساءه بما تم هنا ، أم أنهم قد علموا بوسيلة ما ، وعلينا أن نتابع والصفقة كالمتفق عليه ؟!

لم يحر أحدهم جوابًا على الفور ، وعندما قرر مستشار الأمن القومي أن يقطع حبل الصمت بقول ما ، سبقه رنين هاتف مدير المخابرات ، الذي

التقط هاتفه في سرعة ، ووضعه على أذنه ، دون أن ينطق بحرف واحد ، وإن بدا من الواضح أنه يستمع إلى محدثه في اهتمام شديد ، ويتلقى منه معلومات بالغة الأهمية ، ولم يطل انتظارهم لمعرفة فحوى الحديث ، فسرعان ما أنهى مدير المخابرات الاتصال ، ثم التفت إلى الرئيس ، قائلاً في حزم وثقة :

— الصفقة ستتم كالمتفق عليه .

تطلّع إليه الكل بنظرة قلقة متسائلة ، جعلته يشد قامته ، ويبتسم ابتسامة باهتة ، وهو يقول في لهجة ، ملؤها الثقة والظفر :

— لقد عثر رجالي على دليل لهذا ... دليل قوي ... للغاية .

ومرة أخرى ، ساد المكتب البيضاوي صمت مهيب ...

إلى حد مدهش ...

* * *

على الرغم من وجوده داخل سيارة مغلقة ، ضمّ مندوب المخابرات المصرية في العاصمة السويسرية (برن) ياقتي معطفه على صدره ، اتقاء للبرد القارص ، وهو يقول :

— معذرة يا سيادة العميد ، ولكن كل ما سمعته منك ، يدخل في نطاق الاستنتاج المحض ، ولا يرقى إلى مستوى المعلومة الحاسمة ، بأي حال من الأحوال .

قال (أدهم) في هدوء ، وهو يجلس إلى جواره في السيارة ، التي تنطلق بهما مع (منى) ، إلى منزل آمن ، تابع للمخابرات المصرية في (برن) :

— استنتاج يستند إلى خبرة طويلة في عالمنا .

أومأ مندوب المخابرات برأسه ، قائلاً :

— إنني ... بل كلنا نحترم خبراتك ومهاراتك يا سيادة العميد ، ولكن ..

قاطعه (أدهم) في حزم :

— دع لنا نحن مهمة إثبات أننا على حق ، وأننا نسير في الطريق السليم .

مطّ المندوب شفتيه ، وغمغم :

— بالتأكيد يا سيادة العميد ... بالتأكيد .

« إنه على حق إلى حد ما يا (أدهم) .. »

قالتها (منى) في بساطة ، وهي تجلس أمام جهاز كمبيوتر متطور ، في ذلك المنزل الآمن في (برن) ، فاسترخى (أدهم) على أريكة وثيرة ، وأسبل جفنيه ، وهو يقول :

— من الناحية النظرية نعم .. ولكن ليس أمامنا بديل عن هذا .

وصمت لحظات ، حتى خيّل إليها أنه قد استغرق في النوم ، بعد كل ما بذله من جهد ، إلا أنه تابع بعدها في حزم :

— ثم إنه لدي خطة ، لحسم الشكوك ، وتحويل الاستنتاج إلى معلومة .

التفتت إليه ، متسائلة :

— وكيف هذا ؟!

أشار بيده ، قائلاً :



— الاتصال الذي تم من (زيورخ) مباشرة ، يضع أمامنا احتمالين لا ثالث لهما .. فمع تخطيط عبقري ، كالذي يدار به الموقف ، إما أن هذا أمر مقصود ؛ لجذبنا إلى نقطة بعيدة كل البعد عن منطقة الصراع الأساسية ، أو أن هذه ثغرة ، لم تحسب لها زعيمة هذا التنظيم العملاق حسابًا .

تساءلت (منى) في حذر :

— وهل يمكن أن يحدث هذا ؟!

اعتدل (أدهم) جالسًا على الأريكة ، في حركة حيوية مفاجئة ، وهو يجيب :

— كلما كان عدد من تستعين بهم أكبر ، كلما كان احتمال الخطأ أكبر أيضًا .

قالت في اهتمام :

— أتعني أنه قد يكون مجرّد خطأ ، ارتكبه أحد معاونيها ؟!

هزّ كتفيه ، قائلاً :

— هذا أحد الاحتمالين .

مالت بنصفها العلوي إلى الأمام ، قائلة :

— وكيف يمكننا تحديد أحد الاحتمالين ، وتسييده على الاحتمال الآخر ؟!

التقط نفسًا عميقًا ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ، وهو يجيب :

— في هذا الشأن ، لدي خطة .

استمعت إليه في انتباه ، وهو يشرح خطته ، وارتجف شيء ما في أعماقها ...

فقد بدت لها خطته منطوية على خطر ...

خطر كبير ..

وعميق ...

للغاية .

* * *

الفصل الثـامن عشر

ملح (جوزيف ليجنشتاين) زبونه الأخير ، ابتسامة ودود ، وهو يلف علبة سيجار كبيرة فى عناية فائقة ، بذلك الورق المزركش ، الذى يحمل اسم متجر (فراو سيجاريت) ، قائلاً فى أناقة ، تنافس أناقة المتجر الصغير :

— الزبائن من أصحاب الأهمية الخاصة وحدهم ، الذين أقوم بلف سيجارهم بنفسى .

ابتسم الزبون ، وحمل علبة سيجاره ، وقال وهو يتجه نحو باب المتجر :

— هذا عهدنا بك دومًا هر (ليجنشتاين) .

كان الزبون عند الباب بالفعل ، عندما اعترض طريقه رجل عريض الجسم والوجه ، أزاحه عن طريقه فى غلظة وخشونة مستنكرة ، جعلت الزبون يهتف معترضًا :

— أى تجاوز هذا أيها الـ ...

قاطعه ذلك العريض ، وهو يقول بألمانية غليظة ، لها لكنة روسية واضحة :

— انصرف يا هذا ، وحافظ على فكك سليمًا .

تراجع (ليجنشتاين) فى دهشة ، وتوقف موظفوه الثلاثة عن عملهم فى قلق ، فى حين اتسعت عينا الزبون ، فى ذعر مستنكر ، إلا أنه أسرع يغادر المبنى ، وهو يضع صندوق سيجاره تحت إبطه فى توتر :

— وفى هدوء صارم ، وقف ذلك العريض وسط المتجر الصغير ، يدير بصره فى وجوه العاملين الثلاثة فى صرامة ، جعلتهم ينكمشون فى أماكنهم فى رعب ، وجعلت (ليجنشتاين) يتراجع ، مغمغمًا فى عصبية :

— ماذا هناك ؟!

عبر (سيرجى كوريوف) باب المتجر فى هذه اللحظة ، وهو يقول لرجل ثالث يقف خلفه :

— أغلق المتجر ، وضع عليه لافتة اعتذار .

اتسعت عينا (ليجنشتاين) ، عندما سمع هذا ، وواصل تراجعه ، هاتفًا :

— ليس هذا من حقك ... القانون يقول ...

امتزج صوته بصوت إغلاق باب المتجر ، فمال (سيرجى) نحوه ، وهو يقول فى صرامة مخيفة :

— يقول ماذا ؟!

امتقع وجه (ليجنشتاين) ، وهو يقول فى صوت ، خنقه الرعب الشديد :

— ماذا تريد أيها السيد ؟!

اعتدل (سيرجى) ، وهو يقول :

— هذا المتجر له مخزن ... أليس كذلك ؟!

أومأ الرجل برأسه ، وأجاب بصوت مرتجف مختنق :

— بلى .

التفت (سيرجى) إلى عمال المتجر الثلاثة ، وقال فى صرامة :

ـ اذهبوا إلى هناك ... ولن أطالبكم بعدم لمس الهاتف ، لو أنه يوجد أى هاتف هناك ، ولكننى أعدكم بأن من يحاول استدعاء الشرطة منكم ، سيقوم زميلى هذا ، بتفتيت عظامه ، بحيث لن يستطيع أطباء عظام العالم كله إعادة عظمة واحدة ، إلى مكانها الصحيح .

شحبت وجوه العمال الثلاثة ، واندفعوا بكل رعب الدنيا نحو المخزن الصغير ، وأغلقوا بابه خلفهم ، فالتفت (سيرجى) مرة أخرى ، إلى (ليجنشتاين) قائلاً :

ـ متجر صغير ، وثلاثة من العاملين فقط ... غطاء ممتاز يا هذا .

ارتجف صوت الرجل مع جسده ، وهو يغمغم :

ـ الغطاء لماذا يا سيدى ؟! ... هذا المتجر ورثته عن أبى ، و ...

قاطعه (سيرجى) فى صرامة قاسية :

ـ أليس من العجيب أن يتلقى متجر صغير كهذا شحنة دورية ، من سجائر الثوية ، ذات طراز خاص جداً ؟!

غمغم (ليجنشتاين) مذعوراً :

ـ إنها شحنة قانونية ... أليس كذلك أيها السيد ؟!

ضرب (سيرجى) سطح مكتب (ليجلشتاين) براحته ، فى عنف مفاجئ وبدا صوته أكثر قسوة وصرامة ، وهو يقول :

ـ لحساب من تأتى هذه الشحنة يا رجل .

تراجع الرجل فى ذعر شديد ، وصاح فى هلع :

ـ لحساب (هانز أوفرايم) ، المقيم فى ...

قاطعه (سيرجى) فى قسوة أكثر :

ـ هل تعلم ما سأفعله بك ، لو حاولت خداعى ؟!

التقط (ليجنشتاين) كمبيوتره الصغير ، وهو يهتف مرتجفاً :

ـ أقسم لك إننى لا أحاول شيئاً أيها السيد .. ها هو ذا سجل المبيعات .. إنى أتلقى هذه الشحنة الخاصة ، لحساب الهر (هانز أوفرايم) ، وها هى ذى بياناته الكاملة .. أقسم لك أن هذا كل ما أعرفه .. إنى حتى لم أفتح شحنة واحدة منها ، ولست أدرى حتى كيف تبدو .. كل ما أعلمه هو أنها مصنوعة خصيصاً للهر (هانز) .. أقسم لك .

نطق الكلمة الأخيرة وكأنه يبكى ، فرمقه (سيرجى) بنظرة قوية ، ثم قال فى صرامة تحمل منتهى القسوة :

ـ اطبع بيانات (هانز) هذا ، ولتعلم أنه لو علم بحرف واحد ، مما تبادلناه هنا ، فلن يجد ابنك ما يرثه منك ، بعد أن تلقى مصرعك فى حادث بشع .. هل تفهمنى ؟!

خلا وجه (ليجنشتاين) من الدماء أو كاد ، وهو يغمغم :

ـ أفهمك أيها السيد .. أفهمك جيداً .

شد (سيرجى) قامته ، وانتظر حتى مد الرجل يده إليه بالقائمة المطبوعة ، ثم قال :

ـ هذا أفضل .



واستدار يغادر المكان ، ووقف ينتظر حتى يفتح رجاله المتجر ، ليضيف دون أن يلتفت إلى الرجل ، الذى كاد يسقط فاقد الوعى :

ـ لك .

وغادر المتجر مع رجليه ، متجهين إلى الهدف التالى ...

إلى (هانز) ...

طرف الخيط ...

* * *

« عندى خبر خطير أيتها الزعيمة ... »

هتف (رودلف) بالعبارة فى انفعال واضح ، وهو يندفع إلى حجرة (سونيا) الخاصة ، فانعقد حاجبا هذه الأخيرة ، وبدا الاستنكار على ملامحها ، من مقاطعته الواحدة من لحظات تأملها ، أمام نافذتها الكبيرة المطلة على جليد (سويسرا) ، ونفثت دخان سيجارتها عن آخرها ، قبل أن تسأله فى صرامة :

ـ أى خبر هذا ؟!

أدهشه أنها لم تشاركه انفعاله ، فغمغم فى عصبية :

ـ ذلك المصرى .. (أدهم صبرى) .

نجح الاسم فى جذب انتباهها ، فالتفتت إليه ، تسأله فى اهتمام :

ـ ماذا عنه ؟!

لوّح بيده ، وقد راق له انتباهها ، وهتف :

ـ لن يمكنك أن تصدقى .

هتفت به فى شراسة :

ـ أجب مباشرة ، أو أخرسك إلى الأبد .

امتقع وجهه ، وهو يجيب فى سرعة :

ـ إنه هنا فى (سويسرا) .

انعقد حاجباها فى شدة ، واعتصرت أصابعها تلك السيجارة الرفيعة ، دون أن تشعر وبدت كلماتها أشبه برصاصة ، تنطلق من بين شفتيها المصمتتين :

ـ هنا ؟!

تراجع فى توتر ، وقد خيل إليه أنها ستنقض عليه ، وتنشب مخالبها فى جسده ، مع تلك اللهجة ، التى تجمع بين الاستنكار والغضب ، ومع ذلك الانقلاب الشديد فى ملامحها ، وغمغم ملوحًا بيده :

ـ نعم ... هنا .. فى (برن) .

ألقت سيجارتها أرضًا ، وسحقتها بقدمها فى عنف ، وكأنما تنفث فيها غضبها ، وهى تسأله فى حدة :

ـ ما الذى جلبه إلى هنا ؟!... لم يكن ينبغى أن يحدث هذا .

انكمش (رودلف) فى مكانه ، وهو يغمغم :

ـ كل القنوات التليفزيونية هنا تتحدث عنه

تراجعت كالمصعوقة ، وهى تغمغم بصوت مختنق :

ــ ماذا؟!!

أشار بيده ، وهو يتمنى أن ينشق الجدار ويبتلعه ، وهو يجيب :

ــ لقد تحدى (جون لو) ، بطل العالم فى رياضة (الجيت كون دو)(*) ، على الرغم من أنه لا تاريخ رياضى له فى اللعبة .

غمغمت ذاهلة :

ــ كيف ؟!

كان عقلها يحاول إدارة الأمر من كل الوجوه ، و(رودلف) يتمتم فى حذر :

ــ كان (جــون لو) وســط مؤتمر صحفى ، عندما ظهر ذلك المصرى وتحداه علانية ، أمام عدسات كل وسائل الإعلام ، بأنه يستطيع هزيمته فى أقل من دقيقة واحدة ... قالها فى ثقة مستفزة ، مما جعل (جون لو) يدافع عن سمعته ، ويقبل التحدى .

غمغمت مفكرة :

ــ ولكن قوانين اللعبة لا تسمح بهذا .

أجابها فى مزيد من الحذر :

ــ لن تكون مباراة رسمية .. إنها أشبه بمباراة دعائية ، تسارعت قنوات التليفزيون لتمويلها ، فى حين أصرّ (لو) على أن تقام المباراة الليلة .

(*) (جيت كون دو) : ليست رياضة قتالية فى حد ذاتها ، ولكنها أسلوب طوره (بروس لى) ، الذى لاحظ وجود قصور فى الرياضات القتالية ، فابتكر فنًا يشملها كلها فى آن واحد ، حيث تستخدم الأرجل والأيدى ، والتشابك والتصارع .

عادت تغمغم :

ــ الليلة ؟!

أجاب (رودلف) فى سرعة :

ــ نعم الليلة ، فى التاسعة مساء ، و ...

قاطعته فى صرامة مفاجئة :

ــ ولكن لماذا ؟!

توقف يسألها فى حيرة :

ــ لماذا ماذا ؟!

ولكنها لم تجب سؤاله ، وإنما انهمكت فى تفكير عميق ...

عميق إلى درجة كبيرة ...

ومخيفة ...

* * *

الانفعال الجارف ، الذى ملأ نفس نائب مدير المخابرات المصرية ، جعله ينسى كل أصول اللياقة وقواعد فوارق الرتب ، وهو يضع تقريره أمام مدير المخابرات ، قائلاً فى عصبية :

ــ العميد (أدهم) تجاوز كل ما يمكن احتماله يا سيادة الوزير .

تطلع إليه مدير المخابرات لحظات فى صمت ، واستوعب فى سرعة سر تجاوزه هذا ، وهو يقول فى هدوء ، لا يتناسب مع انفعال نائبه :

ــ ما هو الذى تجاوزه (ن-1) بالضبط ؟!

أجابه النائب ، وقد انتبه إلى خطئه ، فخفض من صوته وأسلوبه :

ــ عملنا يعتمد اعتمادًا أساسيًا على السرية يا سيادة الوزير ، وعلى الرغم من هذا ، فها هى ذى كل صحف وقنوات تليفزيون (سويسرا) ، تنقل صوره ، وتحديه المباشر لبطل العالم فى (الجيت كون دو) فى (برن) .

سأله مدير المخابرات فى هدوء :

ــ وما الفارق الذى يصنعه هذا ؟!

اندهش النائب لقول المدير ، فاستعاد شيئًا من انفعاله ، وهو يجيب :

ــ بهذا يصير ورقة محروقة ، وكل العالم سيعلم أنه ...

قاطعه المدير ، فى حزم مقلجي :

ــ إنه شخص مغرور متهور ، يزعم قدرته على هزيمة بطل العالم ، خلال أقل من دقيقة واحدة .

بُهت النائب للمقاطعة والجواب ، وغمغم :

ــ ولكن يا سيادة الوزير ...

أكمل المدير ، وكأنه لم يسمع غمغمته :

ــ قل لى بالله عليك ... من من أجهزة المخابرات العالمية ، يجهل من هو (ن-1) ، وإلى أية جهة ينتمى؟!...

لم يحر نائبه جوابًا ، ووقف مبهوتًا صامتًا لحظات ، حتى قال المدير فى صرامة :

ــ قل لى ...

غمغم النائب :

ــ لا أحد ... كل أجهزة المخابرات العالمية ، وكل منظمات الجاسوسية ، وحتى منظمة (المافيا) ، يعلمون أن سيادة العميد ينتمى إلينا ، ويحفظون وجهه عن ظهر قلب .

سأله المدير مرة أخرى فى صرامة :

ــ وماذا عنك أنت ؟!

فاجأ السؤال النائب ، فقال فى حذر :

ــ ماذا عنى يا سيادة الوزير؟!

أجابه الوزير بسؤال صارم :

ــ هل عهدت فى (ن-1) شيئًا من الحماقة والتهور ، وسوء تقدير الأمور؟! ...

أسرع النائب يجيب :

ــ مطلقًا يا سيادة الوزير .

تراجع مدير المخابرات المصرية فى مقعده ، وقال فى هدوء ، يحمل حزمًا وحسمًا شديدين :

ــ دعه يعمل إذن .

صمت النائب لحظات ، أدرك خلالها أن مدير المخابرات قد أضاء الضوء الأخضر بلا حدود للعميد (أدهم) ، إلا أنه ، وعلى الرغم من هذا ، أشار بيده ، قائلاً :

ــ سؤال هام يا سيادة الوزير ... ما دامت كل أجهزة المخابرات العالمية ، وكل المنظمات التجسسية تعرف سيادة العميد ، وكلها تسعى طوال الوقت للخلاص منه ، فما المتوقع أن يقدموا عليه ، وهم يعلمون متى وأين يمكن أن يجدوه بالضبط ؟!

وفى هذه المرة ، انعقد حاجبا مدير المخابرات المصرية ، دون أن يحر جوابًا ...

أى جواب ...

* * *

« علينا أن نرسل رجالنا ؛ للقضاء عليه .. »

قالها (رودلف) فى حزم ، و(سونيا) توليه ظهرها ، وتنفث دخان سيجارتها فى بطء ، وهى تتطلع عبر نافذتها الكبيرة إلى الجليد الممتد أمامها ، دون أن تجيب أو تعلق على عبارته ، فأضاف محاولاً جذب انتباهها :

ــ فرصتنا ســتكون هائلة ، ما دمنا نعلم أيــن ومتى نجده بالضبط .

مضت لحظة أخرى من الصمت ، قبل أن تقول (سونيا) فى صرامة :

ــ كلا .

غمغم (رودلف) مندهشًا :

ــ ولكن أيتها الزعيمة ...

التفتت إليه (سونيا) فى حركة حادة ، قائلة :

ــ هذا بالضبط ما ينتظره منا .

لم يفهم (رودلف) ما يعنيه هذا ، فانعقد حاجباه فى تساؤل ، فى حين أملت هى ، وكأنها تتحدث عن نفسها :

ــ لقد علم أى شيء يواجهه ، وأى خطر يتهدد وطنه ، ويدرك جيدًا أن جهات عديدة تطارده ، وتسعى للقضاء عليه ، وهو فى الوقت ذاته رجل مخابرات محترف ، يدرك أنه لكل خطوة أهميتها ، ولكل دقيقة ثمنها ، فلماذا يضــيع الوقت فى منافســة عقيمــة ، ومواجهــة دعائية سخيفة كهذه ؟!.. لماذا ؟!

غمغم (رودلف) فى حذر :

ــ ربما أنه ...

لم تمنحه الفرصة لإبداء الرأى ، وهى تقول فى انفعال :

ــ لأن هناك معلومات جذبته إلى هنا ، ولكنها معلومات غير مكتملة ، لذا فهو يسعى لاستكمالها ، عن طريق جذب الانتباه ؛ فى محاولة لدفع البعض للتخلص منه ، وبهذا يتيقن من أنه على المسار الصحيح .

بهره استنتاجها ، فلاذ كلاهما بالصمت ، وغرقت هى فى تفكير عميق ، وهى تنفث دخان سيجارتها الرفيعة فى عصبية ، قبل أن تلتفت إليه بحركة حادة ، وهى تلقى سيجارتها بعيدًا ، هاتفة :

ــ من أين أجريت اتصالاتك بالفرنسى (رينيه بولار) يا (رودلف) ؟!

عاد ينكمش فى مكانه ، وهو يجيب :

ــ عبر نظم اتصالاتنا المؤمنة بالطبع .

بدت كنمرة شرسة ، وهى تقترب منه ، قائلة :

ـ نظم الاتصالات المؤمّنة سجلت اتصالين ، فماذا عن الثالث ؟!

هزّ رأسه لحظات ، دون أن يجيب ، فصرخت فيه بكل شراسة ووحشية :

ـ من أين يا (رودلف) ؟!

أجاب مرتجفًا ، على الرغم من جسده الضخم ، وعضلاته المفتولة :

ـ من (زيورخ) .

ثم استدرك فى ارتياع :

ـ ولكن عبر هاتف غير مسجّل ، تخلصت منه فور الاتصال .

اعتدلت ترمقه بنظرة نارية ، استغرقت نصف دقيقة من الصمت ، قبل أن تشعل سيجارة رفيعة أخرى ، وتستدير إلى نافذتها المفضلة ، قائلة :

ـ يبدو أن القاعدة تثبت صحتها دومًا .

غمغم فى دهشة :

ـ القاعدة ؟!

نفثت دخان سيجارتها ، وهى تغمغم :

ـ أى جهاز أمنى ، مهما بلغ إحكامه ، لا بد وأن يحوى ثغرة ما .

هدأت نفسه قليلاً ، فحاول أن يعتدل ، ويشد قامته ، وهو يغمغم :

ـ وكل ثغرة يمكن رتقها أيتها الزعيمة .

نفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، وهى تغمغم :

ـ أو التخلص منها .

قالتها ، ثم استدارت إلى (رودلف) ، فى حركة سريعة رشيقة ، ورفعت نحوه مسدسًا صغيرًا ، مزودًا بكاتم للصوت ، فاتسعت عينا (رودلف) ، وتراجع وهو يصرخ :

ـ أيتها الزعيمة .

اختلطت صرخته بصوت رصاصتها المكتومة ، التى استقرت فى منتصف قلبه مباشرة ...

واتسعت عينا (رودلف) عن آخرهما ، وكأنما لا يصدق أن تفعل به زعيمته هذا ، وارتطم جسده بالجدار خلفه ، مع قوة الرصاصة الصغيرة ، ثم ارتد إلى الأمام ليسقط على وجهه جثة هامدة ...

وفى هدوء ، نفثت (سونيا) دخان سيجارتها ، والتقطت جهاز الاتصال الداخلى الخاص ؛ لتقول عبره :

ـ أرسلوا طاقم الخدمة لتنظيف المكان .

ثم اكتسب صوتها شيئًا من الصرامة ، وهى تضيف :

ـ وأرسلوا الروسى (إيجور) .. إنه ، ومنذ هذه اللحظة ، مساعدى الجديد .

أنهت الاتصال ، واستقرّت على مقعدها المفضل ، أمام النافذة الكبيرة ، تراقب ثلوج (سويسرا) ، وذهنها منشغل بالتفكير فى شخص واحد ...

(أدهم) ...

(أدهم صبرى) ...

* * *

تطلّعت مالكة المنزل البدينة إلى (سيرجى) ورجليه الضخمين فى شك واضح ، لم يمنعها من أن تقول فى غلظة اعتادتها :

ـــ الهر (هانز أوفرايم) يستأجر هذه الشقة بالفعل ، ويدفع إيجارها سنويًا ، على عكس باقى السكان الذين يرهقوننى شهريًا فى تحصيل الـــ ...

قاطعها (سيرجى) ، فى غلظة تنافس غلظتها :

ـــ وكيف يبدو (هانز) هذا؟!

مطّت شفتيها الغليظتين ، وهى تجيب :

ـــ لم أره مطلقًا.

رمقها (سيرجى) بنظرة غاضبة مستنكرة ، جعلتها تتابع :

ـــ محاميه قام باستئجار الشقة ، وتوقيع عقد الإيجار بالوكالة ، ويرسل الشيكات بانتظـــام ، لا يدفعنى للسؤال عن هوية الهر (هانز) أو هيئته ، أو أى أمر يخصه .

ثم أصدرت صوتا كالزمجرة ، قبل أن تضيف :

ـــ المهم هو الإيجار .. هذا كل ما يعنينى .

قال (سيرجى) فى قسوة :

ـــ ولكن هناك شحنات بريدية ، تصل إلى الهر (هانز) على نحو منتظم .

هزّت كتفيها المكتنزين ، مجيبة :

ـــ كل ما يرد إليه ، يتم إعادة إرساله إلى صندوق بريد فى (برلين) ، أولًا بأول ، حسب تعليمات المحامى .

مرة أخرى أصدرت ذلك الصوت الشبيه بالزمجرة ، قبل أن تضيف :

ـــ وهو يدفع مصاريف إعادة الإرسال بالطبع .

سألها (سيرجى) بنفس القسوة :

ـــ وما عنوان صندوق البريد هذا ؟!

وفى هذه المرة ، أصدرت تلك البدينة زمجرة واضحة ، وهى تقول :

ـــ وعلى ماذا سأحصل ، مقابل المعلومة ؟!

سحب أحد رجلى (سيرجى) من جيبه مسدسًا ، ألصق فوهته بصدغها ، و(سيرجى) يقول بمنتهى القسوة :

ـــ سنتركك على قيد الحياة .

ومع اندفاعها فى منحهم العنوان ، أثبت (سيرجى كوربوف) أن أساليبه القاسية ناجحة وفعالة ...

للغاية ...

* * *

التمعت عينا مدير المخابرات الأمريكية ، وهو يستمع إلى اهتمام إلى محدثه ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ أنت واثق من هذا ؟!... (أدهم صبرى) هناك .. فى (برن) ؟!

استمع إلى محدثه لحظات أخرى ، ثم قال فى صرامة :

ـ بالطبع .. سأتخذ ما يلزم من إجراءات .

أنهى المحادثة ، وهو يغمغم :

ـ أخيرًا ارتكبت حماقة أيها المصرى ... أخيرًا أصبحنا نعلم أين ومتى يمكننا الظفر بك .

تحركت سبّابته ؛ ليطلب رقم الكولونيل (بورتر) ، وهو يضيفه :

ـ لا بد وأن يتحرّك (بورتر) ورجاله فورًا ، لكى ...

قبل أن تبلغ سبّابته لوحة أزرار هاتفه ، تلقى الهاتف رسالة نصية مباغتة ، لم تحو اسم المرسل أو رقمه ...

رسالة من مصدر مجهول ...

ولم يكن هذا معتادًا ، بالنسبة لمدير المخابرات الأمريكى ، الذى انعقد حاجباه فى توتر ، وهو يقرأ الرسالة فى سرعة ، قبل أن يرتفع حاجباه عن آخرهما ، فى دهشة مستنكرة بلا حدود ...

فقد كان نص الرسالة مفاجأة ...

مفاجأة قوية ..

ومستفزة ..

للغاية .

* * *

الفصل التاسع عشر

« من الضرورى أن أسجل اعتراضى .. »

نطقت (منى) العبارة فى حذر ، وهى تتطلّع إلى (أدهم) ، الذى بدا وكأنه قد انفصل عن العالم من حوله ، وهو يجلس أمام شاشة الكمبيوتر ، وأصابعه تتعامل مع لوحة أزراره فى سرعة واهتمام ، ولما لم تحصل (منى) على جواب ، تنحنحت فى توتر ، وبصوت مرتفع نسبيًا ، قبل أن تكرر :

ـ كنت أقول ...

قاطعها (أدهم) ، دون أن تتوقف أصابعه عن التعامل ، مع لوحة أزرار الكمبيوتر ، قائلاً فى حسم :

ـ لقد سمعتك من المرة الأولى .

تنحنحت مرة أخرى ، قائلة :

ـ ينبغى أن أقول إذن : أنك ، بتحديك العلنى لبطل العالم ، فى قتال (الجيت كون دو) ، قد جذبت إليك كل من يستهدف الخلاص منك ، فى قارات العالم الست ..

كانت تتوقع منه ردًا أو تعليقًا ، إلا أنها فوجئت به يقول ، وهو ما زال يتابع عمله على الكمبيوتر :

ـ ما أهم ما تتميّز به (سونيا جراهام) فى نظرك ؟

وبقدر ما أدهشها السؤال ، إلا أنها أجابته فى بطء :

ـــ الذكاء والخبث ، وانعدام المشاعر والضمير .

أضاف إليها فى اهتمام :

ـــ والغرور .

هزّت كتفيها ، قائلة فى حذر :

ـــ بالتأكيد .

ثم مالت تلقى نظرة على ما يقوم به ، متابعة :

ـــ ولكن لماذا تسأل ؟!

مرة أخرى ، لم يجب سؤالها مباشرة ، وهو يقول :

ـــ الذكاء والخبث ، سيجعلانها تفهم لعبتنا على الفور ، ولهذا فلست أتوقع أن تحاول التخلص منى مباشرة ؛ لأنها تعلم أنها بهذا ستساعد على إنجاح خطتى ، وكشف وجودها هنا .

تراجعت (منى) فى دهشة ، مغمغمة :

ـــ لماذا تحدّيت (جون لو) إذن ، على هذا النحو السافر ، وبكل هذا الأسلوب الدعائى ، لو أنك واثق من أنها لن تقع فى هذا الفخ ؟!

أجابها هذه المرة فى هدوء :

ـــ لأن هذا سيجذب الكثيرين ، ممن يسعون للقضاء علىّ إلى هنا .

غمغمت فى دهشة :

ـــ وهذا يبدو لك نجاحًا ؟!

ابتسم ابتسامة هادئة ، سرعان ما تلاشت ، وهو يجيب :

ـــ بالتأكيد .

صمتت لحظات ، ثم قالت ، فى شىء من العصبية :

ـــ فى بعض الأحيان ، أعجز عن فهمك .

عادت الابتسامة إلى شفتيه ، وهو يغمغم :

ـــ عظيم .

انعقد حاجباها مع إجابته ، وعادت تميل نحوه ؛ لترى ما يفعله ، قبل أن تهتف فى دهشة :

ـــ هذا برنامج (جوجل إيرث) (Google Earth) !!

أجاب فى هدوء واقتضاب :

ـــ بالفعل .

مالت أكثر ، نحو شاشة الكمبيوتر ، وهى تسأله :

ـــ عم تبحث بالضبط ؟!

أجابها فى هدوء :

ـــ عن موقع يناسب الغرور .

وانعقد حاجباها أكثر ...

وأكثر ...

وأكثر ...

* * *

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثان فى شدة ، وهو يستمع إلى أحد رجليه الضخمين فى اهتمام ، قبل أن يستغرق فى تفكير عميق لحظات ، ثم يقول فى غلظة :

— على الرغم من ثقتى فى صحة الخبر ، فعهدى بـ (أدهم صبرى) هذا أنه ليس أحمق أو متهورًا ، بأى حال من الأحوال .

سأله أحد الضخمين فى اهتمام :

— لماذا إذن يتحدى (جون لو) ، على هذا النحو الإعلامى السافر .

أجابه (سيرجى) فى سرعة :

— لكى يجذبنا جميعًا إلى هناك .

بدت الحيرة على وجه الضخم ، وهو يغمغم :

— ولماذا ؟!

استغرق (سيرجى) بضع لحظات أخرى فى التفكير ، قبل أن يغمغم :

— التفسير الوحيد هو أن (سويسرا) ليست أرض الصراع ، ولهذا فهو يعلم الجميع أنه هناك ، ثم ينطلق هو إلى أرض الصراع الحقيقية .

هزّ الضخم كتفيه ، وقال :

— وماذا لو أنه يفعل هذا ، ليجتذب رجال تلك الأفعى ، التى نسعى خلفها ، كوسيلة لاستخدامهم للوصول إليها ؟!

بدا الاحتمالان منطقيين للغاية ، من منظور رجل مخابرات روسى محترف ، مما جعل (سيرجى) يلوذ بالصمت بضع لحظات ، ثم يقول فى حزم صارم :

— أمر واحد ، يمكن أن يحسم هذا أو ذاك .

سأله الضخم الآخر فى اهتمام :

— ما هو يا جنرال ؟!

أجاب (سيرجى) ، مشيرًا إلى ساعته :

— الساعة التاسعة .

أطلت حيــرة مندهشــة مــن عينى الضخمين ، فتابع (سيرجى) فى صرامة :

— لو حضر لمواجهة (جون لو) ، فسيعنى هذا أنكما على حق ، وأنه يسعى لصنع مصيدة لرجال (سونيا) ، أما لو لم يحضر ، فسيعنى هذا أنى على حق ..... وأن أرض الصراع ليست فى (سويسرا) ... حتمًا .

قالها بلسانه ، والشك يعصف بأعماقه ...

فى شدة ...

* ◆ *

« مستحيل يا سيدى .. » ؟!

غمغم كبير طاقم العلماء بهذه العبارة ، وهو ينكمش أمام (سونيا) ، التى بدت وكأن نيران الجحيم تطل من عينيها ، وهى تصيح فى وجهه :

— مستحيل كلمة لا أعترف بها ، ولا أريد سماعها أبدًا .

انكمش كبير العلماء أكثر ، وهو يغمغم فى توتر :

— العلم أيضًا لا يعترف بالمستحيل يا سيدتي ، ولكنه لا يتعجّل الوصول إلى النتائج .

صاحت في حدة :

— وماذا لو أن النتائج العاجلة حتمية ؟!

أجابها متكمشًا أكثر وأكثر :

— الساعة ستظل ستين دقيقة ، سواء تعجّلنا أو تراخينا .

تراجعت تلقى نظرة نارية عليه ، وهي تدير كلماته في رأسها ، قبل أن تغمغم :

— هل تعلم أنكم قد استهلكتم نصف كمية السائل ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، ثم قلّب كفيه ، مغمغمًا :

— ولكنها لم تكف يا سيدتي .

صمتت لحظات أخرى ، أشعلت خلالها سيجارتها الرابعة ، متجاهلة تلك اللافتة الكبيرة ، التي تحذر من التدخين في المكان ، وقالت ، وكأنها تحدث نفسها :

— إذن فإعادة إنتاج هذا السائل الجبار مستحيلة .

أسرع كبير العلماء يقول :

— في هذه المهلة القصيرة فحسب ... ولكن لو منحتنا عامًا أو أكثر قليلاً ، فسوف ...

قاطعته في صرامة ، وهي تنفث دخان سيجارتها في وجهه :

— هي مستحيلة إذن .

سعل كبير العلماء ، ولوّح بكفه أمام وجهه ، محاولاً طرد دخان سيجارتها ، وهو يجيب :

— لو أنك ..

قاطعته بإشارة من يدها ، قائلة في صرامة :

— لقد اكتفيت .

ثم استدارت هامسة لنفسها في مقت :

— ووجودكم لم يعد مفيدًا أيضًا .

غادرت المكان ، وقبل أن تنصرف منه تمامًا ، أشارت إلى مساعدها الجديد (إيجور) ، فمال نحوها بقامته الهائلة ، لتهمس في أذنه ، بكل صرامة ومقت :

— خلصني منهم جميعًا .

وقبل حتى أن تغلق باب منطقة المعامل خلفها ، كان دوى رصاصات مدافع (إيجور) ورجاله ، يمتزج بصرخات العلماء المساكين ...

وكانت الدماء تتناثر كالمطر ...

ولكن (سونيا) أغلقت باب المعامل خلفها ، وهي تنفث دخان سيجارتها ، وتمضي في هدوء مستفز ...

للغاية ...

* * *

فى محاولة للسيطرة على أعصابها ، التقطت (منى) نفسًا عميقًا ، وهى تتابع عمل (أدهم) ، الذى انهمك بمشاعره كلها تقريبًا ، فى مراجعة خرائط الأقمار الصناعية أمامه ، عبر برنامج (جوجل) الشهير ، ثم لم تلبث أن عجزت عن كتمان فضولها ، فسألته فى توتر ، عجزت عن كتمانه :

ـ ما المفترض أن نجده بالضبط ؟!

صمت لحظات ، قبل أن يجيب فى عمق ، دون أن يلتفت إليها :

ـ أمر لا يتفق مع قواعد العمل فى عالمنا .

قالت ، مطلقة العنان لتوترها :

ـ ولكن من حقى معرفته .

أجاب فى هدوء :

ـ بالتأكيد .

ثم أشار إلى الموقع الذى يطالعه ، على خرائط (جوجل) ، وهو يتابع :

ـ هذه جبال (تيتليس) أعلى قمم (الألب) ، وترتفع حوالى (3040) مترًا تقريبًا ، وهى مكان مثالى لأعقد وأصعب رياضات التزلج على الجليد ، حيث يعتبر الانحدار منها ، لمسافة اثنى عشر كيلومترًا ، إلى (إنجلبيرج) ، تعد الأطول ، من حيث التنوع والاختلاف ، على ارتفاع ألفى متر .

مطّت شفتيها ، مغمغمة بنفس التوتر :

ـ وماذا بعد هذه الخلفية الجغرافية السياحية ؟!

لم يبتسم لدعابتها المتوترة ، وهو يقول فى جدية :

ـ لقد أعدت حساب الموقف كله ، واستقررت على أن احتمال كون المحادثة ، التى تلقاها (رينيه بولار) من (زيورخ) مجرد خدعة ، لا يمكن أن يبلغ مرحلة اليقين ، لأنه لا يمكنك وضع خطة ، استنادًا إلى مصادفة ، قد تحدث وقد لا تحدث ، باعتبار أنه لم يكن من المفترض أن أحصل على هاتف (بولار) .

بدا عليها الاهتمام ، وهى تقول :

ـ يتبقى إذن احتمال الخطأ البشرى .

أجابها بنفس الهدوء :

ـ بالضبط ... دعينا نضيف هذا إلى أننا ، وبشبه يقين ، نرى أن (سونيا جراهام) وراء كل هذا ، بما لها من جرأة وخبرة ، وقدرات مالية وعملية ، على قيادة مؤامرة ضخمة خطيرة كهذه ، والأهم بما تتميز به من انعدام تام للمثل والمبادئ ، وأدنى المشاعر البشرية ، مما يجعلها الخيار الأمثل ، القادر على ارتكاب تلك السلسلة من المذابح والمجازر ، دون أن يطرف لها جفن ، فى سبيل بلوغ أهدافها .

غمغمت ، وقد شارف صبرها على النفاد :

ـ كل هذا اتفقنا عليه تمامًا .

أشار بسبابته قائلاً :

ـ بقيت صفة من أهم صفات (سونيا) ، وأهم نقاط ضعفها فى الوقت ذاته .. الغرور ... بالإضافة إلى تلك الحاجة النرجسية ، التى تدفعها إلى دمغ سجائرها برمزها الخاص .

شملها اهتمام كبير ، وهي تجذب مقعدًا ؛ لتجلس إلى جواره ، وتسأله :

— وكيف يمكن أن يقودنا غرورها ، وترشدنا نرجسيتها إليها ؟!

التفت إليها ، يسألها :

— أي موقع تتخذين كمقر لك ، لو أنك مصابة بضعف الغرور والنرجسية ؟!

التمعت عيناها ، وهي تجيب في حماس :

— قمة العالم .

ابتسم ابتسامة خفيفة ، وهو يشير إلى خرائط (جوجل) على الشاشة ، قائلاً :

— جبال (تيتليس) .

هتفت :

— الآن فهمت .

ثم تلاشى حماسها في سرعة ، وهي تضيف :

— ولكن كيف يمكن أن تختار مقرًا سريًا ، في منطقة ، تعد من أشهر المناطق السياحية الشتوية في العالم ؟!

أجاب ، مستعيدًا هدوءه :

— لن تختاره في منطقة مزدحمة أو سياحية ، وليس أيضًا في مجال التزلج والانحدار ... ولكنه سيظل على القمة .

غمغمت في قلق :

— لن يكون التوصل إلى مقر كهذا ممكنًا .

اتسعت ابتسامته قليلاً ، وهو يقول :

— وماذا كنت أفعل طيلة هذا الوقت إذن ؟!

هتفت في حماس :

— لا تقل لي إنك ..

قاطعها مشيرًا إلى نقطة على خرائط (جوجل) :

— ماذا ترين هنا ؟!

حاولت تدقيق النظر في الصورة على الشاشة ، قبل أن تغمغم في حيرة :

— لست أرى شيئًا .

قام بتكبير الصورة عدة مرات ، قائلاً :

— وماذا الآن ؟!

أطلت الحيرة واضحة ، من صوتها وملامحها ، وهي تغمغم :

— مجرد جليد .

وضع سبابته على نقطة لا تتجاوز بضعة ملليمترات على الشاشة ، قائلاً :

— وماذا عن هذا ؟!

مالت بجسدها كله ، لتلقي نظرة أقرب ، قبل أن تجيب في حيرة :

— يبدو لي أشبه بانعكاس شمس .



أجابها ، وقد تسللت لمحة من الحماس إلى صوته :

ــ بالضبط .

ثم استعاد هدوءه فى سرعة مدهشة ، ليتابع :

ــ الجليد الناعم ، على جبال (سويسرا) لا يعكس أشعة الشمس على هذا النحو ... الانعكاس الذى ترينه هنا ، هو انعكاس ضوء الشمس على زجاج نافذة .

هتفت فى دهشة :

ــ فى هذا المكان ؟!

أجاب ، وهو يعتدل فى ارتياح :

ــ اختيارك يعنى أنه المكان المثالى لوكر سرى ، يصعب أن يخطر ببال أحد .

تصاعد داخلها حماس كبير ، وهى تلوح بيدها ، قائلة :

ــ أستطيع أن أتخيل (سونيا) الآن ، وهى تجلس أمام تلك النافذة الزجاجية ، تنفث دخان سيجارتها ، المدموغة بشعارها ، وهى تتطلع إلى الجليد الممتد أمامها ، على قمة العالم ، حالمة بأن تصبح دماراً أكثر ارتفاعاً من جبال (الألب) نفسها(*) .

نقل إحداثيات الموقع إلى جهاز تحديد الموقع العالمى لديه (GPS) ، ونهض ، قائلاً :

(*) (جبال الألب) هى سلسلة جبال فى (أوروبا) ، تمتد من (النمسا) و(سلوفينيا) شرقاً ، مروراً بـ (إيطاليا) و(سويسرا) و(ليختنشتاين) و(ألمانيا) وحتى (فرنسا) غرباً ، وأعلى قمة فى سلاسل (الألب) هى قمة (مونت بلانك) ، على الحدود الإيطالية ، وتبلغ (4810) متراً .

وسائل الإعلام كلها الآن ، تنتظر ظهورى فى حلبة القتال ، بعد أن تحديت (جون أو) ، والكل سيجد أنها فرصة مثالية للظفر بى ، واضحة الزمان والمكان ، وهذا سيدفعهم جميعاً إلى هناك ، مما سيمنحنا بعض الوقت ، لبدء السباق مبكراً .

غمغمت (منى) ، وهى تستعد بدورها :

ــ سننطلق الآن إذن ، إلى حيث وكر الزعيمة .

أجابها ، وهو يرتدى معطفاً من الفراء :

ــ إلى القمة .

ثم أضاف ، وهو يتجه نحو الباب :

ــ قمة الصراع ...

وكان على حق ...

فقد بدأت المواجهة ...

ومن القمة ...

* * *

« أى عبث هذا ؟! ... »

هتف مخرج ذلك الفيلم ، الذى يتم تصويره ، فى تلك الجزيرة الأندونيسية الصغيرة بالعبارة ، على نحو جعل مدير الإنتاج يبتسم ، قائلاً :

ــ ماذا يزعجك هذه المرة ؟!

لوّح المخرج بذراعه كلها فى حدة ، وهو يجيب :

ــ كل شىء يزعجنى منذ البداية ... منتج مجهول ، وكاتب سيناريو غير معروف ، واختيار ديكتاتورى لموقع التصوير ... وأخيرًا هذا المشهد ، الذى لا أجد له أية صلة بالأحداث .

بدا مدير الإنتاج صارمًا ، وهو يقول :

ــ أظن أن الأجر الذى حصلت عليه ، عدًا ونقدًا ، على نحو يضمن إعفاءه أيضًا من الضرائب على الدخل ، يكفى لتستوعب كل هذا .

هزّ المخرج رأسه فى قوة ، وهو يقول بنفس الحدة :

ــ ولقد وضعت ضمادات على أذنى وعقلى ، وتظاهرت باستيعاب كل هذا ، باعتبار أننى أمام منتج مختل ، ينفق نقوده بلا حساب ، فقط ليتباهى بأنه قد أنتج فيلمًا ... ولكن هذا الفيلم ، أيًا كان ، سيحمل اسمى فى النهاية كمخرج له ، وهذا يجعلنى أراجع السيناريو بمنتهى الدقة .

قال مدير الإنتاج بنفس الصرامة :

ــ ولم يعترض أحد ، على كل ما أدخلته عليه من تعديلات .

هتف المخرج فى غضب :

ــ فيما عدا هذا المشهد العجيب .

تراجع مدير الإنتاج فى مقعده ، وبدا أكثر صرامة ، وهو يقول :

ــ هذا المشهد هو أساس العمل كله .

حدّق فيه المخرج فى دهشة ، قبل أن يهتف مستنكرًا :

ــ وما صلته بالأحداث كلها ؟!... طائرة تلقى شحنة كبيرة ، داخل غلاف مطاطى ، غير قابل للغرق ، على مسافة ميل بحرى واحد[*] ، من شاطئ الجزيرة ، وتخرج سفينة من الجزيرة ، لالتقاط تلك الشحنة ، وعندما يصلون إليها ، تكون قد اختفت .

أشار مدير الإنتاج بيده ، قائلاً :

ــ أليس هذا مدعاة للإثارة بالله عليك ؟!

مال المخرج نحوه ، فى حركة تناقضت حدتها حدته ، وهو يقول :

ــ ولكن السيناريو لا يوضح كيف ولماذا اختفت .

استعاد مدير الإنتاج صرامته ، وهو يقول :

ــ لاحظ أن السيناريو يحمل عبارة (الجزء الأول) مما يعنى أن هناك جزءًا ثانيًا ، تحل فيه كل الغوامض .

مال المخرج نحوه أكثر ، وهو يقول فى حدة شديدة :

ــ ليس بالنسبة لى .

ثم اعتدل بنفس الحدة ، متابعًا :

ــ لا بد وأن أعرف كيف ستختفى ، حتى أجد التكنيك المناسب ، لتصوير المشهد فى الجزء الأول .

[*] الميل البحرى : وحدة طول يستخدمها البحارة ، وهى تساوى دقيقة زاوية واحدة من دائرة العرض ، على أى خط طول ، واستخدامه شائع فى الملاحة الجوية والبحرية ، وهو يساوى (1852) مترًا بالضبط .

قال مدير الإنتاج :

ــ ولكنك لن تعلم .

انتفض جسد المخرج ، وهو يقول بكل استنكار الدنيا :

ــ لن أعلم ؟!

مال مدير الإنتاج نحوه هذه المرة ، وامتزجت صرامته بمزيج من القسوة والشراسة ، وهو يقول :

ــ نعم ... لن تعلم ... وستقوم بتصوير المشهد ، كما هو فى السيناريو بالضبط ، فإن لم تفعل ، سنضيف إلى دعاية الفيلم غموضًا جديدًا .

وقسا صوته أكثر ، وهو يضيف ، ويخترق عينى المخرج بنظرات من نار :

ــ غموض اختفاء مخرج الفيلم ، فى ظروف غامضة .

وامتقع وجه المخرج بشدة ، وهو يتراجع ، ويحدق فى مدير الإنتاج فى مزيج من الذعر والذهول ...

ففى هذه اللحظة فقط ، أدرك أن الأمر يتجاوز مجرّد تصوير فيلم سينمائى ...

يتجاوزه على نحو مخيف ...

للغاية ...

* * *

وقف (إيجور) ، المساعد الجديد للزعيمة (سونيا جراهام) ، بقامته العملاقة ، صامتًا ، فى ركن هذه الحجرة ، التى وقفت فيها هى صامتة ، أمام نافذتها الزجاجية الكبيرة ، تنفث دخان سيجارتها فى بطء وتغرق فى تفكير عميق ، قبل أن تغمغم لنفسها :

ــ (أدهم) لن يواجه (جون لو) .

تصوّر (إيجور) أنها تحدثه ، فغمغم فى حذر :

ــ ماذا أيتها الزعيمة ؟!

وكان من الواضح أنها لم تسمع غمغمته ، وهى تتابع لنفسها :

ــ سيجذب الجميع إلى هناك ، ويتحرك هو فى اتجاه مخالف تمامًا .

أدرك (إيجور) عندئذ أنها لا تتحدث إليه ، فعاد يعتدل فى وقفته الصامتة ، وعادت هى تغرق فى أفكارها الصامتة لحظات أخرى ، قبل أن تلتفت إليه ، قائلة فى حزم :

ــ (إيجور) ... جد لى أكثر من تثق فيه من رجالك ... لا يهمنى أن يكون مقاتلاً ، ولكننى أريده مخلصًا ، يطيع الأوامر حرفيًا ، ولا يحول بينه وبينها شىء ، وليس له سجل سوابق ، أو مطلوب من البوليس الدولى .

شدّ (إيجور) قامته ، وهو يقول :

ــ لدى من تنشدين أيتها الزعيمة .

ثم مال برأسه ، متسائلاً :

ــ هل سيقوم بمهمة انتحارية ؟!



هزّت رأسها نفيًا ، مجيبة :

ــ بل سأرسله بهدية إلى (مصر) .

قالتها ، ثم أشارت له بيدها فى صرامة ، حتى لا يلقى المزيد من الأسئلة فأسرع لإحضار من طلبته ، فى حين اتجهت هى نحو خزانتها السرية ، مغمغمة :

ــ هدية وداع .

ثم فتحت الخزانة السرية ، والتقطت نفسًا عميقًا ، مضيفة :

ــ أخيرة .

قالتها ، وهى تتطلّع إلى تلك القنينة الصغيرة ، التى تحوى كل ما تبقى من ذلك السائل الجبار ...

سائل الدمار ...

الشامل .

* * *

الفصل العشرون

لم يبدُ الارتياح قــط ، على وجــه أى من الموجودين ، فى المكتب البيضاوى للرئيس الأمريكى ، وهذا الأخير يقول فى حنق مكتوم :

ــ الطائرة تستعد للإقلاع ، وعلى متنها مائتا مليار دولار ، داخل غلاف مطاطى ، غير قابل للغرق ، وفقًا للتعليمات .

نطق الكلمة الأخيرة فى غضب واضح ، جعل مستشار الأمن القومى يقول فى عصبية :

ــ وهذا بناءً على تأكيدك يا مدير المخابرات .

شد مدير المخابرات قامته ، وقال فى حزم :

ــ عندما فحص رجالى جثة (أوزاقا) ، عثروا فى كم قميصه على جهاز تنصُّت كريستالى آخر ، ولما كانت تلك العميلة المجهولة قد دست جهازًا مماثلاً فى ظهر سترته ، فالاحتمال الذى قرّره الخبراء ، هو أن من وراء هذه الصفقة هم من زرعوا ذلك الجهاز الآخر فى كم قميصه ، مما يعنى أنهم على علم تام بإتمام الصفقة .

قال وزير الدفاع فى توتر :

ــ وماذا لو أن استنتاجك غير صحيح ، وذلك الجهاز الآخر يخص جهة ثالثة .

أومأ مدير المخابرات برأسه ، قائلاً :

ــ كان هذا وارداً ، حتى تلقيت هذه الرسالة على هاتفي الخاص ، من مصدر مجهول .

قالها ، وهو يخرج هاتفه الخاص ، ويقرأ تلك الرسالة القصيرة على مسامع الحاضرين :

ــ الصفقة ستتم ، حسب المتفق عليه .

ثم لوّح بهاتفه ، مستطرداً في حزم :

ــ كل تكنولوجيتنا عجزت عن تتبع مصدر الرسالة .. ألا يكفي هذا تأكيداً ؟!..

قال الرئيس الأمريكي ، في صرامة عصبية :

ــ نحن نتحدث عن مائتي مليار دولار .

بدا مدير المخابرات صارماً ، على الرغم من مواجهته لرئيسه ، وهو يقول :

ــ بل نتحدث عن استمرار التفوق الأمريكي ... كم يساوي هذا في نظركم ؟!

ران على المكتب البيضاوي صمت رهيب ، عقب قول مدير المخابرات ، ثم التقط الرئيس الأمريكي سمّاعة الهاتف الخاص المؤمّن ، وطلب رقماً قصيراً ، ثم قال في حزم ، لم ينجح في إخفاء توتره :

ــ فلتنطلق الطائرة إلى الهدف .

ثم أعاد السماعة إلى موضعها ، ووجهه كوجه الآخرين ، يحمل التوتر ...

كل التوتر ...

* * *

التمعت مصابيح عدسات الصحفيين ، في القاعة التي تم تجهيزها للتحدي المنتظر ، بين (جون لو) ، بطل العالم في رياضة (جيت كون دو) ، وبين (أدهم) ... وفي حماس ، هتف معلّق برنامج رياضي سويسري شهير :

ــ البطل (جون لو) وصل منذ عشر دقائق ، ومازلنا في انتظار منافسه (أندريه سيموتييه) ، الذي لم يصل بعد ، والذي بدأ هذا التحدي ، على الرغم من عدم وجود سجل رياضي له ... ولقد حاول طاقم برنامجنا جمع أية معلومات عنه ، على الرغم من أنه لم يعلن ما إذا كان فرنسياً أم بلجيكياً[*] ، ولكن لم تصلنا أية معلومات عنه حتى الآن .

« جنرال (كوربوف) ... يالها من مفاجأة !... »

صدم القول أنتى (سيرجي كوربوف) ، وهو يجلس في الصفوف الخلفية ، في تلك الساحة ، المفترض أن تشهد التحدي ، بين (جون لو) و(أدهم) ، الذي قدّم تحديه باسم (أندريه سيموتييه) ، فأدار عينيه في بطء وبرود إلى صاحب العبارة ، قائلاً :

(*) القطاع الأكبر من (بلجيكا) يتحدث اللغة الفرنسية ، وفي بعض بلدان (بلجيكا) ، [illegible] العاصمة (بروكسل) ، تبدو اللهجة أقرب إلى فرنسية الجنوب [illegible] القطاع الآخر من (بلجيكا) ، فهو يتحدث اللغة الفلمنكية ، التي لا يتحدثها سواه .

ــ وجودك هو المفاجأة يا كولونيل (بورتر) .

جلس (بورتر) الأمريكى ، إلى جوار (سيرجى) الروسى ، وهو يقول :

ــ كلانا نعلم أننا هنا للسبب نفسه يا جنرال .

نظر (سيرجى) أمامه ، وهو يجيب فى برود :

ــ ولسنا وحدنا يا كولونيل ... هناك فى الصف الأوّل ، ستجد (جيمس رالى) ، من المخابرات الإنجليزية ، وإلى يسارنا (فال ريتوار) فارس المخابرات الفرنسية ... أما إلى اليمين ...

قاطعه (بورتر) فى جذل :

ــ دعنا نشكر (أدهم صبرى) إذن ، الذى جمع كل أجهزة المخابرات العالمية فى مكان واحد .

ثم مال جانبًا ، متابعًا فى اهتمام :

ــ ولكن هل تعتقد أنه سيخاطر بالظهور ؟!

صمت (سيرجى) لحظات ، قبل أن يقول :

ــ هل عهدت ذلك المصرى يفعل شيئًا نتوقّعه ؟!

انتقل صمته إلى (بورتر) ، الذى صمت لحظات بدوره ، ثم قال فى حنق :

ــ كلا .

واصل صمته لحظة أخرى ، ثم تابع فى حدة :

ــ ولكن سؤالك لا يجيب سؤالى .

أشار (سيرجى) بكفه ، قائلاً :

ــ لأن السؤال هو الجواب الوحيد لسؤالك ... فلو كنا نتوقّع أن يظهر ، فربما يباغتنا بعدم الحضور ، أما لو قلنا إنه حتمًا لن يأتى ، فمن المحتمل أن يفاجئنا بالحضور .

غمغم (بورتر) مستنكرًا :

ــ فى وجود عصبة التخابر هذه ؟!

هزّ (سيرجى) كتفيه ، مجيبًا :

ــ وهل تعتقد أن هذا يمكن أن يردعه ؟!

مطّ (بورتر) شفتيه ، دون أن يجيب ، ولم يضف لسانه كلمة أخرى ، وإن جال فى أعماقه تساؤل مقلق ...

لو لم يأتِ (أدهم) ، فأين من المحتمل أن يكون ؟!...

أين ؟!...

* * *

« سنصل أوّلا إلى المنطقة السياحية ، فى جبال (تيتليس) ، ومن هناك سنستقل زلاجات آلية ، حتى قرب المنطقة ، التى أقامت فيها الأفعى وكرها ... »

قالت (منى) هذا ، وهى تراجع الخريطة الرقمية ، على شاشة جهاز الآى باد (IPAD) الخاص بها ، ثم أدارت عينيها إلى (أدهم) ، الذى يقود سيارته فى سرعة متوسطة ، لا تجذب انتباه رجال الشرطة ، وتابعت :



ــ ومن هناك سنضطر إلى التزلج على الجليد ليلاً ؛ لبلوغ الوكر .

غمغم (أدهم) :

ــ التزلج الليلى بالغ الخطورة .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ــ ولكنه ليس مستحيلاً :

حاولت أن تبتسم ، وهى تقول :

ــ ملحق السفارة زوَّدنا بأجهزة رؤية ليلية .

قال فى حزم :

ــ سيمتلك رجال (سوليا) مثلها حتماً .

وهنا ابتسمت بالفعل ، قائلة :

ــ أمن المفترض أن يطمئننى هذا ؟!

قال فى حزم مماثل :

ــ لا تنسى أننا فى سباق مع الوقت ... لسنا ندرى متى يمكن أن يصبح كل ما نفعله بلا جدوى .

سألته فى قلق :

ــ ماذا تعنى ؟!

أجابها فى لهجة قوية :

ــ لو أن تحليل خبرائنا للموقف صحيح ، فهناك صفقة ما ، تتم بين (سوليا) ، وواحدة من الدول العظمى ؛ لتمنحها ذلك السلاح السائل الجبار ، مقابل مبلغ لم يبع به سلاحاً قط ، حتى القنابل الذرية .

انعقدت ، وقد تضاعف قلقها :

ــ تعنى أننا لا نعلم ما إذا كانت الصفقة قد تمت أم لا ؟!...

أجاب فى حسم :

ــ بالضبط .

صمتت لحظات ، تحاول هضم ما فاجأها به ، قبل أن تسأله :

ــ وما تلك الدولة الكبرى من وجهة نظرك ؟!

صمت بدوره لحظات ، ثم أجاب :

ــ بالنسبة للتنافس فى هذا العصر ، لا توجد سوى دولتين فحسب .. الولايات المتحدة الأمريكية ، أو (الصين) .

سألته فى اهتمام :

ــ من الأرجح فى نظرك ؟!

أجاب فى سرعة :

ــ (أمريكا) .

سألته :

ــ ولماذا ليس (الصين) ؟!



أجاب بنفس السرعة ، وكأنه درس هذا فى عقله من قبل :

ـــ لأن ميول (سونيا) رأسمالية صرفة ، ولن تسمح نفسيًّا ، بأن تمنح سيادة وزعامة العالم لقوة شيوعية .

أومأت برأسها ، مغمغمة :

ـــ أنت على حق .

ثم استدركت فى سرعة :

ـــ بافتراض أن (سونيا) وراء كل هذا .

أجابها فى ثقة حاسمة :

ـــ إنها كذلك .

شملهما الصمت بعد هذا ، وهو ينطلق بالسيارة ...

وينطلق ...

وينطلق ...

* * *

لسبب ما ، شعر (إيان نورتون) ، رجل المخابرات الأمريكى بشىء من التوتر ، وهو يدس مفتاحه فى باب منزله ، فتوقف لحظة ، تلفت خلالها حوله ، ثم غمغم فى توتر :

ـــ ماذا أصابنى ؟!... أهو نوع من الوسواس القهرى ، أم ...

قاطعه صوت أنثوى ، يجمع ما بين النعومة والصرامة ، على نحو عجيب :

ـــ أو هى حاسة رجال المخابرات ، التى تنمو مع الزمن والخبرة .

انتفض (نورتون) ، قبل أن ينتبه إلى طبيعة وهوية صاحبة الصوت ، فهتف فى حنق :

ـــ أمن الضرورى أن تتم كل لقاءاتنا على هذا النحو يا (تيا) ؟!

تجاهلت (تيا) قوله تمامًا ، وهى تقول فى صرامة :

ـــ أعد مفتاحك إلى جيبك يا (نورتون) ؛ حتى لا تنتبه زوجتك ، وينتبه أبناؤك إلى ما يحدث .

أعاد (نورتون) مفتاح منزله إلى جيبه بالفعل ، وهو يقول فى عصبية :

ـــ إنك ستفسدين حياتى يومًا يا (تيا) .

جذبته (تيا) من ذراعه ، بعيدًا عن منزله ، وهى تسأله فى صرامة :

ـــ أريد معرفة موقع الكولونيل (بورتر) الآن .

قال فى عصبية أكثر ، وكثير من الاستنكار :

ـــ الآن يا (تيا) ؟!

تضاعفت صرامتها ، وهى تؤكِّد :

ـــ الآن (نورتون) .

بدا توتر شديد على وجه (نورتون) ، فأضافت فى صرامة أكبر :

ـــ ولا تخبرنى أنك تعجز عن معرفة هذا ، عبر ذلك البرنامج السرى على هاتفك ، والذى زوّدناك به .

أخرج هاتفه من جيبه بكل التوتر ، وهو يهتف بها فى خفوت :

ـ هلاّ خفضت من صوتك !!... أتريدين أن يعلم الحى كله ما نفعله ،

عقدت ساعديها أمام صدرها ، وهى تقول :

ـ سأنتظر .

مضت دقيقة ونصف الدقيقة ، وهو يتعامل مع ذلك البرنامج السرى على هاتفه ، والذى يربطه بجهاز الكمبيوتر الخاص به فى (لانجلى) ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ آخر موقع للكولونيل (بورتر) وفريقه ، هو (برن) فى (سويسرا) .

انعقد حاجباها الجميلان فى شدة ، وهى تغمغم :

ـ (سويسرا) ؟!

واصل ، وكأنه لم يسمع تعليقها :

ـ ذهب إلى هناك ، خلف رجل المخابرات المصرى (أدهم صبرى) .

وعلى الرغم من برودها وقسوتها ، سرت فى جسد (تيا) قشعريرة غير ملحوظة ، لدى سماعها اسم (أدهم) ، ولم ينجح لسانها فى نطق حرف واحد ، فى حين قال (نورتون) فى عصبية :

ـ الآن وقد حصلت على ما أردت ، انصرفى من هنا أرجوك ، قبل أن أجد نفسى فى مواجهة مع قسم التحقيقات ، فى المخابرات المركزية .

ألقت (تيا) نظرة على ما خلف ظهره ، وهى تقول :

ـ أعتقد أنك ستواجه ما هو أشرس من هذا .

قالتها ، وانصرفت متجهة إلى سيارتها ، فالتفت (نورتون) إلى حيث تنظر ، وانتفض جسده ، عندما ارتطم بصره بزوجته ، التى تقف عند باب منزله ، عاقدة ساعديها أمام صدرها ، والغضب يطل من ملامحها وصوتها ، وهى تقول فى حدة :

ـ من هذه المرأة يا (آيان) ؟!

وامتقع وجه رجل المخابرات الأمريكى ...

بمنتهى الشدة ...

* * *

استمعت (سونيا) بمنتهى الاهتمام والانتباه ، إلى محدّثها ، عبر هاتفها الخاص المؤمّن ، وغمغمت فى عصبية ، حاولت جاهدة كتمانها :

ـ إذن فهو لم يأت لمواجهة (جون لو) !

استمعت مرة أخرى إلى محدثها ، ثم قالت فى حدة :

ـ لا شىء من كل هذا يعنيه ... إنه لم يكن ينوى مواجهته فعليًّا ، عندما تحداه على هذا النحو السافر .

ثم انعقد حاجباها الجميلان ، وتضاعفت حدتها ، وهى تقول :

ـ (سيرجى كوريوف) و(ريتشارد بورتر) أيضًا ؟!... يبدو أننى كنت على حق ، عندما أرسلت ذلك المبعوث إلى (مصر) .

واكتسب صوتها قساوة شديدة ، وهى تضيف :

ـ اعرف أين ذهب (أدهم) ... سل كل من تعرفهم ، وأنفق أى مبلغ بلا حدود ، ولكن آتنى بمعلومة عن اتجاهه

أنهت المحادثة ، ووقفت صامتة لحظات ، قبل أن تغمغم فى مقت :

ـــ إنه فى طريقه إلى هنا .

كان (إيجور) يقف بقامته العملاقة كخادم مطيع ، بالقرب من حائط المكان ، فالتفتت إليه بحركة حادة ، جعلته يشد قامته بحركة سريعة ، وهى تقول فى صرامة آمرة :

ـــ (إيجور) ... أريدك أن تعد جيشًا من رجالك ... من أقوى رجالك ، وأكثرهم جرأة ومهارة .. قم بتزويدهم بأزياء بيضاء ، تخفيهم وسط الجليد ، تمامًا كالجيش الأبيض ، الذى حطّم مقاومة النازيين ، فى الحرب العالمية الثانية(*) ... وكان بداية هزيمتهم ...

وأريدك أن تنشر هذا الجيش الأبيض ، بكامل تسليحه ، فى دائرة نصف قطرها كيلو متر واحد ، ومركزها هذا القصر ... وأمرهم باستخدام أجهزة الرؤية الليلية ، وكواتم الصوت ، وإطلاق النار مباشرة ، على كل ما يثير شبهاتهم ، حتى ولو كان حيوانًا بريًا .

انعقد حاجبا (إيجور) ، وهو يتساءل :

ـــ هل تتوقعين هجومًا وشيكًا أيتها الزعيمة ؟! ...

أجابته فى اقتضاب ، وهى تشعل سيجارتها الرفيعة :

ـــ أجل .

تساءل فى تحفز :

(*) حقيقة تاريخية .

ـــ من جيش مدرّب ؟!

نفثت دخان سيجارتها فى بطء ، قبل أن تجيب ، فى مزيج من المقت والصرامة :

ـــ بل من رجل .. رجل وفتاة .

ارتفع حاجبا (إيجور) فى دهشـــة مصـــدومة ، فتابعت فى حنق :

ـــ رجل من طراز خاص ... خاص جدًا .

وبالتأكيد ، لم يستوعب (إيجور) الأمر ...

على الإطلاق ...

* * *

« ها نحن ذا وحدنا يا جنرال ... »

قالها الكولونيل (بورتر) فى استهتار ، وهو يقف فى مواجهة (سيرجى كوريوف) ، الذى بدا أقصر قامة ، وأعرض جسدًا منه ، مما منح (بورتر) شعورًا زائفًا بالقوة ، وهو يتابع :

ـــ ولكن اعلم أن أية محاولة للتفاوض مرفوضة مقدمًا .

لم يرَ أى انفعال على وجه (سيرجى) البارد ، وهو يقول :

ـــ ومن أشار إلى التفاوض ؟!

لوّح (بورتر) بيده ، قائلاً :

ـــ (أدهم) لم يحضر المواجهة مع (جون لو) ، وهذا يعنى أن كل هذا

كان مجرد خدعة ؛ لتعطيلنا جميعًا هنا ، فى حين يكمل هو مهمته ، التى أراهن أنك لا تعلم عنها شيئًا .

رمقه (سيرجى) بنظرة باردة ، وهو يقول :

ـــ وهل تعلم أنت ؟!..

ابتسم (بورتر) ابتسامة واثقة ، وهو يقول :

ـــ كلانا يعلم أن هذا يندرج تحت مصطلح (الأمن القومى) يا جنرال .

شدّ (سيرجى) قامته ، ولكن حتى هذا لم يجعله يبلغ عنق (بورتر) ، وهو يقول فى صرامة ، لها برودة الثلج :

ـــ لو أنك تعنى ذلك السائل الجبار ، الذى يصنع انفجارًا هائلاً نظيفًا ، برنين هاتف محمول صغير ، فنحن نعلم كل شىء عن هذا ؛ لأن قومنا هم من صنعوه .

لم يستطع (بورتر) إخفاء دهشته الكبيرة ، وهو يحدّق فى وجه (سيرجى) ، الذى حاول أن يشد قامته أكثر ، وهو يقول :

ـــ أمنك القومى يعلم أن (أدهم صبرى) هنا ... أليس كذلك ؟!

لم يجب (بورتر) ، وهو يواصل التحديق فى وجه (سيرجى) ، الذى ارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة ، وهو يتراجع برأسه العريض ، قائلاً :

ـــ إنه هنا .

انتزع (بورتر) نفسه من دهشته ، ولوّح بسبّابته فى وجه (سيرجى) ، قائلاً فى لهجة ، هى كل التهديد والوعيد :

ـــ اسمع يا جنرال .. لا تنسوا أننا أسقطنا الاتحاد السوفيتى ، دون أن نطلق رصاصة واحدة ، ولو أنك لم تتراجع ، فسوف ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، مع ذلك الدوى المكتوم ، والألم الذى شعر به فى معدته بغتة ، وحدّق فى وجه (سيرجى) ، وفى ابتسامته الظافرة ، فى استنكار ذاهل ، و ...

وصدر دوى مكتوم آخر ...

وانتفض جسد (بورتر) ...

وسال خيطان من الدم ، من صدره ومعدته ، وهو يخفض بصره إلى يد (سيرجى) ، الممسكة بمسدس صغير ، روسى الصنع ، يتصاعد الدخان من فوهة كاتم الصوت المثبت به ، ثم يرفع بصره بنظرة ذاهلة مستنكرة إلى (سيرجى) ، الذى ضغط زناد مسدسه الصغير مرة ثالثة ، فانتفض جسد (بورتر) بمنتهى العنف ، قبل أن يسقط جثة هامدة ، تحت قدمى رجل المخابرات الروسى ، الذى قال فى برود شديد القسوة :

ـــ الاتحاد السوفيتى القديم سقط ، ولكننى مازلت أقف على قدمىّ يا كولونيل .

وأعاد مسدسه الصغير إلى غمده ، وهو يضيف :

ـــ على عكسك أنت .

عقب عبارته الأخيرة ، ظهر الشخصان المصاحبان له ، ومسدساهما المزودان بكاتمى صوت ، والدخان يتصاعد منهما أيضًا ... فالتفت إليهما (سيرجى) ، يسألهما فى برود صارم :

ـــ ماذا عن رجاله ؟!

أجابه أحد الضخمين في غلظة طبيعية :

ـــ لم يعد لديه رجال .

وأضاف الثاني بخشونته :

ـــ على قيد الحياة .

أعاد (سيرجي) مسدسه إلى جيب خفي في سترته ، وقال في صرامة :

ـــ (أدهم صبري) هنا ، وهذا يعني أن تلك الأفعى ، التي نسعى خلفها ، هنا أيضًا .

قال هذا ، واكتفى بنظرة صارمة ، حملت ما تبقى من أوامره لرجليه الضخمين ، فانطلقا على الفور لتعقب أي أثر للاثنين ...

(سونيا جراهام) ...

و (أدهم) ...

(أدهم صبري) ...

* * *

وفقًا لأوامر (سونيا جراهام) ، قام (إيجور) بتوزيع جيشه الأبيض ، المزوّد بكل أنواع الأسلحة الحديثة ، وبنادق القنص ، ذات المناظير المقرّبة ، الخاصة بالرؤية الليلية ، في دائرة نصف قطرها كيلومتر واحد ، حول مقر (سونيا) ، ونقل أوامرها لهم جميعًا ، قبل أن يجري اتصاله بهذه الأخيرة ، قائلاً في مزيج مدهش ، من الحزم والخضوع :

ـــ تم التنفيذ أيتها الزعيمة .

غمغمت (سونيا) في صرامة ، وهي تنفث دخان سيجارتها :

ـــ عظيم .

قالتها ، وأنهت اتصالها مع (إيجور) ، ثم أدارت بصرها إلى شاشة كبيرة خاصة ، تنقل إليها صورًا ، يتم استدعاؤها ، عبر سيطرة سرية على الأقمار الصناعية الأمريكية في سماء (أوروبا) ....

كانت تحاول الاطمئنان على كل المنطقة المحيطة بوكرها ...

فظهور (أدهم صبري) في (سويسرا) ، يعني أنه قد تتبع أثر الخيط ، الذي نشأ من الخطأ الغبي لمساعدها السابق (رودلف) ، واستكمل هذا بخبرته الطويلة ، في التعامل مع أجهزة المخابرات ، وفي مواجهاته معها ، ليعلم أن مقرها السري هنا ... في (سويسرا) ...

إن عاجلاً أو آجلاً ، سيصل إليها ...

ليست تدري كيف ، ولكنها تثق في أنه سيفعل ...

فهو دومًا يفعل ...

وكم تمقت هذا !!...

راحت تنفث دخان سيجارتها في عصبية ، وهي تتابع على تلك الشاشة الخاصة ، صور الأقمار الصناعية ، الخاصة بالرؤية الليلية ...

كانت الجبال المحيطة بمقرها تبدو هادئة مسالمة ...

ولكن هذا لم ينقص من توترها ، و ...

وفجأة ، لمحت على الشاشة تلك الحركة ...

حركة زلاجتين آليتين ، تنطلقان فوق الجليد ، في اتجاه مقرها ...

وللحظة ، انتفض جسدها كله ...

وسعلت وهي تنفث دخان سيجارتها ...

وفي عصبية ضغطت أزرار التكبير على الشاشة ، التي نقلت إليها تلك الصورة ، ذات اللون الأخضر ، للزلاجتين الآليتين ...

وانتفض جسدها مرة أخرى ...

وفي أعماقها هتفت أنه هو ...

(أدهم) ...

(أدهم صبري) ...

وبنفس العصبية ، ضغطت زر الاتصال في هاتفها ، ولم تكد تسمع صوت مساعدها (إيجور) ، حتى قالت بكل صرامتها وانفعالها :

— (إيجور) ... لقد حددت موقع الهدف ... خذ عشرة من رجال جيشك الأبيض ، وانطلق إلى موقعه فورًا .

نقلت إليه الإحداثيات في انفعال ، جعله يقول في حزم :

— سننطلق إلى هناك على الفور أيتها الزعيمة .

أنهت الاتصال ، وعادت تتابع الشاشة ، وجسدها يعاود انتفاضاته القصيرة .. فمع تطورات الأمر ، صار من الضروري أن تقضي على أكبر خطر يواجه مشروعها ، الذي بذلت من أجله كل هذا ...

لا بد وأن تقضي على (أدهم) ...

وبلا رحمة .

* * *



الفصل الحادى والعشرون

فرك الرئيس الأمريكى جفنيه ، فى إرهاق شديد ، لم يقل عن إرهاق من اجتمعوا فى مكتبه ؛ لأن أحدهم لم يذق طعم النوم ، منذ أكثر من أربعين ساعة متصلة ، وراح وزير الدفاع يقاوم سقوط جفنيه فى صعوبة ، فى حين أسبل مستشار الأمن القومى جفنيه لنوم قصير ..

مدير المخابرات وحده ظل متماسكًا ، يلقى نظرة على ساعته ، وهو يقول فى حزم متوتر :

ـــ ساعتان وسبع دقائق .

كلماته جعلت الرئيس الأمريكى يعتدل ، ووزير الدفاع يتساءل :

ـــ ما هذا ؟!

أجاب مدير المخابرات فى صوت قوى ، وكأنما يتعمّد نفض الإنهاك عن رءوسهم جميعًا :

ـــ إنه الزمن المتبقى ، قبل أن تصل الطائرة إلى هدفها .

نجحت عبارته فى أداء مهمتها ، حتى أن مستشار الأمن القومى قد فتح عينيه ، ودعك جفنيه ، وهو يقول فى توتر :

ـــ إنها أكبر مغامرة سياسية نقوم بها .

قال الرئيس الأمريكى فى عصبية :

ـــ ليتها سياسية فحسب .

وغمغم وزير الدفاع :

ـــ إنها مغامرة أمنية أيضًا .

شدّ مدير المخابرات قامته ، وهو يقول :

ـــ الواقع أن الأمر يتجاوز حدود المغامرة ، سواء أكانت أمنية أو سياسية ... إنه نقطـة تحول تاريخية ، فى ميزان القـوة العالمى ...

انتبه الكل إلى كلماته هذه المرة ، وتلاشى شعورهم تمامًا بالإرهاق ، وهم يستمعون إليه بكل انتباه ، على نحو جعله يتابع فى حزم :

ـــ فقبل الحرب العالمية الأولى ، كانت (تركيا) و(ألمانيا) دولتين عظميين ، يحسب لقوتهما ألف حساب ، وبعد الحرب ، ضاعت قوتهما تمامًا ، وصـارتا دولتين مهزومتين خائفتين ... وهنـا صـارت القوتان العظميان فى العالم هما (إنجلترا) و(فرنسا) ، واندلعت الحرب العالمية الثانية ...

قال وزير الدفاع فى حنق :

ـــ منذ حداثتى ، أكره دروس التاريخ .

رمقه مدير المخابرات بنظرة استهانة ، وأشار بيده ، قائلاً :

ـــ ما أردت الوصول إليه ، هو أن ميزان القوى فى العالم لم يتغيّر بسقوط (ألمانيا) فحسب ، عقب الحرب العالمية الثانية ، ولكنه تغيّر ، وبشـدة ، مع استخدامنا قنبلتى (هيروشيما) و(ناجازاكى) ... وقتها العالم أدرك أننا صرنا نمتلك سلاحًا جبارًا ، لا قبل لأحد به ... وهكذا صرنا زعماء العالم آنذاك .

قال مستشار الأمن القومى فى صرامة :

ـ وما زلنا .

أشار إليه مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ لا تنس أن الاتحاد السوفيتى السابق قد أعاد قلب الموازين ، عندما فجّر قنبلته الذرية الأولى عام 1949م ، فلم نعد منذ ذلك الحين زعماء العالم ، بل عادت مرحلة القوتين العظميين مرة أخرى .

بدا وزير الدفاع متبرمًا ، وهو يقول :

ـ لست أدرى لماذا تسرف فى شرح الخلفيات التاريخية ، ولكننا استعدنا زعامة العالم ، عندما أسقطنا الاتحاد السوفيتى فى أوائل التسعينات(*) .

التفت إليه مدير المخابرات ، ولوّح بسبّابته هاتفًا :

ـ بالضبط .

انعقد حاجبا وزير الدفاع فى شدة ، فقال الرئيس الأمريكى :

ـ مدير المخابرات يريد أن يقول : إنه لو حصلت دولة أخرى على ذلك السلاح السائل الجبار ، والذى تكفى قطرات منه لرفع راية الموت فى مساحة كبيرة ، فلن يعنى هذا أن زمن القوتين العظميين قد عاد ، ولكنه سيعنى أننا قد فقدنا زعامتنا إلى الأبد .

هتف وزير الدفاع معترضًا :

(*) الخلفية التاريخية كلها صحيحة .

ـ نحن لا ننتزع العالم بالقنبلة الذرية وحدها ، بل بالعقول والعلم ، الذى يجعل كل جديد فى العالم يخرج من هنا ... نحن الذين نقود العالم فعليًا ، ما دمنا نقود عجلة التطور العالمية .

أجابه الرئيس فى صرامة :

ـ وعلى الرغم من هذا ، فإن تنظيمًا إرهابيًا واحدًا ، جعلنا جالسين هنا نرتجف ، خشية أن تكـون هنـاك قطرات من ذلك السـائل الجبـار هنا أو هناك ، قادرة على محو إحدى مدننا ، برنين هاتف محمول عادى .. تنظيم إجرامى واحد ، أجبرنا على طاعة أوامره ، وعلى تسليمه مائتى مليار دولار ، دون حتى أن يحدد كيف سيسلمنا ذلك السائل الجبار .. ماذا لو حصل تنظيم إرهابى على قنينة صغيرة من ذلك السائل ؟!... ماذا لو نال بعض الانتحاريين ، من المهووسين دينيًا قطرات منه ؟!... ماذا ؟!

تراجع وزير الدفاع ، مقطبًا فى توتر :

ـ ربما لهذا يقلقنى أننا لم نعلم متى وكيف سيسلمنا ذلك التنظيم الإجرامى السلاح السائل .

شد مدير المخابرات قامته مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ أقمارنا الصناعية ستلعب دورًا فعالاً فى هذا الشأن .

ثم مال إلى الأمام ، مضيفًا :

ـ لهذا قد أتفق معكم على أنها مغامرة ... مغامرة من نوع خاص جدًا .



وتطلعت إليه كل العيون في تساؤل حائر ..

ففي هذه المرة ، كان الكل يتساءل : ما هي الصلة بين الأقمار الصناعية والمغامرة ؟!...

ما هي ؟!...

* * *

انفعــال جارف ، سرى في كيان (سونيا) ، وهي تتابع عبر شاشتها الكبيرة صورة الأقمار الصناعية ، المزوّدة بعدسات للرؤية الليلية ، وهي تنقل مشهد الزلاجتين الآليتين ، وهما تقتربان من ذلك الموضع ، الذي صنع فيه رجال جيش (أيجور) الأبيض ما يشبه القوس الكبير ، وكل منهم مستعد ببندقية قنص قوية ، ذات منظار مخصّص للرؤية الليلية ...

كانوا ينتظرون اللحظة المناسبة ، التي تضمن أن تصيب كل رصاصاتهم الزلاجتين وراكبيهما ...

وسحقهما سحقًا ..

ومع اقتراب الزلاجتين ، راح قلب (سونيا) يخفق في قوة ، وراحت تنفث دخان سيجارتها في سرعة وعصبية ، و ...

وبلغت الزلاجتان نقطة مناسبة ...

وكمحترفين ، أطلق رجال جيشها الأبيض النار ، وفي تناسق واحد ...

وكمحترفين أيضًا ، أصابت كل رصاصاتهم أهدافها ...

وانتفض قلب (سونيا) في قوة ، عندما رأت ، عبر شاشتها الكبيرة ، الزلاجتين الآليتين تتحطمان ، وراكبيهما يسقطان عنهما دون حراك ...

وبكل انفعالها ، ألقت سيجارتها ، التي بلغت نهايتها ، وأشعلت سيجارة أخرى بقداحتها الذهبية ، وراحت تنفث دخانها بكل العصبية ...

أما تراه حقيقيًا بالفعل ؟!...

هل حانت اللحظة ، التي بدت لها لسنوات مستحيلة ؟!...

هل سقط (أدهم صبري) ...

هل سقط الرجل ، الذي أذاقها كل هزائم حياتها ؟!...

هل انتهت حيــاة الرجل ، الذي تكرهه بكل خلية من عقلها ؟!...

والذي تعشقه أيضًا ، بكل نبضة في قلبها ؟!...

الرجل الذي عندما سقط بين أيديها فاقد الذاكرة ، لم تتخلص منه ...

بل تزوجته [*] ..

ولم تتزوجه فحسب ، بل أنجبت منه ابنا أيضًا [**] .

وحتى بعد أن استعاد ذاكرته ، وتركها ، ظلّ ذلك التناقض العجيب كامنًا في أعماقها ..

الكراهية ...

والحب ...

ربما تكرهه وتبغضه ، لأنه لم يبق معها ، على الرغم من أنها أنجبت له ابنه الوحيد !...

[*] راجع قصة (الرجل الآخر) المغامرة رقم (81) ، من سلسلة رجل المستحيل.

[**] راجع قصة (الأخطبوط) المغامرة رقم (82) ، من سلسلة رجل المستحيل.

أو تكرهه وتبغضه كأنثى ؛ لأنه تركها من أجل أخرى ...

فى تلك اللحظات ، التى جالت فيها تلك الخواطر فى رأسها ، كان (أيجور) وجيشه الأبيض يسرعون للتيقن من نجاح عملهما و ...

« أيتها الزعيمة .. »

انتزعتها كلمات (أيجور) من خواطرها ، عندما انطلقت عبر جهاز الاتصال المحدود الذى تحمله ...

والواقع أن الكلمات نفسها لم تكن ما انتزعها ...

وإنما اللهجة التى قيلت بها ، والتى جعلتها تسأله فى شىء من الحدة :

ـــ ماذا وجدتم يا (أيجور) ؟!

بدا صوته شديد الارتباك ، وهو يجيب :

ـــ الزلاجتان أيتها الزعيمة ..

ازدادت لهجتها حدة ، وعلا صوتها أكثر ، وهى تقول :

ـــ ماذا عنهما ؟!... أسرع ..

أجابها فى سرعة ، على الرغم من ارتباكه الواضح :

ـــ لقد تم تدميرهما تمامًا ، ولكن راكباهما لم يكونا ..

انعقد لسانه لحظة ، هتفت هى خلالها ، بكل عصبية الدنيا :

ـــ لا تقل لى إنهما لم يكونا بشريين .

انخفض صوته ، وهو يقول :

ـــ تمثالان من الخشب أيتها الزعيمة ... تمثالان من تلك التى توضع فى واجهات المحال التجارية .

كانت تحطم أسنانها ببعضهما البعض ، وهى تضغطهما فى قوة ، هاتفة :

ـــ هذا الـ ...

لم تتم هتافها ، وهى تسأل (أيجور) فى شراسة :

ـــ لو أن هناك كاميرات تصوير ليلية ، فى مقدمة كل زلاجة ، فسوف ..

قاطعها هتاف (أيجور) الذاهل المبهور :

ـــ كيف عرفت أيتها الزعيمة ؟!

مرة أخرى كانت تحطم أسنانها ببعضها البعض ، دون أن تنطق كلمة واحدة ...

« إنها هى ... لم يعد هناك من شك .. »

قالتها (منى) فى حماس ، وهى تجلس إلى جوار (أدهم) ، داخل تلك الهليوكوبتر الصغيرة ، التى تحلق بهما فوق جبال (تبليس) ، وأضافت وهى تشير إلى جهاز صغير تحمله ، له شاشة بعرض خمس بوصات :

لن أخطئ صوتها أبدًا .

قال (أدهم) فى حزم ، وهو يراقب مسار الهليوكوبتر فى اهتمام :

ـــ جيش أبيض ، مثلما حدث فى الحرب العالمية الثانية ... ومن الواضح أنك تجيدين الإفادة من دروس التاريخ يا (سونيا)



قالها ، ورَبَّت على كتف قائد الهليوكوبتر ، مستطردًا بالفرنسية(*) .

ـ ستهبط عند تلك القمة هناك يا رجل .

اتجه طيّار الهليوكوبتر إلى حيث أشار (أدهم) ، واختلس نظرة إلى الزلاجات في قدمي (أدهم) و(منى) ، وهو يقول في حذر :

ـ التزلج الليلي في هـذه الأنحـاء بالغ الخطورة ... هناك منحدرات كبيرة ، وبرك مياه متجمّدة ، و ...

قاطعه (أدهم) في صرامة :

ـ دعنا نحن نتحمّل هذه الأمور .

هزّ الطيّار كتفيه ، وهو يغمغم :

ـ لا بأس ... العمل على هليوكوبتر سياحي ، جعلني أرى ما هو أسوأ من هذا .

تجاهل (أدهم) و(منى) قوله تمامًا ، وتبادلا نظرة صامتة ، ثم وضع كل منهما على عينيـه منظـارًا للرؤية الليليـة ، وما أن انخفض الطيّار بالهليوكوبتر ، عند تلك القمة ، حتى وثب كلاهما خارجها ، دون أدنى تردد ...

وثبا نحو الجليد ...

جليد الخطر ...

والموت ...

* * *

(*) الكثيرون من سكان (سويسرا) يتحدثون الفرنسية .

كانت السماء قد تلوّنت على الشـو ، بأضواء الشروق الأولى ، عنـدما تأهب مخرج ذلك الفيلم ، في الجزيرة الأندونيسية الصغيرة ، قبل أن يقول لمدير الإنتاج في حنق :

ـ في الفجر !!... لا بد وأن يتم تصوير لقطة تلك الطائرة الغامضة في الفجر !!

وعلا صوته مع علو حدته ، وهو يضيف :

ـ ثم أين تلك الطائرة بالضبط ؟!

أجابه مدير الإنتاج في هدوء :

ـ عندما تعد الكاميرات ، ويستعد طاقمك ، ويتأهب الزورق ، ستظهر الطائرة في السماء .

تطلع إليه المخرج لحظات ، في مزيج من الشك والحنق ، قبل أن يميل نحوه في حركة حادة ، ليسأله :

ـ أأنت واثق من أن الأمر هو مجرّد فيلم ؟!

رمقه مدير الإنتاج بنظرة باردة ، وهو يقول :

ـ بالنسبة لمن ؟!...

تراجع المخرج ، محدّقًا في وجه مدير الإنتاج ، واستعاد عقله حديثهما السابق ، وذلك التلميح الدموي الواضح ، فشحب وجهه وصوته ، وهو يتمتم :

ـ أنت على ثقة إذن من أن الطائرة ستظهر

التقى مدير الإنتاج بإيماءة إيجابية من رأسه ، فالتقط المخرج نفسًا عميقًا ، فى محاولة لتهدئة توتره الشديد ، وغمغم وهو ينهض :

ــ علينا أن نبدأ استعداداتنا إذن .

تابعه مدير الإنتاج ببصره ، وهو يبتسم ابتسامة ظافرة ...

ولكن تلك الابتسامة كانت ظاهرية فحسب ..

ففى أعماقه ، كان السؤال يواصل ترديد نفسه ...

هل ستصل الطائرة بالفعل ؟!...

هل ؟!...

* * *

« هنا .. »

قالها (سيرجى كوربوف) ، بلهجته التى تجمع بين الصرامة والبرود ، فمال أحد الضخمين المصاحبين له ، يلقى نظـرة على صـور الأقمار الصناعية الروسية ، والتى تم إرسالها من (موسكو) ، عبر قناة إنترنت مؤمّنة ، و(سيرجى) يتابع فى اهتمام :

ــ تلك النقاط المضيئة الصغيرة ، هى طلقات نارية ، من أكثر من ثلاثين مصدرًا ... هذا يعنى أن هناك إطلاق نار كثيف ، وسط جليد (تيتليس) .

غمغم الضخم ، فى اهتمام مماثل :

ــ قتال ؟!

هزّ (سيرجى) رأسه نفيًا فى بطء ، وهو يجيب :

ــ كلا ... إطلاق النار تم من اتجاه واحد ... وعبر تشكيل قوسى ، دون أى رد من جانب آخر .

عاد الضخم يغمغم :

ــ ربما باغتوا الهدف ، و ...

قاطعه (سيرجى) فى صرامة :

ــ كلا .

تراجع الضخم معتدلاً ، فتابع (سيرجى) ، فى تفكير عميق :

ــ لا يمكنك أن تباغت هدفًا ، دون أن يحاول المقاومة ، ولو برصاصة واحدة ...

والصور التالية تظهر حركة غير عادية ، من أفراد يرتدون زى جيوشنا البيضاء .

حاول الضخم أن يلجم لسانه ، إلا أن فضوله الشديد جعله يغمغم :

ــ ماذا يعنيه هذا يا جنرال ؟!

لم يجبه (سيرجى) مباشرة ، وإنما لاذ بصمت طويل ، غرق معه تفكير عميق ...

عميق للغاية ...

تفكير استنفر فيه كل خبراته السابقة ...



وتجاربه ...

ودراساته ...

وتدريباته ...

تفكير استرجع خلاله أهم النقاط ، فى ملف (أدهم صبرى) ، الذى جمعته المخابرات السوفيتية ، وآل بعدها إلى المخابرات الروسية ، عقب سقوط الاتحاد السوفيتى ...

ذلك الملف ، الذى يحمل رقم واحد ، بين ملفات أخطر خصوم المخابرات الروسية ...

وكل هذا لم يستغرق منه سوى دقائق خمس ...

أو أقل قليلاً ..

ثم ، وبلا مقدمات ، استدار إلى الضخم ، قائلاً :

ــ أريد استئجار طائرة هليوكوبتر على الفور ،

أجابه الضخم ، وهو يهرع بالفعل لتنفيذ الأمر :

ــ فورًا يا جنرال .

وقبل حتى أن يتوارى الرجل عن ناظره ، كان (سيرجى) يغمغم لنفسه :

ــ إنه كمين ... وذلك الجيش الأبيض يقاتل ، لمنع شخص ما من بلوغ مقر ، لا ينبغى أن يصل إليه أحد .

وبسبّابته ، رسم دائرة وهمية فى الهواء ، متابعًا :

ــ ونقطة الأهمية ، تكون دومًا فى مركز دائرة الحماية ، التى يتراوح نصــف قطرها بين نصــف الكيلو متر إلى الكيلو مترين ، وفقًا للخطة الدفاعية ..

بلغ هذه النقطة ، فانتفخت أوداجه زهوًا بنفسه ، وهو يتطلع مرة أخرى إلى صور الأقمار الصناعية ...

فالآن فقط ، صار واثقًا من أن المواجهة الحاسمة صارت قاب قوسين أو أدنى ...

المواجهة مع (سونيا جراهام) ...

و(أدهم صبرى) ...

معًا ...

وستكون مواجهة قاتلة ...

وبلا رحمة ...

تمامًا .

* * *

الفصل الثانى والعشرون

لوّح نائب مدير المخابرات المصرية بورقة فى يده ، وهو يدخل مكتب المدير ، الذى خيل إليه أن نائبه يعجز عن الكلام لسبب ما ، فسأله :

ــ ماذا لديك بالضبط ؟!..

لوّح النائب بالورقة مرة أخرى ، مجيبًا :

ــ التقرير الأخير ، الذى أرسله سيادة العميد (أدهم) ، يتجاوز فى الواقع كل قواعد العقل والمنطق يا سيادة الوزير .

مدّ مدير المخابرات يده إليه ، قائلاً :

ــ دعنى أحكم على هذا بنفسى .

ناوله النائب تلك الورقة ، فقرأها المدير فى إمعان ، وبدت على ملامحه دهشة حقيقية ، مع الفقرة الأخيرة ، فوضع الورقة على سطح مكتبه ، وهو يغمغم :

ــ غير معقول !!..

هتف النائب :

ــ ألم أخبرك يا سيادة الوزير .

استغرق مدير المخابرات فى تفكير عميق ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، قائلاً فى قلق :

ــ المشكلة أن الأمر مبنى على افتراض محض .

قال نائب المدير فى اهتمام :

ــ افتراض شديد الخطورة يا سيادة الوزير ، وطبيعة عملنا تتعارض تمامًا مع عالم الافتراضات .

أشار المدير بيده ، قائلاً :

ــ ولكنه افتراض لا يمكن إغفاله ، أو غض البصر عنه .

انعقد حاجبا النائب ، وهو يقول :

ــ سيادة الوزير .. هل ...

قاطعه المدير بإشارة من يده ، قائلاً فى حزم :

ــ المشكلة أن هذا الافتراض يحتاج إلى قرار .

فرد النائب قلبه ، وهو يتطلع إليه فى تساؤل قلق ، فأضاف المدير ، فى حزم أكبر :

ــ قرار سيادى .

ولم يعلّق نائبه بحرف واحد ..

ففى هذا الأمر ، كان يتفق مع مدير المخابرات ...

وبنسبة مائة فى المائة ...

تحديدًا ...

* * *

فجأة ، ظهرت تلك الطائرة فى السماء ...

طائرة حربية كبيرة ، من الطائرات قاذفة القنابل ...

وفور ظهورها ، هتف مدير إنتاج ذلك الفيلم فى حماس :

ــ ها هى ذى .

تطلّع المخرج إلى السماء فى دهشة ، انتزع نفسه منها فى انتفاضة قوية ، وهو يهتف :

ــ كيف أتيتم بطائرة كهذه ؟!

ابتسم مدير الإنتاج فى زهو ، وهو يقول :

ــ لا تنس أننا شركة كبرى .

ثم تبدلت لهجته فجأة ، وهو يضيف فى صرامة :

ــ لماذا لا تمارس عملك ؟!

انتفض المخرج مرة أخرى ، وهتف بطاقمه :

ــ أكشن .

بدأ كل الأطقم عملها على الفور ، والكل يتابع تلك الطائرة فى دهشة ، وهى تدور حول الجزيرة دورتين ، ثم تلقى حمولة ضخمة ، على بعد ميل بحرى واحد منها ...

وعلى الفور ، هتف المخرج :

ــ الزورق ... هيا .

أسرع طاقم من الممثلين الثانويين نحو زورق كبير ، انطلقوا به على الفور ، إلى حيث سقطت تلك الحمولة الضخمة ، المحاطة بغلاف مطاطى ، غير قابل للغرق ...

وفى اللحظة نفسها ، تحرك طاقم آخر ...

ولكن تحت سطح الماء ...

طاقم من الضفادع البشرية ، يمتطى ما يشبه الطوربيدات ، المزوّدة بأجهزة قيادة خاصة ، انطلق من غوّاصة ترقد على القاع ، على مسافة قريبة من الجزيرة الأندونيسية الصغيرة ، وهم يجرّون خلفهم كتلة معدنية كبيرة ...

كان من الواضح أنهم مدربون على هذا العمل طويلاً ، فقد ثبتوا تلك الكتلة المعدنية أسفل الغلاف المطاطى للحمولة ، ثم انطلقوا عائدين إلى الغوّاصة ، وربطوا الطرف الآخر لتلك الكتلة الثقيلة فيها ، بسلاسل فولاذية قوية ...

وانطلقت الغوّاصة ...

انطلقت محافظة على المسافة بينها وبين القاع ، الذى يزداد انخفاضًا ، على نحو تدريجى ...

ومع الوقت ، وزيادة العمق ، والثقل الهائل ، وقوة محركات الغوّاصة ، راحت تلك الحمولة الضخمة ، وعلى الرغم من غلافها المطاطى ، غير القابل للغرق ، تغوص فى مياه المحيط ...

وتغوص ...

وتغوص ...

وكما ورد فى سيناريو الفيلم بالضبط ، وصل الزورق بركابه ، إلى منطقة سقوط تلك الحمولة الضخمة ، فلم يجد لها أثر ...

أى أثر ..

على الإطلاق ...

* * *

« عظيم .. »

على عكس المفتـرض ، غمغمت (سـونيا) بالكلمة فى لهجة عادية ، لا تحوى لمحة من السعادة أو الظفر ، وهى تتلقى من قائد الغوّاصة ، تأكيدًا بأن الحمولة قد صارت فى حوزته ...

ليس هذا فحسب ...

ولكن تلك الثقل المعدنى ، بما يحويه من أجهزة تشويش قوية ، منع حتى أقوى الأقمار الصناعية ، من تعقّب وتتبّع مسار الغوّاصة ، أو الحمولة الثمينة ...

مائتا مليار دولار ، لم تنجح فى دفع الحماس أو الظفر ، إلى صوت زعيمة منظمات العصر (سونيا جراهام) ...

ليس لأنها قد اعتادت تلقى مثل هذه المبالغ ، التى تفوق ميزانيات دول كبرى ...

ولكن لأنه كان هناك ما يقلقها أكثر ...

وربما أكثر بكثير ...

جـدًا ...

فكل عقلها ــ تقريبًا كان يفكّر فى رجل واحد ...

(أدهم) ...

فطوال سنوات صراعها معه ، وحتى زواجها منه ، عرفت حقيقة واحدة عنه ..

إنه لا يسير دومًا على الدرب ، الذى تتوقعه منه ..

وتلك الخدعة ، التى نفذها على جزء من جيش (أبجور) الأبيض ، لها عدد كبير من الدلالات ...

أولها أنه يعلم علم اليقين أنها هنا ...

ربما لا يعرف موقعها بالتحديد ...

ولكنه قريب ...

وإنه قد كشف خطة جيشها الأبيض ...

والأهم ... أن هذه الجهة ، التى دفع إليها الزلاجات الآلية ، ليست حتمًا الجهة التى ينوى هو القدوم منها ...

توقفت لحظات عند هذه النقطة ، وهى تعيد إدارة الأمور فى رأسها ...

إنه يقوم دومًا بما لا تتوقعه منه ...

وهذا يعنى أنه لا قواعد ...

ولا حتى منطق ...

فلقد اعتاد هو كل قاعدة ...

وكل منطق ...

وتصوّر أن دفع الزلاجتين الأتيتين ، إلى اتجاه ما ، يعنى أنه لن يأتى منه ، تصوّر مريك ...

فقد يكون هذا بالتحديد ما يريد لخصمه أن يفكّر فيه ...

لا يمكنها الجزم ...

مع رجل مثله ، يستحيل أن تتوقع أى شىء ...

على الإطلاق ...

كاد عقلها ينفجر ، من التفكير فى كل الاحتمالات ...

وربما ولأول مرة فى حياتها ، تصبح عاجزة عن اتخاذ قرار حاسم ...

أى قرار ...

« فى انتظار أوامرك أيتها الزعيمة .. »

قاطعها فجـأة صوت (أيجور) ، الذى انبعث من جهاز الاتصال المحدود ، فانتزعها من تفكيرها العميق ، على نحو جعلها تهتف فى حدة :

ــ أية أوامر ؟!...

حمل صوته كل دهشته ، وهو يقول فى ارتباك :

ــ لا يمكننا أن نفعل شيئاً دون أوامرك أيتها الزعيمة ... هل نبقى فى مواقعنا ، أم أن هناك أوامر أخرى ؟!

انعقد حاجباها فى غضب ، لم تدر أبسبب مقاطعة (أيجور) لأفكارها ، أم بسبب خوفها من (أدهم) ...

وبكل العصبية ، أشعلت واحدة من سجائرها الرفيعة ، وهى تقول :

ــ كم من رجالك يجيد التزلج بمهارة عالية ؟!

أدهشه السؤال ، ولكنه أجاب ، عبر جهاز الاتصال :

ــ لدينا سبعة ، من أمهر المتزلجين فى (سويسرا) كلها .

سألته فى صرامة ، امتزجت بغضبها :

ــ وهل يجيدون إطلاق النار ، وهم يتزلجون ؟!

أجاب فى سرعة :

ــ بالتأكيد أيتها الزعيمة .

قالت بنفس الصرامة الغاضبة :

ــ زوّدهم بمناظير الرؤية الليلية ، واطلب أن يستعدوا ، فسأرسلهم فى مهمة خاصة .. وقاتلة .

أجاب فى حزم :

ــ لن يتردد أحدهم أيتها الزعيمة .

غمغمت :

ــ عظيم ... أريد منك أن تعود إلى المركز فوراً ، واحمل أفضل وأقوى ما لدينا من أسلحة ، واختر حارسين قويين ، مدججين بكل أنواع الأسلحة ، ليحرسا الممر المؤدى إلى حجرتى الخاصة .

هتف ، محاولاً دفعها إلى استعادة هدوئها :

ــ فوراً أيتها الزعيمة ...

بدت أكثر صرامة ، وهى تقول :

ـ وأحضر معك أحد مفاوضينا ... أريد أن أرسله إلى (برن) ، لإحضار شخص هام ... هام جدًا .

أنهت الاتصال ، قبل حتى أن تسمع جوابه ، ثم نفثت دخان سيجارتها فى عصبية ، وهى تعـود إلى شاشتها الكبيرة ، تتابع صور الأقمار الصناعية ، وهى تقضم بكل عصبية وانفعال الدنيا :

ـ ترى من أية جهة ، تنوى شن هجومك يا (أدهم) ؟!...

قالتها وانفعالها يتصاعد ...

ويتصاعد ...

ويتصاعد ...

بلا نهاية ...

* * *

انعقد حاجبا رئيس الجمهورية المصرى فى شدة ، وهو يستمع إلى مدير مخابراته ، الذى أنهى حديثه ، وهو يقول :

ـ أعلم أنه قرار بالغ الصعوبة يا سيادة الرئيس ، ولكن لو صح توقع (ن-1) ... أعنى العميد (أدهم صبرى) ، فنتائج عدم اتخاذ مثل هذا القرار ستكون كارثية .

تطلع إليه رئيس الجمهورية فى صمت وتفكير قلق ، قبل أن يشير بيده ، قائلاً فى توتر ملحوظ :

ـ هل تعلم مدى ما سنتعرض له من انتقادات ، من جمعيات الحقوق المدنية ، ومؤسسات المجتمع المدنى ، وحتى جمعيات حقوق الإنسان العالمية ، لو اتخذنا مثل هذا القرار ؟!

أجابه مدير المخابرات على الفور :

ـ ما أعلمه يا سيادة الرئيس ، هو مدى الكارثة ، التى سيتحدث عنها العالم لسنوات وسنوات ، لو لم نتخذ القرار .

عاد رئيس الجمهورية يدرس الأمر فى رأسه بضع دقائق ، قبل أن يقول فى قلق أكبر :

ـ الأمر مجرد افتراض .

شدّ مدير المخابرات قامته ، مجيبًا :

ـ افتراض من رجل مخابرات لا يشق له غبار ، ولم يخسر عملية واحدة فى حياته ، على الرغم من ملفه الحافل بالعمليات شديدة الصعوبة والخطورة ، ومواجهات دموية عنيفة ، مع أكبر أجهزة المخابرات العالمية ، وأقوى المنظمات الإجرامية بالغة الخطورة .

ثم مال نحو الرئيس ، مضيفًا بلهجة خاصة :

ـ رجل نتفق معًا ، منذ زمن طويل يا سيادة الرئيس ، على أنه يستحق لقبا خاصًا جدًا .

غمغم الرئيس :

ـ رجل المستحيل .

أشار مدير المخابرات بسبابته ، قائلاً :

ـ بالضبط ... وعندما يأتى الافتراض من رجـل المستحيل ، فهـو لا يساوى خمسين فى المائة فحسب ، بل تعلو نسبته عن هذا ، استنادًا إلى خبرة وحنكة وبراعة صاحب الافتراض .

التقط الرئيس نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول :

ـ جدوا إذن تبريرًا مناسبًا ، يتم توضيح الأمر به للشعب .

ارتسمت ابتسامة ارتياح ، على شفتى مدير المخابرات ، وهو يغمغم :

ـ اطمئن يا سيادة الرئيس ... سنفعل .

وتم اتخاذ القرار .

وفى حسم ...

* * *

« فقدنا الأثر للأسف ... »

قالها مدير المخابرات الأمريكى فى عصبية ، وهو يقف أمام الرئيس الأمريكى ، فى مكتبه البيضاوى ، فحدق فيه الرئيس بنظرة مستنكرة ، فى حين هتف وزير الدفاع فى حنق :

ـ ولكنك قلت : إن أقمارنا الصناعية ...

قاطعه مدير المخابرات فى حدة :

ـ التنظيم الذى يختفى خلف كل هذا ، أقوى مما كنا نتصور بكثير ... لقد استخدموا غوّاصة وغوّاصين ، و ...

جاء دور مستشار الأمن القومى ؛ ليصرخ فيه :

ـ غوّاصة وغوّاصين ؟! ... أهذا كل ما لديك ؟!

تجاهل مدير المخابرات مقاطعته تمامًا ، وهو يكمل فى صرامة :

ـ وكانت لديهم أجهزة تكنولوجية شديدة التطوّر ، قامت بالشوشرة على صور الأقمار الصناعية ، فلم نستطع أن نتتبع غوّاصتهم .

وهنا تكلم الرئيس الأمريكى ، قائلاً فى صرامة غاضبة :

ـ إذن فقد حصلوا على مائتى مليار دولار ، دون أن نعلم حتى من هم ، وأين سيذهبون ، وكيف سيسلموننا ذلك السائل الجبار !!.. هل يشاركنى أحدكم الشعور ، بأننا قد وقعنا ضحية أضخم عملية نصب فى التاريخ أيها السادة ؟!

مطّ وزير الدفاع شفتيه دون أن يجيب ، وانعقد حاجبا مدير المخابرات فى شدة عصبية ، فى حين قال مستشار الأمن القومى فى حدة :

ـ أنا أشاركك هذا الشعور يا سيادة الرئيس ... واغفر لى أن أقول : إننى سبقتك إليه .

رفع مدير المخابرات رأسه ، قائلاً فى غضب :

ـ ولماذا النصب ؟!... إننا نتعامل مع تاجر سلاح جديد ، وتجار السلاح ، على الرغم مما يمتلكونه ، ليسوا يستهدفون سوى بيع أسلحتهم ، ومضاعفة أرصدتهم فى البنوك .

قال وزير الدفاع فى توتر :

ـ ولكننا نعرفهم جميعًا ، ولدينا معلومات وملفات كاملة عنهم .

قال مدير المخابرات :

ـ وهذا التاجر الجديد سنعرف عنه كل شىء أيضًا ... إنها مسألة وقت فحسب .

لوّح مستشار الأمن القومى بيده فى حدة ، قائلاً :

ــ ولو أن هذا التاجر ، كما تسميه ، يمتلك سلاحًا جبارًا كهذا ، فلماذا يبيع سره للآخرين ؟!... لماذا لا يحتفظ به لنفسه ، فيصير قوة لا قبل لأحد بها ؟!

اعتدل الرئيس الأمريكي ، وهو يقول في اهتمام متوتر :

ــ إنني أضم صوتي لسؤال المستشار .

تنحنح مدير المخابرات في قوة ، قبل أن يجيب :

ــ لأنه ليس دولة ... إنه تنظيم فحسب .

قال مستشار الأمن القومي في صرامة :

ــ ذلك التنظيم جعلنا نجلس هنا مرتجفين ، وأجبرنا على قبول كل شروطه ، وتنفيذ كل تعليماته ، لمجرد أنه هددنا بنسف اثنتين من مدننا الكبرى ، بوساطة ذلك السائل الجبار .

انعقد حاجبا مدير المخابرات دون أن يجيب ، فأضاف وزير الدفاع :

ــ ما الذي يضمن ألا يفعل الأمر نفسه مع دول أخرى ، ويحصل من كل منها على المليارات والمليارات .

مرة أخرى ، لم يجب مدير المخابرات ، في حين أشار الرئيس الأمريكي بسبّابته ، قائلاً :

ــ لاحظ أنه هو من سعى لتعريفنا بطبيعة سلاحه الجبار ، بعد أن قام بتجربته المدمرة ، في تلك الواحة المصرية .

طال صمت مدير المخابرات لحظات ، قبل أن يزفر في قوة ، مغمغمًا :

ــ المشكلة أنني أتفق معكم تمامًا ، في مخاوفكم وتساؤلاتكم هذه .

ثم أدار عينيه في وجوههم جميعًا ، قبل أن يضيف في صرامة :

ــ ولكن هل يمكن لأحدكم حتى أنت يا سيادة الرئيس أن يقول : إنه كان لدينا شيء آخر ، يمكن أن نفعله ؟!

وفي هذه المرة ، لم يحر أحدهم جوابًا ...

أي جواب ...

* * *

ما أن لامست زلاجات (أدهم) و(منى) جليد جبال (تيتليس) ، بعد قفزهما من الهليوكوبتر ، حتى انطلقا ينزلجان في سرعة ومهارة ...

من يراهما في تلك الحالة ، كان سيتصور أنه يشاهد فيلمًا من أفلام الخيال العلمي ، أو أنه يواجه مخلوقين من الفضاء الخارجي ، هبطا لغزو جبال (سويسرا) كلها ...

فلقد سبق (أدهم) تفكير (سونيا) ، فارتدى و(منى) معطفين من فراء أبيض طبيعي ، وعلى رأسيهما ، ارتدى كل منهما ما يشبه الخوذة ، من فراء أبيض خاص ، يتصل به جهاز اتصال دقيق ، محدود بموجة خاصة ، تربطهما وحدهما على نحو متواصل ...

وعلى عيني كل منهما ، جهاز خاص للرؤية الليلية ، يكاد يخفي ملامحهما تقريبًا ...

وكل منهما يحمل سلاحًا واحدًا ...

(منى) كانت تحمل مسدسًا ألماني الصنع ، تحوي خزانته دستة من الرصاصات ، وتحمل في جيوب معطف الفراء الأبيض الذي ترتديه ، ثلاث خزانات إضافية محشوة بالكامل ...

أما (أدهم) ، فكان يحمل مسدسًا واحدًا ...

وفى المسدس طلقة واحدة ...

مسدس من طراز خاص ...

وطلقة من نوع خاص ...

جدًا ...

أما جهاز الرؤية الليلية لكل منهما ، فكان جهازًا من طراز شديد التطور ، يحوى فى إطاره جهاز تحديد موقع عالمى (GPS) ، يرسم لهما المسار الواجب اتخاذه ، لبلوغ مقر (سونيا) السرى ، كما حدداه على خرائط (جوجل) ...

وطوال تزلجهما ، لم يتبادلا حرفًا واحدًا ..

فعلى الرغم من ثقة (أدهم) ، فى أن موجة الاتصال بينهما خاصة ومحدودة للغاية ، إلا أنه ، ومن باب الحيطة والحذر ، افترض أن (سونيا) يمكن أن تمتلك قسم اعتراض ، كالذى تمتلكه المخابرات المصرية ، يعمل طـوال الوقـت على اعتراض كل الاتصالات اللاسلكية ، على كل موجة ممكنة ..

« لا توجد خطة بلا ثغرات يا (أدهم) ... »

غمغمت (سونيا) بالعبارة ، وهى تتابع صورة (أدهم) و(منى) ، على شاشة الأقمار الصناعية الكبيرة أمامها ...

وفى ظفر متوتر ، نفثت دخان سيجارتها ، مكملة :

ـ لم يخطر ببالك بالتأكيد أننى قد أستخدم الأقمار الصناعية الأمريكية ، فى كشف خطتك .

نفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، ثم ألقتها فى ركن حجرتها ، والتقطت جهاز اتصالها المحدود ، لتحدد لفريق المتزلجين السبعة موقع (أدهم) و(منى) ...

وبالفعل ، انطلق متزلجوها السبعة ، المدججون بأحدث الأسلحة ، نحو موقع (أدهم) و(منى) ...

الموقع الفعلى هذه المرة ...

وكان هذا ، يعلن مواجهة قريبة عنيفة ...

قوية ...

وقاتلة ...

على أقل تقدير .

* * *

الفصل الثالث والعشرون

تعلقت عيــون كل الموجودين ، فى المكتب البيضـــاوى ، للرئيس الأمريكى ، بوجه مدير المخابرات ، وأطلت من العيون والوجوه نظرة قلق وتوتر ، مع انعقاد حاجبى هذا الأخير ، والانفعـــال المرتسم على وجهه ، وهو يتلقى محادثة هاتفية هامة ...

كان من الواضح أن ما يتلقاه لم يرق له ...

على الإطلاق ...

وبعد استماع لمدة دقيقة ونصف تقريبًا ، بدت للآخرين أشبه بدهر كامل ، غمغم مدير المخابرات فى صرامة ، امتزجت بالكثير من التوتر :

ــ فليكن ... سأتخذ ما يلزم .

لم يكد ينهى المحادثة ، حتى سأله الرئيس الأمريكى ، فى لهفة شاركه فيها وزير دفاعه ، ومستشاره للأمن القومى :

ــ ماذا هناك ؟!

مضت لحظة ، بدا خلالها مدير المخابرات وكأنه خارج الحياة ، قبل أن يلتفت إليهم ، مجيبًا :

ــ الكولونيل (بورتر) ... (ريتشارد بورتر) .

أسرع وزير الدفاع يسأله :

ــ أهو من كان يتحدث إليك ؟!

هزّ مدير المخابرات رأسه نفيًا فى بطء ، ثم قال فى شرود ، وكأنه لم يستوعب الأمر بعد :

ــ تم العثور عليه قتيلاً .

انتقعت وجوه الجميع ، واتسعت عيونهم ، فأضاف هو فى عصبية ، تشف عن استكمال استيعابه للأمر :

ــ هو وفريقه كله .

تحوّل امتقاع وجه مستشار الأمن القومى إلى شهقة عالية ، وشحب وجه وزير الدفاع ، وهو يلقى جسده على المقعد الوثير خلفه ، فى حين غمغم الرئيس مصدومًا :

ــ هو وفريقه كله ؟!... هل ... هل قتلهم ذلك المصرى ؟!

هزّ مدير المخابرات رأسه ، مجيبًا فى غضب :

ــ ليس هذا أسلوبه ... بل إننا نعتبر أن أكبر نقاط ضعفه ، هى أنه لا يميل إلى القتل أو إزهاق الأرواح ، إلا عندما لا تكون لديه وسيلة أخرى .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حنق :

ــ وهو لا يعدم الوسائل الأخرى أبدًا .

مرت لحظة من صمت ثقيل ، قبل أن يتساءل وزير الدفاع ، فى صوت مختنق مبحوح :

ــ من قتلها إذن ؟!

أشار مدير المخابرات بيده ، وهو يجيب ، وعيناه تحدقان فى الفراغ ، على نحو يوحى بأن كلماته تمتزج بحالة من التفكير العميق :

ــ عندما تحدى (صبرى) هذا[*] (جون لو) ، بطــل العالم فى لعبــة (الجيت كون دو) ، جلب إلى ساحة القتال رجال مخابرات محترفين ، من كل الأجهزة العالمية تقريبًا ... (روسيا) ، و(إنجلترا) ، و(فرنسا) ، و(إسرائيل) ، و ...

قاطعه مستشار الأمن القومى بنفاد صبر :

ــ من فعلها ؟!

التفت إليه مدير المخابرات ، وتطلع إليه لحظة ، قبل أن يجيب فى حزم :

ــ هذا الأسلوب الدموى ، لا يتفق إلا مع جهة واحدة ، وشخص واحــد ، لقد سلمونا أنه تحدث إلى (بورتر) قبل مصرع هذا الأخير .

هتف به الرئيس الأمريكى هذه المرة ، فى حدة صارمة :

ــ من فعلها يا رجل ؟!

شدّ مدير المخابرات قامته ، وأجاب فى حزم صارم واثق :

ــ (كوريوف) ... الجنرال (سيرجى كوريوف) .

اتسعت عيونهم كلها فى دهشة مذعورة ، قبل أن يهتف الرئيس الأمريكى ، بكل عصبية الدنيا :

[*] معظم الدول الأوروبية والغربية والأمريكية الجنوبية ، تستخدم اللقب لتعريف الشخص ، وليس اسمه الأول فى المعتاد .

ــ الروس دخلوا اللعبة أيضًا ؟!.. هذا أمر بالغ الخطورة ، إلى أقصى حد .

ثم نهض ، وهو يضرب سطح مكتبه براحته ، مكملاً :

ــ لقد أسقطنا الاتحاد السوفيتى ، الذى جثم على أنفاسنا أكثر من نصف قرن ، وبذلنا فى سبيل هــذا الكثير ، حتى ننفــرد بزعامة العالم الجديد ، فهل تدركون ما يمكن أن يحــدث ، لو فــاز الروس بتلك السلاح الجبار الجديد ؟!... إنهم سيكسرون أنوفنا ، وسيعلون فــوق هاماتنا ، ويصيرون هم ، على الرغم منا ، زعماء العالم الجدد ... ولو أننا أبدينا أدنى اعتراض على أى شأن من الشئون ، فلن يتورعوا عن تدمير نصف قارتنا ، دون أن يطرف لهم جفن ، حتى يضمنوا خضوع النصف الآخر ...

عادت وجوههم تمتقع ، مع إدراكهم لهول الموقف ، فى حين عاد مدير المخابرات يشد قامته ، قائلاً فى حزم :

ــ أوامرك يا سيادة الرئيس .

انتفض وزير الدفاع ، وهو يقول :

ــ لو أننا سنشن الحرب على الروس ، فهذا ...

قاطعه الرئيس ، وهو يوجه حديثه إلى مدير المخابرات ، متجاهلاً تعليق وزير الدفاع تمامًا :

ــ سامنحك كل الصلاحيات ؛ للتعامل مع كل رجل لدينا فى (أوروبا) ؛ لتنطلقوا فورًا ، خلف (كوريوف) و(صبرى) معًا ، والعمل على منع حصول أحدهما على تلك السلاح السائل الجبار ، حتى ولو اضطررنا لتدمير (سويسرا) كلها .

غمغم مستشار الأمن القومي :

ــ في هذا الحالة ، قد لا نحصل عليه نحن أيضًا .

التفت إليه الرئيس بحركة حادة ، قائلاً بكل صرامة :

ــ لو حدث هذا ، سنكون نحن أيضًا الرابحين .

تراجع الكل فيما عدا مدير المخابرات ، الذي تألقت عيناه في ظفر ، سرعان ما خبا ، عندما هتف به الرئيس في غضب :

ــ ماذا تنتظر ؟!

وكان هذا الهتاف بمثابة شرارة الانطلاق ، لارتفاع نسبة الخطر ...

إلى أقصى حد ...

* * *

بمنتهى الاهتمام والانتباه ، تابعت (سونيا) ، على شاشتها الكبيرة ، ما تبثه الأقمار الصناعية الأمريكية ، لمشهد اقتراب زلاجيها السبعة المحترفين ، من موقع (أدهم) و(منى) ...

وفي سرعة وعصبية ، راحت تنفث دخان سجائرها ، الواحدة تلو الأخرى ، وهي تقاوم ذلك الشعور العليف بالتوتر في أعماقها ، بسبب معرفتها بأن الأقمار الأمريكية ، التي تملك وسيلة الاستيلاء على صورها ، سرعان ما تبتعـد عن المنطقة كلهـا ، مع دورتها المستمرة حول الكرة الأرضية ، فتفقد هي وسيلة الاطلاع على ما يحدث ، ومتابعة الموقف عبر عين السماء ...

وبالفعل ، كانت الصور المتتابعة أمامها على شاشتها الكبيرة تفقد الكثير من وضوحها ، وبخاصة من قدرتها على الرؤية الليلية ، فبدت صـــور الأفراد تبدو أشبه بأشباح باهتة ، وخاصة مع الزي الأبيض ، الذي يرتديه الجميع ، والذي يجعل تمييزهم من وسط الجليد المحيط بهم ، يزداد صعوبة في كل لحظة ...

وبكثير من التدقيق ، أمكنها ملاحظة أن متزلجيها السبعة ، يقتربون في سرعة ، من حيث يتزلج (أدهم) و(منى) ...

ويقتربون ...

ويقتربون ...

وخفق قلبها في سرعة ، وهي تلقي سيجارتها نصف المنتهية إلى ركن الحجرة ، وتشعل أخرى في عصبية ، عندما بدت المواجهة وشيكة وحتمية ، و ...

وفجأة ، سطعت الشاشة كلها بضوء قوي ، على نحو جعلها تتراجع في حركة حادة ، وتطلق شهقة عالية ، نادرًا ما تطلق مثلها ...

ثم راح ذلك السطوع يتلاشى في بطء ، على عكس قلبها ، الذي راح يخفق في سرعة عالية ، حتى اختفى ذلك السطوع تمامًا ...

واختفت معه صورة منطقة الصراع ...

لقد تجاوز القمر الأمريكي في مساره تلك البقعة ، فلم يعد أمامها ســوى أن تنفث دخان سيجارتها بكل عصبية والقلق يلتهمها ، وهي تطرح الأسئلة على نفسها ...

ما سر ذلك السطوع المفاجئ ؟! ...

وما الذى حدث هناك ، فى منطقة المواجهة ؟! ...

ومن فاز على من ؟!...

من ؟!...

من ؟!...

* * *

« ما الذى يعنيه هذا ؟!... »

هتف مخرج الفيلم بالسؤال فى غضب ، وهو يواجه مدير الإنتاج ، الذى بدا لا مباليًا ، وهو يقول :

ـــ يعنى ما سمعته بكل بساطة ... هناك خلاف بين منتجى الفيلم ، أدى إلى وقف العمل فيه مؤقتًا ... وربما إلغاء فكرة إنتاجه أيضًا .

هتف المخرج فى حدة :

ـــ أى عبث هذا ؟!... إننى أعمل فى مجال السينما ، منذ أكثر من ربع القرن ، ولم أمر بمثل هذا العبث الإنتاجى من قبل .

أشار مدير الإنتاج بيده ، بنفس اللا مبالاة ، وهو يقول :

ـــ لكل شىء بداية .

هم المخرج بالهتاف بعبارة غاضبة أخرى ، ولكن مدير الإنتاج استدرك فى سرعة وصرامة :

ـــ ولكن كل العاملين فى الفيلم سيحصلون على أجورهم كاملة .. وربما مكافأة إضافية أيضًا ، تعويضًا عن عدم استكمال العمل .

احتقن وجه المخرج ، وهو يحدق فيه لحظات ، قبل أن يقول فى حدة ، لم يستطع السيطرة عليها :

ـــ لم يكن الأمر يتعلق بالفيلم منذ البداية .

لم يحاول مدير الإنتاج التعليق ، فتابع المخرج ، وقد تضاعفت حدته :

ـــ كل هذا كان من أجل تلك الطائرة ، والحمولة التى أسقطتها ... أليس كذلك ؟!

مرة أخرى ، تجاهل مدير الإنتاج التعليق تمامًا ، فتابع المخرج فى عصبية :

ـــ كلنا كنا أحجارًا على رقعة شطرنج كبيرة ، تقومون بتحريكها لبلوغ هدف أكبر .

رمقه مدير الإنتاج بنظرة صامتة ، قبل أن يسأله فجأة :

ـــ هل تحب الحياة يا رجل ؟!

تراجع المخرج فى دهشة للسؤال ، وحدق فى وجه مدير الإنتاج ، دون أن يجيب السؤال ، فتابع هذا الأخير فى صرامة :

ـــ بعد ساعة واحدة ، ستمسك بيدك شيكًا بنكيًا ، يحوى رقمًا زوجيًا ، من ستة أصفار ولو أنك ترغب فى التمتع بحياتك ، وبما جنيته فيها ، فالأفضل أن تطبق شفتيك على ما لا ينبغى أن تتفوه به ، حتى بينك وبين

نفسك ... أما لو فتحت شفتيك ، فعليك أن تستعد لمواجهة بعض الأمور ، بدءًا من فقـدان أسنانك ؛ لأنك لم تطبـق شفتيك عليها ، وانتهاء بأن أسنانك هذه لن تكون لها فائدة ، إلا للتعرف على جثتك ، التى ستتعرض لتشوه شديد ، من جراء ميتة تفـوق أبشع الميتات ، التى ظهرت فى أفلامك .

امتقع وجه المخرج فى شدة ، فمال مدير الإنتاج نحوه مضيقًا فى قسوة وصرامة :

ــ هل اتفقنا ؟!

مضت لحظات من الصمت ، قبل أن يجيب المخرج ، فى صوت مرتجف مبحوح :

ــ بالتأكيد .

وعندما نهض ليجمع رجاله ، كانت ركبتاه ترتجفان ...

بشدة ...

* * *

من ذلك الارتفاع ، الذى بلغته الهليوكوبتر شبه الحربية ، التى يستقلها (سيرجى كوربوف) ومساعداه الضخمان ، كان الشفق يبرز ألوان الشروق الأولى ، فى حين كانت صور الأقمار الصناعية ، التى تصله أولاً بأول من (موسكو) ، تشير إلى أن الظلام ما زال يسود جبال (تبتيس) ، على الرغم من ارتفاعها الشاهق ...

لم يكن (سيرجى) ينطق حرفًا واحدًا ، وهو يتابع صور الأقمار طوال الوقت ، حتى قطع أحد رجليه حالة الصمت ، وهو يقول :

ــ اقتربنا يا جنرال .

أشار إليه (سيرجى) بالصمت ، فتراجع الرجل ، ولاذ بالصمت بالفعل ، وشاركه زميله هذا ، حتى سألهما (سيرجى) بغتة ، وهو يشير إلى شاشة الجهاز اللوحى الصغير فى يده :

ــ كيف يبدو لكما هذا ؟!

مال الضخمان ، يتطلعان إلى الصورة ، قبل أن يغمغم أحدهما :

ــ خلل أصاب صورة القمر يا جنرال .

وأشار الثانى بيده ، متمتمًا :

ــ أو ربما صوّب أحدهم شعاعا من الليزر ، نحو الـ ...

قاطعه (سيرجى) فى صرامة :

ــ هراء .

تراجع الضخمان على الفور ، فى حين تابع هو :

ــ شيء ما سطع بقوة فى تلك البقعة .

سأله أحد الضخمين فى اهتمام :

ــ شيء مثل ماذا يا جنرال ؟!

مرّت لحظات من صمت ثقيل ، بدا خلالها وكأن (سيرجى) لم يسمع السؤال من الأساس ، ثم لم يلبث أن قال :

ــ كل ما وصلنا من صور ، يتم التقاطه عبر عدسات خاصة بالرؤية الليلية .

غمغم الرجلان فى آن واحد :

ــ هذا صحيح .

أشار مرة أخرى إلى شاشة الجهاز اللوحى ، قائلاً :

ــ ثم كان هذا السطوع .

تبادل الشخصان نظرة حائرة ، قبل أن يغمغم أحدهما فى حذر قلق :

ــ ولكننا لم نعرف بعد ما هذا السطوع يا جنرال .

اعتدل (سيرجى) ، والتمعت عيناه ، وهو يقول :

ــ أنا أعلم ...

وتضاعفت حيرتهما ، لأنه لم يحــاول حتى تفسير جـوابه هــذا ... على الإطلاق ...

* * *

فى نفس اللحظة ، التى رصد فيها متزلجو (سونيا) (أدهم) و(منى) ، رصدهم الاثنان أيضًا ...

كان السبعة يتزلجون فى براعة مدهشة ، متخذين مسارًا قوسيًا ، لمحاصرة (أدهم) و(منى) ، وهم يشهرون أسلحتهم ، ويصوبونها إليهما ، و ...

« أغلقى عينيك .. »

هتف (أدهم) بالعبــارة ، عبر جهــاز الاتصال المحدود ، بينه وبين (منى) ، وهو يستل مسدسه الخاص من غمده ...

وعندما استعد المتزلجون السبعة لإطلاق النار ، أطلق هو طلقته الوحيدة الفريدة ...

وعبر فوهة مسدسه الخاص ، انطلقت الطلقة عاليًا ...

وانفجرت ...

انفجرت ، مطلقة ضوءًا ساطعًا ، على ارتفاع عشرة أمتار ، مع فرقعة محدودة ...

ذلك الضوء الساطع ، الذى انطلق من طلقة (أدهم) الخاصة ، كان كفيلاً بإغشاء أعين المبصرين العاديين ...

أما بالنسبة للمتزلجين السبعة ، الذين يرتدون مناظير الرؤية الليلية ، فقد بدا لهم وكأن الشمس قد انفجرت فى عيونهم مباشرة ...

مع كل ما صحب هذا ...

ألم رهيب فى العين والرأس ...

دوار عنيف مباغت ...

وفقدان مفاجئ للتوازن ...

وعلى الرغم من أنهم أمهر متزلجي جيش (سونيا) الصغير ، فقد اختل توازنهم جميعًا ، في نفس الوقت الذي مال فيه (أدهم) بزلاجتيه نحوهم ...

ولم تحاول (منى) أن تنضم إليه ...

أو أنها لم تجد داعيًا للانضمام إليه ...

أو لو أردنا أن نكون أكثر دقة ، فهي لم تجد الوقت للانضمام إليه ...

فالواقع أن مواجهته لسبعة من المحترفين ، فقدوا توازنهم ، وغشيت أبصارهم ، لم تستغرق سوى ثوان معدودات ...

الشيء الوحيد ، الذي أدهش (منى) ، هو أنه قد انتزع مدفعين آليين من رجال (سونيا) ، وعاد يتزلج نحوها ، وهو يقول في صرامة :

ــ إنها ترانا .

لحقت به (منى) ، وهي تسأله في قلق :

ــ أهي قريبة إلى هذا الحد ؟!

رفع عينيه إلى السماء ، قبل أن يجيب في حزم :

ــ أظنها تستعين بصور الأقمار الصناعية الأمريكية .

هتفت ، وهي تزيد من سرعتها ؛ للحاق به :

ــ إلى هذا الحد ؟!

أجابها ، وهو يخفض عينيه :

ــ السماء خالية من الأقمار الصناعية الآن ، وأمامنا ثلاث دقائق ، قبل أن يصل قمر جديد إلى المنطقة .

حاولت أن تبصر شيئًا مميزًا في السماء ، قبل أن تسأله في حيرة :

ــ وكيف تعلم هذا ؟!

أجابها وهو ينحرف بزلاجته ، متتبعًا إشارات جهاز تحديد الموقع (GPS) المثبت في جهاز الرؤية الليلية الخاص به :

ــ الأقمار الصناعية تكون أكثر سطوعًا من النجوم العادية ؛ لأن أشعة الشمس تنعكس على جسمها المعدني(*) .

كانت إشارات الجهاز تشير إلى أنهما يقتربان من الموقع ، الذي حدده (أدهم) على خرائط (جوجل) ، عندما تساءلت (منى) :

ــ كيف لم يغش ذلك الضوء الساطع بصرك ، مثلما فعل بهم ؟!

أجابها في شيء من الشرود :

ــ فعلت نفس ما طلبته منك .. أغلقت عينيَّ .

قالها ، ثم رفع مدفعيه الآليين ، مضيفًا في حزم :

ــ استعدي .

والتقطت (منى) نفسًا عميقًا ، وسحبت مسدسها ...

فقد كانت كلمته تعني أن المواجهة قد صارت وشيكة ...

للغاية ...

* * *

(*) حقيقــة .



« كل شىء كما أمرت تمامًا أيتها الزعيمة ... »

قالها (أبجور) فى حزم وحماس ، محاولاً إثبات ولائه لزعيمته ، التى نفثت دخان سيجارتها ، وهى تتطلع عبر نافذتها الكبيرة إلى أضواء الفجر الأولى ، دون أن تمنحه رد فعل يرضيه ، فتابع فى حزم أكثر :

ـ تم تفعيل كل نظم الأمن ، ووضعت فى الممر أربعة حرّاس وليس اثنين فحسب ، ولكن ...

توقف عند كلمة (لكن) هذه ، فالتفتت إليه ، تقول فى حدة :

ـ ولكن ماذا ؟!

أشار إلى نافذتها الزجاجية ، وهو يقول فى حذر :

ـ هذه النافذة أيتها الزعيمة .

سألته فى حدة :

ـ ماذا بها ؟!

أجاب فى توتر :

ـ إنها نقطة ضعف كبيرة .

قالت فى صرامة :

ـ لا تقلق نفسك بشأنها ... زجاجها مضاد للرصاص والانفجارات .

تراجع مغمغمًا :

ـ هذا أفضل .

مع آخر كلماته ، طرق أحد رجاله الباب ، ودلف إلى حجرة (سونيا) ، قائلاً فى لهجة عسكرية :

ـ المنتظر وصل أيتها الزعيمة .

استرخت عضلات وجه (سونيا) ، وهى تقول :

ـ وماذا تنتظر ؟!

تراجع الرجل فى سرعة ، ثم عاد يفتح الباب فى احترام كبير ...

وهنا تنهّدت (سونيا) فى ارتياح ، وهى تقول :

ـ إذن فقد أتيت أخيرًا .

ولم يفهم (أبجور) سر اهتمام زعيمته ...

فالقادم كان آخر من يتوقعه ...

أو يمكن أن يتوقعه ...

على الإطلاق .

* * *

الفصل الرابع والعشرون

راجع مدير المخابرات الأمريكى كل خرائط الأقمار الصناعية ، التى وردت خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة ، وانعقد حاجباه فى تركيز عميق ، قبل أن يدير سبابته حول دائرة وهمية ، على إحدى الخرائط ، قائلاً فى حزم :

ـ هنا .

تطلع نوابه إلى حيث يشير ، وقال أحدهم فى اهتمام :

ـ جبال (تيتليس) السويسرية !!

أجابه مدير المخابرات فى حزم :

ـ هنا دار صراع عنيف ، حسبما أكد خبراء الأقمار الصناعية ... وما دمنا نعلم أن ذلك المصرى الفذ (أدهم صبرى) يسعى نحو نفس الهدف ، الذى نسعى إليه ، فالأرجح أنه هو من أشعل ذلك الصراع ، أو من واجهه على أقل تقدير .

قال رجل آخر فى اهتمام :

ـ هذا يعنى أن مركز ذلك التنظيم ، الذى نبحث عنه ، فى مكان ما ، حول هذه المنطقة .

اعتدل مدير المخابرات ، وهو يقول :

ـ سأعطى الأمر بالهجوم ، خلال ساعة واحدة ، لو لم نتسلَّم الجزء الخاص بنا فى الصفقة ...

شعر (إيان نورتون) ، رجل المخابرات الأمريكى الخائن ، بالقلق الشديد ، وهو يستمع إلى هذا الحديث ...

فلو حدث فى الأمور أمور ، فقد يعنى هذا سقوطه ...

وفى هاوية بلا قرار ...

وفى محاولة لإخفاء توتره ، تظاهر بالسعال مرتين ، ثم وضع يده على صدره ، وهو يقول ، متصنعاً الألم :

ـ معذرة يا سيادة المدير ... معذرة .

قالها ، وواصل تمثيل دور السعال ، وهو يفتح باب حجرة الاجتماعات ، ويغادرها ، ثم يندفع نحو دورة المياه ، ويغلق على نفسه إحدى كبائنها فى إحكام ، قبل أن يلتقط هاتفه ، ويطلب رقماً خاصاً ...

رقم الصيدلية الحسناء ...

(تيا) ...

وبكل التوتر ، راح يستمع إلى الرنين على الجانب الآخر ...

وتواصل الرنين ...

تواصل ...

وتواصل ...

وتواصل ...

بلا استجابة ...

وعندما شارف اليأس ، من أن تستجيب له (تيا) ، أتاه صوتها ، تقول فى صرامة :

ــ ماذا هناك يا (نورتون) ؟!

قبل أن تنفرج شفتاه لإجابتها ، اقتحم أحدهم كابينة دورة المياه فى عنف وقفزت قبضة قوية ، تقبض على معصمه الممسك بالهاتف ، فى نفس اللحظة التى قفزت فيها قبضة أخرى تنتزع الهاتف من يده ، وتنهى المحادثة بضغطة زر واحدة ، فصرخ (نورتون) ، وشهق وارتجف وارتعد ، وصاح فى ذعر ، أشبه باعتراف مباشر :

ــ أنا لم أفعل شيئاً .

انتزعته القبضات القوية من مكانه انتزاعاً ؛ ليجد نفســه أمام مدير المخابرات الأمريكى ، الذى رمقه بنظرة نارية ، وهو يقول فى صرامة قاسية :

ــ إذن فهو أنت يا (نورتون) .

صاح (نورتون) ، وكل ذرة فى جسده ترتجف :

ــ يمكننى أن أفسر كل هذا ... الواقع أن ...

قاطعه المدير بإشارة صارمة من يده ، وهو يقول :

ــ كنا نعلم أنه هناك خائن وعميل بين صفوفنا ، وذلك الاجتماع الأخير كان وسيلة لكشف العميل .

انهار (نورتون) ، بأسرع من المتوقع ، بالنسبة لرجل مخابرات ، وهو يقول ، فى لهجة أقرب إلى الضراعة :

ــ كنت مضطراً .

رمقه المدير بنظرة أكثر قسوة وصرامة ، قبل أن يقول :

ــ هاتفك معنا يا (نورتون) ، والقسم الفنى يقوم بتحديد الجهة ، التى اتصلت بها ، بعد أن تم اعتراض رسالتك ... ولكننى أريدك أن تقص علىّ الأمر كله ... لحساب من تعمل ؟! ... ومنذ متى؟! ... وأريد أدق التفاصيل ... هل تفهم ؟!

أومأ (نورتون) برأسه مستسلمًا ، وراح يلعن فى أعماقه من أوقعته فى كل هذا ...

(تيا) ...

الحسناء الجميلة الضئيلة ..

والقاتلة ...

« (تيا) ... »

هذه المرة ، نطقها بصوت مرتفع ، جعل مدير المخابرات الأمريكى يزيد من انعقاد حاجبيه ، وهو يتساءل :

ــ من ؟!

سعل (نورتون) بحق هذه المرة ، وأشــار بيــده ، قائلاً فى صوت مرتجف مبحوح :

ــ سأخبركم بكل شىء .

وبدأ يروى ...

وبكل التفاصيل ...

* * *

« ماذا سنفعل ؟!.. »

ألقت (منى) سؤالها ، وهى تندفع متزلجة ، إلى جوار (أدهم) ، على جليد جبال (تيتليس) ، فأجابها هو فى حزم :

ـ الأمريكيون سيصلون قريبًا .

لم تجد رابطًا واضحًا ، بين سؤالها وجوابه ، فانعقد حاجباها ، وهى تهم بإلقاء سؤال استفسارى ، عندما تابع (أدهم) بنفس الحزم :

ـ أقمارهم الصناعية رصدت الضوء الساطع حتمًا ، وبقليل من الجهد ، مع جيش التنين فى مخابراتهم ، سيدركون ما يعنيه هذا ، وما دام الصراع يدور حول سلاح جديد جبار ، يضمن لصاحبه زعامة العالم ، فسرعان ما سيرسلون من كل قواعدهم فى (أوروبا) ، جيشًا قويًا ، لمنع غيرهم من الظفر بذلك السلاح .

انعقد حاجباها أكثر ، وهى تغمغم :

ـ أمن المفترض أن يهدئنى هذا ؟!...

أجابها فى صرامة :

ـ ليس هذا ، ما يفترض حدوثه ، فى موقف كهذا ... لقد أخبرتك بما أتوقعه فعليًا .

صمتت لحظة ، تابعت فيها شاشة جهاز تحديد الموقع العالمى (GPS) ، والتى أشارت إلى اقترابهما من وكر (سونيا) ، قبل أن تغمغم :

ـ ليست لدى ذرة من الشك ، فى أن (سونيا) قد أحاطت وكرها بجيش أبيض آخر .

قال حازمًا :

ـ هذا أمر طبيعى .

ثم أضاف فى صرامة ، وهو يتابع شاشة الجهاز بدوره :

ـ ولكن أى نظام آمن ، يسعى دومًا لحماية المداخل ، من أى هجوم مفاجئ ، والوسيلة الوحيدة لتجاوزه ، هو أن نتفادى الانقضاض على المداخل ، أيًا كان موقعها .

غمغمت :

ـ ونحن لا نعرف موقعها بالفعل .

أجاب ، وهـو يدفع عصـا التزلج ؛ ليميل بجسده وزلاجتيه يسارًا ، وهو يقول :

ـ ولكننا نعرف موقع تلك النافذة .

بدأت تستوعب خطته ، وهى تقول فى حماس :

ـ التى تطل على سفح جبل الجليد مباشرة .

أجاب ، وهو يندفع فى سرعة نحو اليسار :

ـ والتى لا يوجد حولها ما يسمح بالاختباء والحماية



قالت ، وهي تتبعه بنفس السرعة :

ــ ستكون حتمًا مصنوعة من زجاج مضاد للرصاص .

حملت إليها لهجته ، وهي تستقبلها عبر جهاز الاتصال المحدود ، لمحة من السخرية ، وهو يقول :

ــ وسط جبال من الجليد .

همّت بنطق شيء ما ، ثم استوعبت الأمر بغتة ، فهتفت في حماس :

ــ أكبر خطأ ارتكبته (سونيا) .

اندفع بزلاجتيه نحو جرف رهيب ، وهو يقول :

ــ وآخر خطأ ...

مع قوله ، بلغ حافة الجرف ، ثم تجاوزها ، واندفع جسده خارجها ، على ارتفاع ثلاثين مترًا ، من أقرب أرض أسفله ...

وعلى الفور ، تبعته (منى) ...

دون ذرة واحدة من التردد ...

على الإطلاق ...

* * *

مع جسد (أيجور) العملاق ، بدا جسد الصينية الحسناء القاتلة (تيا) ، يبدو أكثر ضآلة ، وهي تدخل حجرة (سونيا) في هدوء ، قائلة :

ــ كل شيء تم ، كما خططت له تمامًا أيتها الزعيمة .

ابتسمت (سونيا) ابتسامة متوترة ، وهي تقول :

ــ كنت واثقة من أنك ستؤدين دورك على خير ما يرام يا (تيا) ... لقد راجعت تاريخك كله ، في المخابرات الصينية ، قبل أن أجري أول اتصال معك .

ألقت (تيا) نظرة لا مبالية ، على جسد (أيجور) العملاق ، ثم أشاحت بوجهها عنه ، على نحو أشعره بشيء من المهانة ، وهي تسترخي على مقعد وثير ، قائلة :

ــ معًا نستطيع أن نملك العالم يا (سونيا) ... أليست هذه كلماتك ، عندما التقينا لأول مرة ؟!

أومأت (سونيا) برأسها ، وأشعلت سيجارتها في توتر ملحوظ ، ونفثت دخانها في عصبية ، قبل أن تجيب :

ــ وما زلت أصر على هذا القول يا (تيا) .

مطّت (تيا) شفتيها ، وهي تقول :

ــ لماذا إذن لا أشعر بهذا ؟!

نفثت (سونيا) دخان سيجارتها مرة أخرى ، وهي تجيب ، في عصبية أكثر :

ــ أتساءل أنا .. لماذا يا (تيا) ؟!...

اعتدلت (تيا) ، قائلة فى صرامة أدهشت (أيجور) ، الذى اعتاد الخضوع لزعيمته :

ـ لقد نفذت كل ما طلبته ، وتخلّصت من كل مفاوض أرسلته ، بعد أن أنهى مفاوضاته مباشرة .. وقمت بتجنيد كل من طلبت تجنيده ، حتى (فوجيتا) نفسه ، وكل هذا دون أن أعرف لماذا أفعل هذا ؟!

تطلّعت إليه (سونيا) لحظات ، نفثت خلالها دخان سيجارتها ثلاث مرات ، قبل أن تقول :

ـ أهذا كل شىء ؟!

هزّت (تيا) كتفيها ، وعادت تسترخى على مقعدها ، وهى تقول :

ـ ولم أحصل على جوابه بعد .

ولأوّل مرة ، ابتسمت (سونيا) دون عصبية ، وهى تقول :

ـ كنت أتصوّر أنك ستدركين هذا وحدك ، بما عهدته فيك من براعة وذكاء .

هزّت (تيا) كتفيها مرة أخرى ، واسترخت أكثر فى مقعدها الوثير ، مغمغمة :

ـ هذا لا يبدو لى جوابًا .

تطلعت إليه (سونيا) بنظرة عجيبة ، تجمع بين الغضب والإعجاب ، قبل أن تقول :

ـ قتل المفاوضين سلاح شديد القوة ، فى لعبة التفاوض نفسها ؛ فمع كل مفاوض يقتل ، يتصوّر الطرف الآخر أنه هناك جهة ثانية ، تسعى للحصول على ما يقاتل هو للحصول عليه ، وهكذا يمكنك رفع سقف مطالبك ، إلى حده الأقصى .

صمتت (تيا) متطلعة إليها لحظات ، قبل أن تقول فى هدوء :

ـ لقد قتلت (وانج هو) أيضًا .

ارتفع حاجبا (سونيا) ، وهى تقول :

ـ مدير الاستخبارات الصينية فى (أمريكا) ؟!

أومأت (تيا) برأسها إيجابًا ، وهى تمط شفتيها ، قائلة :

ـ لقد تجاوز حدوده .

ثم اعتدلت بحركة مفاجئة ، متسائلة :

ـ هل عصبيتك هذه بسبب ما أخبرتك به ، عن وجود زوجك السابق فى (سويسرا) ، أم أنه هناك مشكلة ما ، فى خطة السلاح الجديد ؟!

استعادت (سونيا) عصبيتها ، وألقت ما تبقى من سيجارتها عبر الحجرة ، فتابعت (تيا) هذا بعينيها ، وهى تغمغم :

ـ عادة قبيحة .

لم تبال (سونيا) بتعليقها ، وهى تقـول ، مشعلة سيجارة جديدة :

ـ الأمور سارت على خير ما يرام ، بالنسبة للسلاح .

تألقت عينا (تيا) ، وهى تقول :

— هل حصلنا على المائتى مليار ؟!

أومأت (سونيا) برأسها إيجابًا ، وقالت :

— بالفعل ، ولكن لم يتم تسليم السلاح بعد .

مطّت (تيا) شفتيها مرة أخرى ، ثم نهضت لتملأ كوبًا بالماء البارد ، من المبرد فى ركن الحجرة ، وراحت ترتشفه فى بطء ، ثم قالت :

— لو أننى فى موضعك ، لما سلمتهم هذا السلاح .

غمغمت (سونيا) فى حذر :

— حقًا !!

أجابتها (تيا) ، وهى تضع الكوب الفارغ فى سلة المهملات ، المجاورة للمبرد :

— ما دام سلاحًا جبارًا كهذا ، فلماذا يحصل عليه غيرك ؟!

قالت (سونيا) فى صرامة :

— حتى لا أفقد كل شىء .

هزّت (تيا) كتفيها ، قائلة :

— ولماذا تفقدينه ؟!

مالت نحوها ، تجيب فى صرامة أكثر :

— لا بد وأنك قد نسيت أن الكمية المتبقية من السائل قليلة جدًا .

عادت (تيا) تهز كتفيها ، قائلة :

— خمسون سنتيمترًا ليست بالكمية القليلة .

صمتت (سونيا) لحظات ، نفثت خلالها دخان سيجارتها ، وهى تتطلّع إلى (تيا) ، قبل أن تقول فى عصبية :

— لم يعد لدينا سوى عشرة سنتيمترات مكعبة .

اتسعت عينا (تيا) فى دهشة غاضبة ، قبل أن تهتف ، معبرة عما جعل اتساع عينيها يبدو كذلك :

— وكيف هذا ؟!... كيف خسرنا أربعين سنتيمترًا دفعة واحدة ، على هذا النحو ؟!

بدت (سونيا) أكثر عصبية ، وهى تقول :

— أولئك العلماء الأغبياء ، استهلكوا أكثر من اللازم ، فى محاولتهم إعادة إنتاج السائل ، وعلى الرغم من هذا ، فقد فشلوا تمامًا ، وطلبوا عامًا إضافيًا .

غمغمت (تيا) :

— فتخلّصت منهم جميعًا .

حاولت (سونيا) أن تبتسم ، وهى تغمغم :

— وكيف عرفت ؟!

مرة أخرى هزّت (تيا) كتفيها ، وهى تقول :

— هذا نفس ما كنت سأفعله ، لو أننى فى مثل موقفك .

التقطت (سونيا) نفسًا كبيرًا من سيجارتها ، ثم نفثته في الهواء بقوة ، وقالت :

ــ لهــذا قلت لك : إننا لو عملنــا معًا ، سيمكننا السيطرة على العالم ، ولــو ...

بترت (سونيا) عبارتها دفعة واحدة ، فسألتها (تيا) في اهتمام :

ــ ولو ماذا ؟!...

أجابتها (سونيا) في بطء :

ــ ولو انضمت إلينا أنثى ثالثة ، سنمتلك العالم كله ، وسنثبت لكل رجل ، أن النساء هن من سيرثن الأرض في النهاية .

غمغمت (تيا) ، وهي تعود إلى مقعدها الوثير :

ــ ثالثة ؟!

مالت (سونيا) نحوها ، وهي تقول :

ــ نعم ... دونا (كارولينا) ... زعيمة منظمة (المافيا) العالمية(*) .

انعقد حاجبا (تيا) في شدة ، وهي تدير الأمر في رأسها ، قبل أن تشير من خلف ظهرها إلى (أيجور) ، الذي يقف صامتًا ساكنًا في ركن الحجرة الواسعة ، كما لو كان تمثالاً من الشمع ، متسائلة :

ــ أهو أبكم أطرش أم ماذا ؟!

ابتسمت (سونيا) ، قائلة :

(*) راجع قصة (دونا كارولينا) ... المغامرة رقم (60) ، من سلسلة (رجل المستحيل) .

ــ إنه حارسي الخاص ... ثم إننا نتحدث اليابانية ، التي يجهلها تمامًا .

غمغمت (تيا) ، وهي تلقي نظرة جانبية على (أيجور) :

ــ لا تعتمدي كثيرًا على هذا .

مع آخر كلماتها ، دق أحدهم باب الحجرة ، فأشارت (سونيا) إلى (أيجور) ، الذي أسرع يفتح الباب ، الذي ظهر على عتبته أحد رجال (سونيا) ، وهو يقول :

ــ الطرد الذي أرسلت في طلبه وصل أيتها الزعيمة .

قالت (سونيا) بلهجة زعيمة قوية :

ــ دعه ينتظر ... سأطلبه بعد أن ينتهي لقائي مع صديقتي هنا .

قالت (تيا) في صرامة ، باللغة اليابانية :

ــ وشريكتك .

ابتسمت (سونيا) قائلة بالإنجليزية :

ــ وشريكتي .

تراجع الرجل في خضوع ، مغمغمًا :

ــ أمرك أيتها الزعيمة .

فور إغلاق (أيجور) الباب ، قالت (تيا) في حزم :

ــ كيف أحصل على نصيبى من الصفقة ؟!

أجابتها (سونيا) فى سرعة :

ــ نحن نجرى حساباتنا الآن ... سنخصم كل التكاليف ، وبعدها ستحصلين على ثلث الربح كما اتفقنا .

سألتها (تيا) فى هدوء :

ــ ولماذا ليس النصف ؟!

أجابتها (سونيا) فى صرامة :

ــ لأن هذا ما اتفقنا عليه ، ولأننى أنا صاحبة اللعبة كلها .

قالت (تيا) بنفس الهدوء :

ــ وأنا الذى قمت بكل المخاطرة .

تجاهلت (سونيا) ما تلمح إليه (تيا) ، وهى تتجه نحو خزانتها السرية الخاصة قائلة :

ــ وهناك مخاطرة أخيرة ستقومين بها .

غمغمت (تيا) فى توتر :

ــ مخاطرة أخيرة ؟!

لم تجب (سونيا) تساؤلها فورًا ، وإنما أشارت إلى (أيجور) ، قائلة فى صرامة :

ــ أدر وجهك للجدار .

أطاعها على الفور ، على نحو جعل (تيا) تمط شفتيها امتعاضًا ، فى حين فتحت (سونيا) خزانتها السرية ، وأخرجت منها القنينة ، التى تحوى ما تبقى من السائل الجبار ، وأغلقتها فى إحكام ، قبل أن تلتفت إلى (تيا) ، قائلة :

ــ ستتولين مهمة تسليم عينة السائل إلى الأمريكيين .

انعقد حاجبا (تيا) ، وهمت بقول شىء ما ، عندما صدر صوت ارتطام دوى فوق رءوسهم ، ثم حدث أمر مذهل ...

مذهل بحق .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

« خمس دقائق ونصل إلى الهدف يا جنرال ... »

قالها أحد الضخمين ، المصاحبين للجنرال (كوربوف) ، فانعقد حاجبا هـذا الأخيـر الغليظان ، وهـو يجذب مزلاج مدفعه الآلى ، ويقول فى صرامة :

ـ الأمر لن يكون سهلاً يا رفاق ، ولكن (روسيا) تستحق منا أن نقاتل من أجلها .. ثم إننا لا ينبغى أن نسمح لذلك المصرى بالفوز بسلاح جبار كهذا .

لم يفهم قائد الهليوكوبتر ، التى يستقلها (سيرجى) ومساعداه ، حرفًا واحدًا مما قيل باللغة الروسية ، إلا أنه لمح تلك المدافع الآلية ، والقنابل اليدوية ، التى يعلقها الثلاثة فى أحزمتهم ، فقال فى عصبية :

ـ مهما كان الأجر الذى تقاضيته ، فهو لا يشمل التواجد ، وسط حرب صغيرة .

قال (سيرجى) فى صرامة :

ـ إنك ستبقى ، حتى آمرك بالرحيل .

هتف قائد الهليوكوبتر فى حدة :

ـ لا يمكنك إجبارى على هذا .

غمغم (سيرجى) فى بطء :

ـ حقًا .

قال الرجل فى عناد ، وهو يدور بالطائرة :

ـ نعم حقًا .. وسأعود فورًا إلى ...

قاطعه (سيرجى) ، فى صرامة قاسية :

ـ غادر الهليوكوبتر .

خيّل للرجل أنه لم يسمع الأمر جيدًا ، فقال فى توتر عصبى :

ـ ماذا ؟!

مال عليه أحد الضخمين ، قائلاً فى خشونة :

ـ عندما يأمرك الجنرال بمغادرة الهليوكوبتر .

اتسعت عينا الطيّار ، عندما حل الضخم حزام مقعده ، ومد يده يفتح باب الهليوكوبتر المجاور له ، وهو يضيف :

ـ فليس أمامك سوى طاعته .

صرخ الطيّار :

ـ لو سقطت من هذا الارتفاع ، فسوف ...

امتدّت عبارته إلى صرخة رعب عالية ، عندما دفعه الضخم خارج الهليوكوبتر ، ثم لم يبال حتى بإلقاء نظرة عليـه ، وهـو يحتل مقعد القيادة ، ويعيد الهليوكوبتر إلى مسارها ، و(سيرجى) يقول :

ـــ أمامنا هدفان ، عندما تصل إلى هناك ... الحصول على ذلك السائل الجبار ، واصطياد (أدهم صبرى) .

غمغم الضخم الثانى :

ـــ حيًا ؟!

أجابه (سيرجى) بكل الصرامة :

ـــ لا فارق .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف ، فى لهجة حملت كل ما يموج به كيانه من انفعالات :

ـــ المهم أن تظفروا به ... وبأى ثمن .

لم يكد يتم عبارته ، حتى سمع دويًا قويًا فوق رأسه ، وقبل أن يلتفت إلى مصدره ، رأى ما جعل عينيه الضيقتين تتسعان ...

إلى أقصى حد ...

* * *

بينما كان جسداهما يسبحان فى الهواء ، ألقى كل من (أدهم) و(منى) خطافًا قويًا ، ارتطم بسقف حجرة (سونيا) ، الذى تخفيه الثلوج ، والغرس فيه بقوة ، فى حين واصل جسداهما اندفاعهما ، متجاوزين موقع وكر (روسيا) بعدة أمتار ...

ثم بلغ الحبل ، الذى يربط كل منهما بخطافه مداه ، فارتد جسداهما مرة أخرى ...

نحو نافذة (سونيا) الكبيرة مباشرة ...

وبكل الذهول ، رأت (سونيا) جسديهما يندفعان ، نحو نافذتها الكبيرة ، المضادة للرصاصات ، فاتسعت عيناها عن آخرهما ، وسقطت سيجارتها الرفيعة من بين شفتيها ، فى حين قبضت أصابعها على تلك القنينة الصغيرة ، التى تحوى آخر ما تبقى من السائل الجبار ، الذى خاضت من أجله كل هذا ...

وعلى الرغم من معرفتها بأن نافذة (سونيا) مضادة للرصاصات ، وثبت (تيا) من مكانها ، واستلت مسدسها الصغير ، الذى تخفيه فى حزام ساقها ، وصوّبته نحو النافذة ، فى حين سحب (أيجور) مسدسه الضخم ، الذى يتناسب مع حجمه العملاق ، وأطلق زمجرة أشبه بزمجرة دب ، وهو يدفع نحو النافذة ... كل هذا حدث ، وجسدا (أدهم) و(منى) يندفعان نحو النافذة ، ومع اقترابهما منها ، هتف (أدهم) :

ـــ الآن .

مع هتافه ، ألقت (منى) شيئًا أشبه بكبسولة كبيرة ، نحو النافذة الزجاجية ، فانفجرت تلك الكبسولة على السطح للزجاج ، وأطلقت فى جزء من الثانية ما يشبه شبكة عنكبوتية بيضاء على سطحه الخارجى ...

وبمدفعه ، أطلق (أدهم) رصاصاته نحو الزجاج المضاد للرصاص والانفجارات ، و ...

وتراجعت (سـونيا) مذعـورة وذاهلة ، عندما حطّمت رصاصات (أدهم) زجاج النافذة ، المفترض أنها مضادة للرصاص والانفجارات ، ثم

اندفع جسدا (منى) و(أدهم) عبرها ، وسط عاصفة من قطع الزجاج ، الباردة كالثلج ...

وقبل حتى أن يلمس جسداهما الأرض ، أثبت (أدهم) و(منى) أنهما معًا فريق شديد الاحتراف ، لا يشق له غبار ...

فبشقطة حرفية ، انفصلت زلاجتاهما عن أقدامهما ، وفي جزء من الثانية ، فحصت عينا (أدهم) المكان ، ثم ومع هبوطه على قدميه ، أطلق رصاصة ...

رصاصة واحدة ، أصابت الرتاج الإليكتروني لمدخل حجرة (سونيا) ، قبل أن يدور بجسده في سرعة ، متفاديًا تلك الرصاصات ، التي أطلقتها عليه (تيا) ، في حين تراجعت (سونيا) إلى ركن الحجرة ، وهي مازالت تقبض على قنينة السائل الجبار بأصابعها في قوة ...

أما (منى) ، فقد رأت (أيجور) بجسده العملاق ينقض عليها وعلى (أدهم) ، فرفعت مسدسها ، وأطلقت منه ثلاث رصاصات نحو صدره ...

وارتطمت الرصاصات الثلاث بصدر (أيجور) ، فدفعت جسده الضخم إلى الخلف لمتر واحد ، قبل أن يسقط أرضًا ، ثم يعاود النهوض مرة أخرى ، وهو يطلق زمجرة أكثر وحشية وغضبًا :

وهتفت (منى) في دهشة :

ــ لقد نهض واقفًا على قدميه !!!... أي ثور هذا ؟!

أجابها (أدهم) ، وهو يتفادى رصاصة (تيا) الأخيرة :

ــ المشكلة إذن في قدميه .

التقطت (منى) الرسالة ، وأطلقت رصاصتين إضافيتين ...

نحو ساقي (أيجور) مباشرة ...

وفي نفس اللحظة التي سقط فيها الثور ، وهو يطلق خواره ، الذي جمع بين الألم والغضب ، كان (أدهم) يعتدل واقفًا ، مواجهًا (تيا) ، وهو يقول في هدوء ، لا يتناسب مع الموقف كله :

ــ لو أنك قد أحصيت الرصاصات التي أطلقتها ، كما أحصيتها أنا ، لعلمت أن خزانة هذا الطراز ، لا يمكنها أن تحوي أكثر مما أطلقته ...

دوت رصاصة من خلفه ، مع نهاية عبارته ، وامتزج دويها بزمجرة أخرى من (أيجور) ، الذي أمسك يده اليمنى في ألم شديد ، بعد أن أصابتها رصاصة (منى) ، التي أطلقتها عليه ، عندما حاول إطلاق النار عليها ...

وبدون أن يلتفت (أدهم) إلى دوي الرصاصة ، أدار عينيه إلى (سونيا) ، وهو يقول :

ــ أهذا هو ذلك السائل ، الذي يتقاتل الكل ، من أجل الفوز به ؟!

قبضت أصابعها على قنينة السائل في قوة أكثر ، وعلى نحو استوعبت منه عين (أدهم) الكثير ..

والكثير جدًا ...

وكل هذا قبل أن تقول (سونيا) في عصبية شديدة :

ــ لن تحصل عليه يا (أدهم) .



خيّل إليها أن ابتسامة ساخرة قد تألّقت فى عينيه ، وهو يقول :

ــ إنها آخر كمية منه ... أليس كذلك ؟! ..

كانت (تيا) تحدق فيه فى ذهول ، وهى تقول :

ــ هل تنزلق الرصاصات عن جسده أم ماذا ؟!

غمغمت (سونيا) بكل العصبية :

ــ إنه يتحرك بسرعة كبيرة ، حتى ليصعب أن تجيدى التصويب عليه .

هتفت (تيا) فى غضب ، وهى تلقى مسدسها جانبًا :

ــ المفترض أن هذا الزجاج مضاد للرصاص والانفجارات .

أشار (أدهم) بيده ، وهو يقول :

ــ مع خطأ بسيط ... الزجاج من الداخل يواجه حجرة دافئة ، ومن الخارج طقس شديد البرودة ، مما يضعف من مقاومته إلى حد كبير .

أضافت (منى) ، وهى تعتدل ، حاملة مسدسها :

ــ ولقد ضاعفنا من هشاشته ، بتلك الكبسولة ، التى فجرناها ، على السطح المواجه للطقس البارد .

غمغمت (سونيا) فى مقت :

ــ (LIN) .

أومأ (أدهم) برأسه ، وهو يقول :

ــ بالضبط .. ليتروجين سائل(*).. ذلك السائل ، الذى هزم سائلك الجبار ، عندما خفض حرارة السطح الخارجى ، لزجاجك المضاد للرصاص ، إلى حد جعله أشبه بقطعة من الثلج ... وكلانا يعلم إنه عندما يصل جسم ما إلى هذه الحالة ، تبلغ هشاشته الحد الأقصى ، فيسهل تحطيمه(**) .

بدا الغضب والغل واضحين فى صوتها ، وهى تغمغم :

ــ لكل نظام ثغرة يا عزيزى (أدهم) ، مهما بلغ إحكامه ... كلنا هنا نعلم هذا .

ثم رفعت قنينة ما تبقى من السائل الجبار ، هاتفة :

وهذه هى ثغرة خطتك يا (أدهم) .

بدا هائنا أكثر مما ينبغى ، فى حين صرخ (أيجور) :

ــ القوات أيتها الزعيمة ... فلنستدع القوات من الخارج ، و...

بتر عبارته ، عندما ركلته (منى) فى أنفه مباشرة ، بكل ما تملك من قوة ، وهى تقول :

ــ إنك تفسد حديثنا الودى .

دار رأس (أيجور) فى قوة ، ودارت عيناه فى محجريهما ، قبل أن يسقط فاقدًا الوعى ، فى حين قالت (تيا) فى حنق :

(*) النيتروجين السائل : هو النيتروجين فى الحالة السائلة ، عند درجة حرارة منخفضة للغاية ، وقد تم إنتاجه صناعيًا ، بتقطير الهواء الجوى جزئيًا ، وهو سائل عديم اللون ، ظهر لأول مرة فى جامعة (جاجيلونيان) فى 5 أبريل 1883م.

(**) حقيقة علمية فيزيقية .

ــ هذا الغبى لم يدرك أن أوّل رصاصة أطلقتها أيها المصرى ، هى التى حطمت الرتاج الإليكترونى للباب ، فصار من المستحيل اقتحامه ، أو حتى معرفة ما يدور خلفه .

لم يعلّق (أدهم) على عبارتها ، وبدا وكأنه لم يسمعها ، وهو يقول :

ــ لست أرى ثغرة فى هذا يا (سونيا) .

أبرزت هاتفها المحمول ، فى يدها الأخرى ، وهى تهتف فى انفعال :

ــ وجودك هنا يعنى أننى قد خسرت المعركة يا (أدهم) .. ولكن هذا السائل لم يكن بالنسبة لى مجرد سلاح ... بل كان أملاً فى أن أصبح أقوى من يحكم هذا العالم ... ومن أجل هذا الهدف ، ضحيت بالكثير والكثير ، فإذا ما خسرت ، فلن يصبح لحياتى معنى ... ولهذا ...

قبل أن تتم عبارتها ، أدنت يدها الممسكة بالهاتف المحمول من قنينة السائل ، ولم يعد أمامها سوى أن تضغط زرًا واحدًا ، لينطلق رنين الهاتف ...

ويدوى الانفجار ...

ويحدث الدمار الشامل ...

للغاية ...

* * *

« مستحيل !!... »

هتف بها (سيرجى) ، وهو يحدّق فيما يراه ذاهلاً ، وهو الملقّب بقلب الجليد ، الذى لا ينفعل إلا لمامًا ...

أما عيناه الضيقتان ، فقد اتسعتا عن آخرهما ..

فمن فوق الهليوكوبتر المدنية ، التى يقودها أحد رجاليه ، عبر سرب من طائرات الهليوكوبتر ...

سرب كامل ، من طائرات الهليوكوبتر الحربية ، التى تنطلق نحو نفس الهدف ، الذى تنطلق هى إليه ...

وكز (سونيا جراهام) ...

وربما لأوّل مرة فى حياته ، احتقن وجه (سيرجى) فى قوة ، فى حين غمغم أحد رجليه الضخمين فى توتر :

ــ الأمريكيون يا جنرال .

قال فى حدة :

ــ لقد رأيتهم .

لم يكن الأمر يحتاج حتى إلى إدارته فى الرأس ، أو الاختيار بين خيارين ، ولهذا فما أن هتف الضخم الثانى :

ــ ماذا سنفعل يا جنرال ؟!

حتى أجابه مباشرة :

ــ سنعود أدراجنا .

قالها فى صوت أجش غليظ ، كان يتمنى أن يخرجه صارمًا حازمًا ، إلا أنه عجز عن هذا ، مع شعوره المؤلم بالقهر والهزيمة .

وبدون مناقشة ، وفى سرعة توحى بأن هذا ، ما اتفق عليه الجميع ، دار رجله الضخم بالهليوكوبتر ، فى حين راح (سيرجى) يتابع ابتعاد طائرات الهليوكوبتر الحربية ، وهو يطلب رقم رئيسه ، ويقول فى حشرجة مختنقة :

ــ جنرال (كواليسكى) .. الأمريكيون اقتحموا الساحة بأعداد كبيرة ، ونحن مضطرون للانسحاب .

وابتلع ما بدا له أنه قطرة من لعابه ، قبل أن يتابع :

ــ يبدو أنهم مصرون على الحفاظ على زعامتهم للعالم .

مرة أخرى ، حاول عبثًا ابتلاع لعاب لم يعد موجودًا ، فى حلقه الجاف ، وهو يضيف فى صوت أكثر تحشرجًا :

ــ المعركة الآن بينهم وبين (أدهم صبرى) .. فقط .

وأغلق الهاتف ، وهو يقاوم فكرة حاولت السيطرة على عقله ...

فكرة أن يلقى جسده فوق جبال (تبليس) ...

وبلا مظلة ...

* * *

رصاصتان انطلقتا فى آن واحد ، داخل حجرة (سونيا) ، حتى أن دويهما جعلهما يبدوان كرصاصة واحدة ...

رصاصة أصابت هاتف (سونيا) ...

والرصاصة الثانية أصابت هدفًا ، لم يخطر ببال أحد على الإطلاق ...

حتى (منى) نفسها ...

أصابت تلك الزجاجة الكبيرة ، فوق مبرد المياه ...

وتفجَّرت المياه ، مع تحطُّم الزجاجة ، وغمرت جزءًا من أرضية الحجرة ، حيث تقف (سونيا) و(تيا) ، فهتفت هذه الأخيرة :

ــ ما الهدف من هذا ؟!

تمامًا ، ويقول لـــ (سونيا) بدا شبح ابتسامة ، على ركن شفتى (أدهم) ، وهو يتجاهل سؤال (تيا) فى هدوء :

ــ أى زر هذا ، الذى ستضغطينه يا (سونيا) ؟!

رمقته (سونيا) بنظرة نارية ، وتقدَّمت خطوتين إلى الأمام ، فى حرص بالغ ، وهى تقول :

إنك لم تربح اللعبة بعد يا (أدهم) .

بدأ هدير طائرات الهليوكوبتر الحربية الأمريكية يبدو واضحًا ، مع البرودة التى جلبها تحطُّم النافذة ، فالتفتت (تيا) إليها ، ولمحت الأضواء العديدة ، التى تقترب فى سرعة ، و(سونيا) تقول :

ــ ما زلت لن تحصل على سائلى الجبار .

قال (أدهم) فى هدوء :

ــ لو صحت توقعاتى ، فهذا الهدير لطائرات أمريكية ، تبحث عن وكرك هنا ، لقصفه وتدميره .

غمغمت (سونيا) ، وهى تدرك أنه على حق :

ــ الأوغاد .

هزّ (أدهم) كتفيه ، وهو يواصل بنفس الهدوء :

ـــ أنت تعرفينهم كما أعرفهم يا (سونيا) ... لن يشعروا بالأمان ، لمجرَّد حصولهم على هذا السائل الجبار ... الأمان بالنسبة لهم سيكون بالقضاء المبرم ، على كل من يحتمل احتفاظه بقطرة واحدة منه ؛ فهم يدركون مثلنا ، أن الموت يكمن فى كل قطرة منه ، أيًّا كانت هوية من يمتلكها .

لاحظ وهو يتحدث معها ، أنها تعطى إشارات خفية لشريكتها (تيا) ، والتى راحت تقترب منها بالفعل ، فتحفزت سبَّابته على زناد مدفعه ، وهو يتابع ، وكأنه لم يلحظ هذا :

ـــ و لو أردت رأيى ، فوجود هذا السائل خطر يهدِّد البشرية كلها ، حتى ولو حاول من يمتلكه الحفاظ على سر تركيبه ، بكل الوسائل الممكنة .

غمغمت (سونيا) :

ـــ وكل نظام أمنى ، مهما بلغت استحكاماته ، يحوى ثغرة ما .. أليس كذلك ؟!

أجابها فى هدوء :

ـــ بالضبط .. فى البداية ستمتلكه جهة واحدة ... وبعدها سيتسرَّب بوسيلة أو أخرى ، إلى جهة ثانية ، ثم ثالثة ... ورابعة .. وهكذا ... وكما قيل قديمًا : إن الحرب القادمة ستكون حرب مياه ، فهى على الأرجح ستكون حرب سوائل الدمار الشامل .. هل توافقيننى الرأى يا (سونيا) .

صمتت (سونيا) تمامًا ، وهى تدير حديثه فى رأسها ، وهدير طائرات الهليوكوبتر الحربية الأمريكية يقترب ..

ويقترب ...

ويقترب ...

ثم ، وفى بطء ، رفعت يدها الممسكة بالقنينة ، قائلة بنفس البطء :

ـــ وأمن إسرائيل سيتعرَّض للخطر ، مثل أمن أية دولة أخرى ، لو أن هذا ما تقصده .

قبل أن تتم عبارتها ، رفع (أدهم) مدفعه فى سرعة ، وأطلق منه رصاصة واحدة ...

رصاصة أصابت القنينة ، التى تحوى ما تبقى من السائل الجبار ، فانفجرت بين أصابع (سونيا) ، التى أفلتت أصابعها ، قبل جزء من الثانية ، وكأنها تدرك ما سيفعله (أدهم) .

وبكل غضب الدنيا ، شاهدت (تيا) ما تبقى من السائل ينسكب أرضًا ، وصرخت :

ـــ أيتها الحمقاء .

ثم انتزعت هاتفها فى سرعة ، وضغطت زرًّا أعدَّته مسبقًا ، فانطلق رنينه قويًّا ، وألقته نحو السائل الذى انسكب أرضًا .

السائل الذى ينتظر رنين هاتف واحد ؛ لكى يتحوَّل إلى قنبلة أكثر من نووية ..

بكثير ..

* * *

تألقت عينا قائد طائرات الهليوكوبتر الأمريكية ، وهو يقول لقيادته العليا ، عبر هاتف أقمار صناعية :

ـــ تم تحديد الهدف ، عبر صور الأقمار الصناعية ، التى رصدت اشتباكات محدودة فيـــه ، ونحن ننطلق الآن نحـــوه مباشرة ...

أتاه صوت مدير المخابرات الأمريكى ، وهو يقول فى حزم :

ــ لا تطلقــوا صاروخًا واحــدًا نحــو الهدف .. أريد اقتحامًا نظيفًا ... لا أريد اقتحامًا يفسد كل شىء .

انعقد حاجبا قائد طائرات الهليوكوبتر ، وهو يقول :

ــ سيدى ... مع كامل الاحترام لك ، المفترض أن أتلقى أوامرى من وزير الدفاع ، أو أركان حــرب الجيش الأمريكى ، أو ...

قاطعه مدير المخابرات فى صرامة :

ــ رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أسند إلىّ هذه العملية ، وستتلقون أوامركم منى مباشرة ، راق لكم هذا أو لم يرق .

ولم يرق هذا لقائد الطائرات ، ولكنه غمغم :

ــ بالتأكيد يا سيدى ... بالتأكيد .

قال مدير المخابرات الأمريكى فى حزم :

ــ والآن اسمعنى جيدًا .

ولكن قائد طائرات الهليوكوبتر لم يسمعه ..

هذا لأنه سمع وشاهد أمرًا آخر ، جذب كل مشاعره واهتمامه وانتباهه ...

شاهد وسمع وكر (سونيا جراهام) وهو ينفجر ...

وبمنتهى العنف .

الفصل الأخير

« كل هذا خطأ .. »

هتف وزير الدفاع الأمريكى بالعبارة فى حدة ، على الرغم من أنه يقف أمام الرئيس الأمريكى ، فى مكتب هذا الأخير ، الذى رمقه بنظرة متوترة ، دون أن ينبس ببنت شفه ، فى حين قال مستشار الأمن القومى فى قلق :

ــ ماذا تعنى بهذا ؟!

لوّح وزير الدفاع بذراعه كلها ، وهو يقول :

ــ لم يكن من المفترض إسناد مهمة عسكرية لمدير المخابرات .

تبادل الرئيس ، مع مستشار الأمن القومى ، نظرة مشفقة ، جعلت وزير الدفاع يحتقن ، وهو يقول فى صرامة عصبية :

ــ ولم يكن من الصحيح أن تكون هناك عملية عسكرية من الأساس .

انتبه الاثنان إليه هذه المرة ، مما شجّعه على أن يتابع فى حزم ، لم يخل من التوتر :

ــ من الوارد جدًا ، أن يفترض من وراء عملية (قطرات الموت) ، كما أطلقنا عليها ، أن هذه الحملة العسكرية تستهدف الاستيلاء على السائل بالقوة ، والتخلّص منه فى ذات الوقت .

قال الرئيس الأمريكى فى حدة :

ــ لقد دفعنا ثمن السائل الجبار بالفعل .

لوّح وزير الدفاع بذراعه مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ كان ينبغى انتظار تسلّمه إذن .

كان الرئيس الأمريكى يهم بقول شىء ما ، عندما اندفع مستشار الأمن القومى ، قائلاً فى صرامة :

ـ وماذا عن الروس ؟!... هل كنا سنتركهم يسبقوننا إلى هذا السلاح الجبار الجديد ؟!

هتف به وزير الدفاع فى حدة :

ـ وهل تتصوّر أن منظمة بهذه القوة ، ستعجز عن مواجهة حفنة من الروس ؟!...

ثم اعتدل ، وملأ صدره بالهواء ، قبل أن يضيف فى حدة صارمة :

ـ أو حتى عن مواجهة جيش محدود أرسلناه .

كان الرئيس الأمريكى هو من اندفع هذه المرة ، هاتفًا :

ـ هل تعتقد .. ؟!

لم يتم سؤاله ، ولكن الرجلين داخل المكتب البيضاوى استوعبا ما لم ينطقه ، فأشار الوزير بيده ، مجيبًا :

ـ ماذا لو أن لديهم سلاحًا يطلق قذائف صغيرة ، من ذلك السائل الجبار ، تكون قادرة على نسف سرب طائراتنا الهليوكوبتر نسفًا .

امتقع وجه الرئيس الأمريكى ، وتراجع فى مقعده ، وقد اتسعت عيناه قليلاً ، فى حين زاغت عينا مستشار الأمن القومى ، وهو يتحسّس المقعد خلفه فى حذر ، قبل أن يجلس عليه فى بطء ...

أما وزير الدفاع ، فقد شعر لأوّل مرة ، منذ بدأ كل هذا بالظفر ، مما جعله يشد قامته ، وينقل بصره بين الرجلين ، قائلاً فى حزم ، خلا من كل أثر للتوتر هذه المرة :

ـ لو كان لى أن أنصحكما ، فأرى أنه من الأفضل أن نبحثا عن تبرير منطقى ، لإقناع (الكونجرس) بنقص مائتى مليار ، من ميزانية الشعب الأمريكى .

اختار عمدا لفظ (الشعب الأمريكى) ، بدلا من لفظ (الحكومة الأمريكية) ، حتى تعطى كلماته تأثيرا أكبر ...

وبمنتهى الظفر ، شدّ قامته ، وذلك الشعور داخله يتصاعد ...

ويتصاعد ...

ويتصاعد ...

* * *

عندما ألقت (تيا) هاتفها ، وهو يطلق رنينه ، نحو أرضية الحجرة ، التى انسكبت عليها بقايا السائل الجبار ، تراجعت (منى) فى حركة حادة ، ورفعت (سونيا) ذراعها ، تحمى وجهها على نحو غريزى ، وحتى (تيا) نفسها قفزت إلى الخلف ...

الكل كان يتوقع انفجارًا رهيبًا ، يطيح بالمنطقة كلها ، وليس بالمكان فحسب ...

فيما عدا (أدهم) ...

وحده ظل واقفًا فى مكانه ، دون أن تتحرك فى جسده خلية واحدة ...

أما ملامحه ، فلم تحمل ذرة من الخوف ،

فقط حملت لمحة من الترقُّب ...

صحيح أنه ، وطوال حياته ، لم يخش الموت لحظة واحدة ...

ولكن هذا لم يكن السبب ...

« مستحيل .. »

صرخت بها (تيا) ، عندما سقط هاتفها على أرضية المكان ، وسط ما تبقى من السائل الجبار ، وما انسكب من ماء المبرد ، وهو يواصل رنينه ...

دون أن يحدث شىء ...

لا انفجار ...

ولا دوى ...

ولا حتى فرقعة خافتة ...

واتسعت عينا (تيا) الضيقتان فى ذهول ، فى حين غمغمت (سونيا) ، بكل انفعال الدنيا :

ـــ ولكن كيف ؟!..

تقدَّم (أدهم) خطوتين ، وركل هاتف (تيا) ، ليرتطم بالجدار ويتحطَّم ، ويتوقف رنينه المزعج ، فى نفس الوقت الذى هتفت فيه (منى) :

ـــ يمكنك أن تضم تساؤلى لتساؤلها .

أشار (أدهم) بيده فى هدوء ، وهو يقول :

ـــ الأمر أبسط مما تتصوَّرون .

ثم رفع سبابته ، مضيفًا :

ـــ الماء ... الماء الذى خلق منه الله سبحانه وتعالى كل شىء حى .

بدا من الواضح أن (منى) و(سونيا) قد استوعبتا الأمر على الفور ، إذ ارتفع حاجبا الأولى ، ثم انخفضا ، ليشتركا مع ابتسامتها ، فى رسم ملامح الإعجاب على وجهها كله ، فى حين انعقد حاجبا (سونيا) ، وظهر مقت الدنيا كله على وجهها ...

أما (تيا) ، فقد غمغمت فى حيرة غاضبة :

ـــ الماء ؟!

ابتسم (أدهم) ابتسامة باهتة ، على الرغم من الطرقات القوية ، التى أتت من ناحية باب حجرة (سونيا) ، وهدير طائرات الهليوكوبتر الحربية الأمريكية ، الذى يقترب من ناحية النافذة المكسورة ، وقال فى هدوء :

ـــ لهذا أطلقت النار على مبرِّد المياه ، فقد تصوَّرت أن إحداكما قد تلجأ ، فى لحظة يأس ، إلى استخدام ذلك السائل الجبار ، ووجدت أن أفضل وسيلة لمنع هذا ، هى تغيير التركيب الكيميائى لذلك السائل .

غمغمت (تيا) مستنكرة :

ـــ بالماء ؟!

هزَّ كتفيه مجيبًا :

ــ مبردات المياه لا تحوى ماء صافيا فى المعتاد ... بل ماء ممزوج بمجموعة من المعادن والأملاح ... أى ما يكفى لتغيير تركيبة السائل تماما ، عندما تمتزج به ... على الأقل ستتلف حالة عدم الاستقرار بين جزيئاته .

غمغمت (سونيا) فى مقت :

ــ وماذا لو أنه لم يكن يمتزج بالماء ؟!

هزّ كتفيه فى لا مبالاة ، قائلاً :

ــ لما كنا جميعًا نتساءل عن هذا الآن .

ارتفع صـــوت (سونيا) ، مع ارتفاع دوى الطرقات الآتية من اليمين ، وهدير الطائرات القادم من اليسار ، وهى تقول فى حـــدة :

ــ كان يمكن أن يكون هناك انفجار محدود ، أو ...

قاطعها فى حزم :

ــ كل الاحتمالات كانت واردة ، إلا احتمال واحد .

ثم مال نحوها ، مكملاً :

ــ أن تتعرّض (مصر) لهذا الخطر مرة أخرى .

غمغمت (سونيا) :

ــ هل تعتقد هذا ؟!

التقطت علبة سجائرها الخاصة ، وسحبت منها سيجارة ، دستها بين شفتيها الجميلتين ، وهى تقول :

ــ هذه الطرقات التى تسمعها ، ستتوقف بعد أقل من دقيقة واحدة ، عندما يدرك رجالى أنه من المستحيل اقتحام حجرتى بهذا الأسلوب ، وعندئذ سيستخدمون الليزر القاطع .

قال فى هدوء :

ــ أعلم هذا .

اتسعت ابتسامة الانتقام فى عينيها ، وهى تكمل :

ــ أما بالنسبة لوطنك (مصر) ، فينبغى أن تعلم أن هذه لم تكن آخر كمية من السائل ... هناك قطرات منه ، أرسلتها منذ ثلاث ساعات ، مع أحد رجالى إلى (القاهرة) ... وفور وصوله سيجرى اتصاله بجهاز كمبيوتر خاص ، مبرمج بحيث بعـد الاتصال به ، بعـد دقيقة واحدة ... أو بمعنى أدق ، سينطلق رنين هاتفه ، الذى سيضعه بالقرب من آخر عبوة من السائل ، و ...

بترت عبارتها ، لتلوّح بيديها ، هاتفة :

ــ وبوم ... قل وداعا لعاصمتكم الجميلة ... وداعا يا قاهرة (المعز) كما تطلقون عليها .

ثم أمسكت يد (ثيا) ، وجذبتها إليها ، وهى تخرج من جيبها قداحة فضية ، ضغطت زرها ، وهى تردف :

ــ ودعنا نتحدّث عندئذ عمّن ضحك فى النهاية .

قداحة فضية !!..



هذا لا يتناسب مع شخصية (سونيا جراهام) ...

فقـز هـذا إلى ذهـن (أدهم) ، الذى تحرَّك فى سرعـة ، نحو (سونيا) و(تيا) ...

ولكن ...

فى لحظة واحدة ، وبسرعة خرافية ، انفتحت الأرض تحت المرأتين ، وانزلق جسداهما إلى أسفل ، ثم عادت الأرض تغلق مرة أخرى ...

وعلى الجدار المقابل ، كان هناك مصباح أحمر ، يضىء على نحو متقطع ، وفى سرعة تتزايد تدريجيًّا .

ولأنها محترفة ، أدركت (منى) ما يعنيه هذا ، فهتفت :

ـــ يا إلهى !... (أدهم) ...

كان هذا فى نفس اللحظة ، التى اقتربت فيها طائرات الهليوكوبتر الحربية الأمريكية من الهدف ...

ثم كان هذا الانفجار الرهيب ...

للغاية ...

* * *

أمسك نائب مدير المخابرات المصرية ، آخر التقارير الواردة ، بشأن عملية (أدهم) الأخيرة ، وراح يقرأه على مسامع المدير ، قائلاً :

ـــ الانفجـار دمَّر وكر (سونيا) تمامًا ، وقضى على كل ما فيـه ومن فيـه .

توقَّف عن القراءة ؛ ليهز رأسه ، قائلاً :

ـــ تلك الأفعى بالفعل لا قلب لها ... شخصية سيكوباتية(*) من الطراز الأول .

وافقه المدير بإيماءة من رأسه ، ثم أشار إليه بيده ، قائلاً :

ـــ أكمل .

تابع النائب :

ـــ لم يتم العثور على أى أثر ، لا لـ (سونيا) ولا لـ (تيا) ، وبعد رفع الأنقاض ، تبين وجود نفق ، أسفل حجرة الأولى ، تم نسف نهايته ، حتى لا يعرف أحد إلى أين يقود .

انعقد حاجبا المدير ، قائلاً :

ـــ هذا يعنى أن الجولات مع تلك الأفعى ، لم تنته بعد .

هزَّ النائب رأسه ، وعاد يكمل القراءة :

ـــ الجنرال (سيرجى كوريوف) عاد إلى (موسكو) ، والأمريكيون لم يعثروا على شىء مفيد وسط الحطام ، وهناك أخبار عن استجواب فى الكونجرس للرئيس الأمريكى ، بشأن إهدار مائتى مليار دولار ، من الميزانية الفيدرالية .

(*) الشخصية السيكوباتية : أكثر الشخصيات تعقيدًا ، وصعوبة فى التعرف ، فالشخص السيكوباتى لبق معسول الكلام ، أنيق المظهر ، ونشط فى ذاته وخطير قاتل ، لا يجد قيمة للآخرين ، وليس لديه مانع من التضحية بهم بلا مبالاة ، فى سبيل ملذاته .

اعتدل المدير ، متسائلاً :

ــ وماذا عن (ن-١) والمقدم (منى) ؟!

ألقى النائب نظرة على ساعة يده ، قائلاً :

ــ المفترض أن تكون طائرتهما قد وصلت بالفعل يا سيادة الوزير .

التقط المدير نفسًا عميقًا ، وتراجع فى مقعده ، مغمغمًا :

ــ حمدا لله .

ثم اعتدل مرة أخرى ، قائلاً فى حزم :

ــ أريد مقابلة (ن-١) فور وصوله إلى (القاهرة) .

« فى خدمتك يا سيادة الوزير ... »

قالها (أدهم) فى هدوء ، وهــو يقف أمام مدير المخابرات ، بعــد ما يقرب من ساعة واحدة ، فى حجرة مكتب هذا الأخير ، الذى نهض من خلف مكتبه ، ودار حوله ليصافحه فى حرارة ، وهو يقول :

ــ حمدا لله على سلامتكما يا (ن-١) ... لا يمكنك أن تتصوَّر مقدار الخدمة التى قدمتماها لــ(مصر) هذه المرة .

ابتسم (أدهم) ابتسامة باهتة ، سرعان ما تلاشت ، وهو يقول فى حزم قوى :

ــ لقد أدينا واجبنا يا سيادة الوزير .

ابتسم مدير المخابرات ، وربّت على ذراعه ، ثم عاد إلى ما خلف مكتبه ، وهو يقول :

ــ عندما أرسلت تطلب قطع الاتصالات الهاتفية بمختلف أنواعها ، عن (مصر) كلها ، بدا المطلب عجيبًا وشاذًا وغير مقبول ، مما احتاج إلى قرار من سيادة الرئيس شخصيًا .

قال (أدهم) فى حزم :

ــ كنت أسعى إلى نزع فتيل القنبلة .

أشار المدير بيده ، قائلاً :

ــ ولقــد فعلت ... ورجــال الأمن قاموا بدورهم أيضًا ، على الرغم مما سببه هذا من غضب واعتراض ، لدى عدد كبير من القادمين إلى مطار (القاهرة) و(الإسكندرية) ، و(الأقصر) و(الغردقة) و(شرم الشيخ) ، وحتى مطار (برج العرب) ... ولكننا قمنا بتفتيش كل راكب ، وفحص محتويات حقائبه بمنتهى الدقة .

قال (أدهم) مستعيدًا ذاكرته :

ــ عندما أخبرتنى (سونيا) أنها قد أرسلته منذ ثلاث ساعات ، أدركت أنه لم يصل إلى (مصر) بعد ، وأن أجهزة الأمن ستؤدى دورها جيدًا .

أومأ المدير برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ اسمه (ليوناردو كابريتى) ، شاب إيطالى الجنسية ... كان يحمل عينة السائل فى قنينة صغيرة ، أشبه بعبوة بنسلين عادية ، ولكننا عندما قلنا إننا سنقوم بفحصها ، ثار على نحو غير طبيعى ، وهدَّد بالتجوء لسفارته ، مما أكَّد لرجال الأمن أنه يخفى شيئًا ، فألقوا القبض عليه ، وسلموا زجاجة السائل لنا ، كما قضت الأوامر حينذاك .

غمغم (أدهم) :

ـ حمدًا لله العلى العظيم .

تطلع إليه مدير المخابرات لحظات ، ثم قال :

ـ يقولون إن (لى فوجيتا) ، نائب مدير المخابرات اليابانية قد اختفى تمامًا ، ولم يتم العثور عليه ، والتحريات تقول : إن آخر موضع شوهد فيه هو (برن) فى (سويسرا) ، ومع رجل لم يتم تعرف هويته ، فهل تعتقد أنه كان فى وكر (سونيا) ، عندما انفجر بكل ما فيه ومن فيه ؟!

صمت (أدهم) لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ لا يوجد تفسير آخر يا سيادة الوزير .

هزّ المدير رأسه ، ثم سأله ، وابتسامة ترتسم على شفتيه :

ـ وماذا عن (جون لو) ؟!... هل تعتقد أنك كنت قادرًا على هزيمته ، فى دقيقة واحدة بالفعل .

هزّ (أدهم) كتفيه ، وهو يجيب :

ـ الواقع أننى كنت أبالغ قليلاً ، عندما قلت هذا يا سيدى ،

وصمت لحظة أخرى ، ثم أضاف :

ـ لقد كنت أستطيع هزيمة فى عشر ثوانٍ فحسب .

ارتفع حاجبا المدير فى دهشة ، سرعان ما تلاشت ، وهو يقول :

ـ لولا أننى أعرف قدراتك جيدًا ، لاتهمتك بالغرور يا (ن-١) .

أشار (أدهم) بيده ، قائلاً :

ـ الأمر لا صلة له بالغرور يا سيدى ... (الجيت كون دو) ، كان أحد الأساليب ، التى تدربت عليها ، منذ نعومة أظفارى ، ولقد شاهدت الكثير من مباريات (جون لو) فى هذا المجال ، ويمكننى معرفة نقاط ضعفه ، وكيفية استخدامها لهزيمته ، فى أقل وقت ممكن ... أليس هذا ما تدربنا عليه هنا ؟!... أن نستخدم المعلومات لهزيمة الخصم .

وافقه المدير بنحنحة خافتة ، ثم اعتدل يسأله فى اهتمام :

ـ ولكنك لم تذكر فى تقريرك ، كيف نجوت أنت والمقدّم (منى) ، من انفجار وكر (سونيا) .

هزّ (أدهم) كتفيه ، قائلاً :

ـ لم يكن هناك سوى سبيل واحد ... لقد التقط كل منا زلاجتيه ، ووثبنا عبر النافذة ، قبيل لحظات من الانفجار .

تراجع المدير فى مقعده ، متسائلاً :

ـ ولكن النافذة تبعد سبعة عشر مترًا ، عن أقرب سطح جليدى .

صمت (أدهم) لحظات ، وكأنما يسترجع ذكرى الموقف ، ثم أجاب :

ـ لست أدرى كيف فعلنا هذا فى الواقع يا سيادة الوزير ، ولكننا ارتدينا زلاجتينا ونحن نسبح فى الهواء ، وعندما دفعنا الانفجار إلى الأمام ، وجدنا نفسينا نتزلّج بسرعة على الجليد .

ارتفع حاجبا المدير فى دهشة ، وهو يقول :

ـ يمكننى استيعاب هذا ، عندما تقول : إنك قطعته يا (ن-1) ، أما بالنسبة للمقدم (منى) ...

لم يتم المدير عبارته واضحة المعنى ، فابتسم (أدهم) ، مغمغمًا :

ربما هو (الأدرينالين) يا سيادة الوزير :

قالها ، وهو يسترجع تلك اللحظة ، وما لم يبح به ، أو يذكره فى تقريره عنها ...

لقد أدرك أن ذلك المصباح ، الذى يتسارع تتابع تألقه ، هو بمثابة عد تنازلى لانفجار سينسف كل ما تركته (سونيا) خلفها ، حتى لا تترك دليلا واحدًا ، يمكن أن يقود إليها ...



لم يكن يدرى كم تبقى قبل الانفجار ، ولكنه أدار عينيه إلى (منى) ، التى التقطت زلاجتيها ، وهمت بارتدائهما ، و ...

وبكل ما يملك من سرعة ، اندفع نحوها ، وحملها مع زلاجتيها بين ذراعيه ، ووثب معها عبر النافذة ...

ومن خلفهما ، دوى الانفجار ...

وشعر بجسديهما يندفعان إلى الأمام ...

ويهويان ...

(*) الأدرينالين : هرمون وناقل عصبى ، تفرزه الغدة الكظرية فوق الكلوية ، وهو يعمل على زيادة نبضات القلب ، وانقباض الأوعية الدموية ، أو إنه باختصار يؤهل الجسد لطاقات مؤقتة ، تفوق طاقته الطبيعية بعدة مراحل .

لم يكن ارتطامه بالجليد مؤلمًا ، ولكن كل ما حرص عليه عندئذ ، هو ألا تصاب (منى) بسوء ...

أدنى سوء ...

كانت طائرات الهليوكوبتر الحربية الأمريكية تحوم حولهما ، فالتصقا بالجليد ، حتى يخفيهما معطفاهما الأبيضان عن أنظار الأمريكيين ..

وفى لهفة ، همس لـ (منى) :

ـ أأنت بخير ؟!

لمست راحتها خده ، وهى تغمغم :

ـ ملاكى الحارس يرعانى .

ثم أردفت فى قلق :

ـ ولكننا تركنا زلاجتيك خلفنا .

تطلع إلى وجهها فى ارتياح وهو يقول :

ـ زوج من الزلاجات يكفينا ... لن يكون هذا سهلاً ولكننى أعتقد أنه ممكن .

احتملا البرودة القارصة ، حتى ابتعدت طائرات الهليوكوبتر ، ثم نهض يرتدى زلاجتيها ، وحملها بين ذراعيه فى حنان ورفق ، وغمغم :

ـ السرعة قد تشعرك ببعض البرودة الإضافية .

تمتمت ، وهى تحيط عنقه بذراعيها :

ــ على العكس ... إننى أشعر بالدفء ...

« أهناك ما لم تذكره فى تقريرك يا (ن-1) ..؟! »

انتزعه سؤال المدير من شروده ، فاعتدل فى وقفة عسكرية ، وهو يقول :

ــ لماذا السؤال يا سيادة الوزير .

ابتسم المدير ، وهو يقول :

ــ الشرود مع الابتسامة .

ثم تراجع فى مقعده ، مستطردًا :

ــ ولا تنس أننى رجل مخابرات قديم يا (ن-1) .

التقط (أدهم) نفسًا عميقًا ، وهو يسأل ، فى محاولة مفضوحة لتجاوز السؤال :

ــ وماذا عن ذلك السائل الجبار يا سيدى ؟!... هل صرنا نحن من يمتلكه ؟!...

صمت مدير المخابرات لحظات ، قبل أن يقول مبتسمًا ، ابتسامة فهم :

ــ الإجابة هى نعم ولا فى نفس الوقت يا (ن-1) ... فالكمية التى حصلنا عليها ... منه ، ليست أكثر من سنتيمتر مكعب واحد ، والخبراء هنا يقولون : إنها ليست كمية كافية لإعادة إنتاجه ، مع ما نمتلكه من تكنولوجيا علمية محدودة ، ومن الضرورى أن يظل وجوده لدينا سرًا ؛ حتى لا نخوض حربًا استخباراتية شرسة بسببه .

التقط نفسًا عميقًا ، ثم تابع :

ــ ولقد أجرى الخبراء تجربة على قطرة واحدة منه ، كان لها تأثير شديد التدمير ، إلى درجة أذهلت الجميع .

غمغم (أدهم) :

ــ هذا يعنى أنه سلاح جبار بالفعل !

رفع المدير سبّابته ، قائلاً :

ــ تستطيع أن تقول : إنه سلاح المستقبل ، حيث يكمن الموت والدمار فى قطرة .. قطرة واحدة .

ثم اعتدل فى مجلسه ، مضيفًا :

ــ ومن حسن الحظ أن أحدًا لا يعلم بحصولنا عليه ... وسنعتبره أحد أهم وأخطر أسرارنا ، حتى يتمكن علماؤنا من معرفة صيغته الكيماوية ، ويصبحون قادرين على إعادة إنتاجه .

زفر (أدهم) ، وهو يغمغم :

ــ أسلحة الموت والدمار تثير حفيظتى دومًا يا سيادة الوزير .

وافقه الوزير بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

ــ ولكنها سلاح ردع قوى .

وصمت لحظة ، ثم تابع بابتسامة كبيرة :

ــ عندما يعلم الآخرون أننا نمتلكه .

ترددت تلك الكلمات فى ذهن (أدهم) ، وهو ينطلق بسيارته عبر شوارع (القاهرة) ، فى طريقه إلى منزل (منى) ...

سلاح ردع قوى ، عندما يعلم الآخرون أنك تمتلكه ...

لهذا فعل كل ما فعل ...

لكى تصبح (مصر) قادرة على أن تعد لهم ما استطاعت من قوة ، ومن رباط الخيل ...

ولكن لماذا يشغل ذهنه بكل هذا الآن ؟! ..

المفترض أن يهنئه للقاء (منى) فى منزلها ، ووسط والديها ...

والسؤال الوحيد ، الذى ينبغى أن يشغله الآن ، هو : هل سيجد فى نفسه القدرة على أن يخبرها بما يشعر به نحوها ؟!...

وهل الوقت يناسب هذا ؟!...

هل ؟!...

وعلى الرغم من كل ما يخوضه من أهوال ، دون أن يطرف له جفن ، وجد نفسه يشعر بحالة من التوتر ، لم يشعر بها وهو يواجه أعتى أنظمة المخابرات العالمية ، ولا أكثر التنظيمات عنفًا وشراسة ...

ومع اقترابه من منزلها ، التقط نفسًا عميقًا ، وغمغم فى أعماق نفسه ...

مادام الموت يكمن فى قطرة ، فلماذا لا تكمن الحياة أيضًا فى قطرة ؟!...

قطرة حب ...

صافية .

* * *

تمت بحمد الله



روايات مصرية

رجل المستحيل





د. نبيل فاروق

الموت فى قطرة

عندما فجرت الولايات المتحدة الأمريكية قنبلتها الذرية الأولى، فى السادس من أغسطس عام ١٩٤٥م، انقلبت موازين القوى فى العالم، الذى أدرك أنه هناك قوى تدميرية جديدة، قادرة على إبادة مدن كاملة بضربة واحدة ...

فماذا لو ظهر سلاح جديد جبار، يؤدى الغرض نفسه عبر قطرات من سائل خاص، يسهل نقله واستخدامه، ولا يترك خلفه آثارًا ضارة تدوم لسنوات، مثل القنبلة الذرية؟!..

وكيف ستتسابق كل القوى العالمية، للحصول على ذلك السلاح الجديد الجبار؟! ...

السؤال والجواب يكمنان فى قطرة .... والموت أيضًا يكمن فى قطرة ... واحدة.

